الثقافة الجديدة

فكر علمي- ثقافة تقدمية

تأسست عام 1953

رئيس التحرير: صالح ياسر

مجلس التحرير

حمدان يوسف حيدر سعيد
رائد فهمي زهير الجزائري
سامي خالد سعدي يوسف
عزيز سباهي كامل شياع
الفريد سمعان هادي محمود
مهدي محمد علي

المواد المنشورة تعبّر عن آراء اصحابها

339

اغلق تحرير العدد في 20 أيلول 2010

السعر :2000 دينار

الاشتراك السنوي : (6أعداد) : 50 دولار أو ما يعادلها و100 دولار للمؤسسات.
ايميل رئيس هيئة التحرير:
thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير :
thakafajadida4u@gmail.com
عنوان الموقع على شبكة الانترنت :
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة : بغداد - شارع ابو نؤاس، والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع في المكتبة الوطنية :781
يمكن تحويل مبالغ الاشتراك على الحساب المصرفي للمجلة :

ALJADID
Lloyds TSB Bank plc
Sort Code 30-93-89
Account No: 1871659
UK

ترجو هيئة التحرير المساهمين في المجلة مراعاة ما يأتي في ما يرسلون للنشر:

❖أن تكون المقالة أو الدراسة أو الشعر ... الخ مستوفية لشروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.

❖ ألا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة.

❖ ان تكون المادة معدة أصلا للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن أخرى.

❖ يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الألكتروني أو على قرص مدمج. أما المكتوبة باليد فنرجو إرسال نسختها الأصلية. وارتباطاً بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير، فيما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو ان ترسل مع المقال أو الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود 50 كلمة إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال أو الدراسة.

❖ لاتعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة إعلام صاحبها بذلك.

❖ بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الألكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.

❖ للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي ترِدها.

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والاعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد

مقـــالات

9-تنامي قوة النفط ومستقبل الاقتصاد السياسي في العراق ..... صبري زاير السعدي
16- ماركس وجيمس أندرسون حول التباين في خصوبة التربة.....ثامر الصفار
20-نخبةالـ NGOsمقدمة لـ(الأمير ما بعد الحديث) .....حيدر سعيد
29-أنموذج افتراضي لدراسة الشخصية العراقية .....محمد حمود ابراهيم
41-قراءة في بعض مذكرات عامر عبد اللّه .....اعداد: عبد الرزاق الصافي
51-الفضائيات العربية وأثرها في تزييف الوعي الاجتماعي.....محمود شمال حسين

نصوص متـــرجمة

66-مئة زهرة /ردود على تصريح البروفسور يانغ
وحوارات مع البرفسورات يي و وانغ وتسي.....ترجمة: عزيز سباهي
73-رأسمالية الدولة عصر يتشكل هل هو نهاية السوق الحرة ؟..... ترجمة: هاشم نعمة

أدب وفـــن

85 -ثلاث قامات ثقافية جديدة تغادر منصة الابداع .....هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة)
91 - الشيوعي العراقي:
مأثرة "كامل شياع" أمثولة لكل المثقفين الحقيقيين..... كلمة الحزب الشيوعي العراقي

شعر

93-كالضوء في الظلمات طائرهم يغيب .....ياسين طه حافظ
97–شياع..! لاتحجب الشمس الا من محياها.....باقر الفضلي
99-هذا هو الدرب.....عبد الستار نور علي

مقالات

101- سلالم ... ريما توصليني الى السياب ..... مقداد مسعود
108- آلية تشغيل ذاكرة الشخصيات في سرد قاصات النجف .....مؤيد عليوي

قصص قصيرة

113- سقوطاً الى الهاوية .....أحمد محمد الموسوي
116- كلاب سائبة .....سلام حربه

لوحة الغلاف الاول:
من اعمال يحيى الواسطي وهو شيخ المدرسة البغدادية للتصوير في العصر العباسي الوسيط، ارتبط اسمه مع مقامات الحريري وقد رسمها وزخرفها وخطها وذهبها.

لوحة الغلاف الاخير:.
لوحة مائية للفنان عبد الامير علوان، فنان عراقي له العديد من المعارض الشخصية والمشتركة في الداخل والخارج، مبدع بالألوان المائية.

كلمة العدد

يعاني الاقتصاد العراقي من أزمة بنيوية عميقة، وبالمقابل فانه لا يمكن تجاوز هذه الأزمة إلا من خلال القيام بـ "إصلاح اقتصادي جذري ". ولكن المشكلة تظهر عندما لا تجري الإشارة الى مضمون هذا "الإصلاح" الذي يراد تطبيقه، أو أن يؤكد البعض انه لا يمكن تحقيق ذلك إلا من خلال اعتماد خيار "الخصخصة" الرنان. ولا يكتفي منظرو هذه الطبعة من "الإصلاح" بهذه الحجج بل يتكئون على حجة أخرى هي أن تجارب القطاع العام فشلت وان دور الدولة الاقتصادي قد انتهى على صعيد عالمي، وان التاريخ الحالي هو تاريخ "الإصلاحات"الكبرى، وضرورة الاستفادة من تجارب الآخرين !!

لكن عندما يتساءل المرء عن هذه "التجارب" يأتيه الجواب جاهزا ومعلباً: تحقيق "الإصلاح" يتم من خلال التجارب "الناجحة " التي نفذت في مناطق أخرى. وما يثير الانتباه أن هؤلاء يتناسون أن هذه "التجارب" ليست سوى تلك التي نفذتها المؤسسات المالية والنقدية الدولية، فشروط هذه الوصفة ونتائجها معروفة للجميع بما حملته من آثار مدمرة على اقتصاديات البلدان التي طبقت فيها.

وحتى عندما يأتي الحديث عن "دور متميز" للقطاع الخاص المحلي فإنه يُكبل بجملة من الشروط تجعل من الصعب تبلور قطاع صناعي وطني، بل أن دور هذا القطاع يجب أن يكون جزأً من وصفة المؤسسات الدولية وإستراتيجيتها.

وما يثير الانتباه الى انه ورغم أهمية هذه القضايا إلا أنها لم تخضع إلى النقاش المجتمعي المفتوح مما حال، ويحول، دون التداول المسؤول في حاجات الإصلاح الخاصة ببلادنا ووفقا لمرحلة تطورها الاقتصادي والاجتماعي، وفي أهداف الإصلاح المنشودة أو المقترحة وغاياته المستقبلية ومراميه العاجلة واللاحقة ونتائجه المتوقعة وعواقبه المحتملة ومتطلباته الاقتصادية والسياسية المحلية والخارجية.

ومن أجل مواجهة التحديات الداخلية والخارجية وخلق الشروط للتغلب على الأزمة البنيوية العميقة التي تواجه بلادنا ومجتمعنا تنبثق الحاجة ملحة الى صياغة إستراتيجية جديدة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية. ويشكل المدخل الى بلورة هذه الإستراتيجية تدشين نقاش عام حول برنامج للإصلاح الخطوة الأولى والأساسية في محاولة الخروج من الأزمة.

إن الإصلاح الاقتصادي المطلوب يجب أن ينظر إليه باعتباره سيرورة اقتصادية اجتماعية سياسية شاملة، وبالتالي تجنب ما يسمى بـ "الإصلاحات الجزئية " التي لا تكون جزءاً عضويا من مشروع متكامل.

وإضافة لذلك يتعين أن يستند هذا الإصلاح إلى إستراتيجية للتنمية تسعى الى تحقيق

أهداف أساسية من بينها:

– تغيير البنية المتخلفة والأحادية الجانب التي تمييز الاقتصاد العراقي. فقد بينت التجربة التاريخية أن الاعتماد الكثيف على النفط، كمصدر وحيد تقريبا للدخل والنقد الأجنبي، قد كشف هشاشة بنية الاقتصاد الوطني، علماً بأن مشكلة التنمية في بلادنا لا تكمن في " التكاثر المالي " الناجم أساسا عن تصدير النفط الخام بل في الاستخدام السئ للعوائد النفطية وهذا ناجم في الواقع عن انعدام استرايجية تنموية تعرف أهدافها بدقة ووضوح، وهذا ينطبق حتى على إستراتيجية التنمية 2010 – 2014.

– إحداث تحول حقيقي (وليس إجراء ترقيعات) في بنية القطاع الصناعي وبما يمكن من خلق ديناميكية جديدة للتطور التكنولوجي، وذلك عن طريق إجراء تحديث تكنولوجي عميق. ومن المؤسف أن " خارطة الطريق لإعادة هيكلة شركات الدولة " لا تساعد على تحقيق هذا التحول.

– تحقيق العدالة الاجتماعية وإعادة التوازن المختل للبنية الاجتماعية من خلال إعادة توزيع الثروة والدخل القومي وإعارة اهتمام استثنائي للفئات الاجتماعية التي تضررت من سياسات النظام المقبور.

– تفعيل الطاقات الكامنة في الاقتصاد والمجتمع من خلال التوظيف السليم لكل الموارد المادية والبشرية والاستفادة من الإمكانيات والخبرات والمهارات البشرية العالية المتواجدة في الداخل والخارج.

ومن اجل ضمان نجاح هذه الإستراتيجية وتحقيق أهدافها فلا بد من توفر طائفة من الشروط، من بينها:

– إن تنطلق الإصلاحات المنشودة من الاحتياجات الفعلية الموضوعية لمجتمعنا في لحظة تطوره الملموسة والتي تكمن في تحقيق التنمية المستدامة والعدالة الاجتماعية بالاستناد إلى الإمكانات الذاتية من جهة مع السعي لبناء علاقات متفاعلة ومتوازنة ومتكافئة مع الاقتصاد العالمي.

– تفعيل التعددية الاقتصادية في هذه المرحلة، فالتنمية المطلوبة تعني من بين ما تعنيه الاستفادة الصحيحة من كافة القطاعات: الحكومي والخاص والتعاوني والمشترك. ومن جانب آخر لابد من التأكيد هنا على انه لا الخصخصة ولا القطاع العام يمثلان خيارات اقتصادية صرفة بل هما يعبران عن خيارات سياسية كبرى وخطيرة في آن واحد، تدور في جوهرها حول محتوى الدولة العراقية الجديدة، وشكلها، والوجهة التي تتخذها، أي أنهما يقعان ضمن معركة البدائل التي تتصارع في هذه اللحظات المتوترة والمفتوحة.

– توفير إجماع مجتمعي حول الإصلاح المطلوب. ولن يتحقق ذلك إلا من خلال العلنية والشفافية والمشاركة الفاعلة من طرف مختلف أوساط المجتمع ومفكريه وخبرائه عبر تدشين نقاش عام من اجل بلورة المواقف بشأن القضايا الكبرى أو المفاصل الأساسية للإصلاح المطلوب وعند إعداد الخطط الاقتصادية. وإذ نؤكد على هذه الملاحظة فإننا نود الإشارة الى آن كثيرا من هذه القضايا جرت دراستها وتم إعداد البرامج والسياسات الخاصة بها في غرف مغلقة.

– ضرورة توفر إرادة سياسية حازمة وقوى اجتماعية قادرة على وضع مشروع الإصلاح موضع التطبيق وتحويل مفرداته الى واقع ملموس، وأن يحظى هذا المشروع بالمصداقية المطلوبة من مختلف قطاعات المجتمع. وهذا يتطلب أن يرافق الإصلاح الاقتصادي جهود مركزة وحثيثة وصادقة للقضاء على الفساد واليات إنتاجه و "ثقافته" التي ساهم النظام المقبور بزراعتها وتعززت بعد 2003 بـ "فضل" الاحتلال والقوى التي تناوبت على السلطة لاحقا.

إن الحاجة ملحة اليوم أكثر من أي وقت مضى لتدشين حوار وطني شامل حول كبريات القضايا التي تواجه بلادنا ومجتمعنا في اللحظة التاريخية الملموسة وبما يساعد على تحديد الإطار المطلوب للتحولات الاجتماعية –السياسية، وبناء اقتصاد وطني ذي بنية ديناميكية قادرة على التكييف مع المتغيرات الناشئة على ارض الواقع العراقي وكذلك مع متطلبات التحولات الاقتصادية والسياسية العالمية وما تطرحه من استحقاقات.

مقـــــالات

تنامي قوة النفط ومستقبل الاقتصاد السياسي في العراق ×

د. صبري زاير السعدي

ولد الدكتور صبري زاير السعدي في بغداد وتعلم في مدارسها، ونال البكالوريوس في الاقتصاد من جامعة بغداد. كما حصل على درجة الدكتوراه في تخطيط الاقتصاد الوطني من جامعة برمنكهام البريطانية. بدأ حياته العملية في المجالات الاقتصادية مبكراً وشغل مناصب وظيفية اقتصادية بارزة في الدولة العراقية واستشارية في المنظمات الاقتصادية والإنمائية الدولية عمل من خلالها في عدد من الدول العربية. نشر العديد من الدراسات والبحوث الخاصة بتخطيط التنمية وبالسياسات الاقتصادية وبمتابعة الأحداث الاقتصادية الدولية في الأدبيات المحلية والعربية والعالمية. وقد تركزت اهتماماته الفكرية والمهنية والسياسية منذ فترة في الأزمة الاقتصادية بالعراق والدعوة للمشروع الاقتصادي الوطني.

أولاً: احتمالات متناقضة

عقدت الحكومة العراقية في الأشهر الأخيرة مجموعة من اتفاقات الاستثمار الطويل الأجل مع شركات النفط الأجنبية بهدف زيادة إنتاج النفط الخام من حقول البلاد الغنية بنحو 9 مليون برميل يومياً ليصل مجموع الإنتاج نحو 12 مليون برميل يومياً في عام 2017/2016. وبغض النظر عن المواقف العديدة المتباينة في التقييم المالي والاقتصادي والفني وفي شرعية هذه

الاتفاقات، فإن تنفيذها "الناجح المفترض" سيكون له تأثيرات اقتصادية وسياسية إستراتيجية تفوق كثيراً نتائجها المالية المتوقعة كما يظهر في تجارب العراق البارزة في عام 1951 وعام 1673. كذلك، من المتوقع أن تكون للزيادة الموازية في صادرات النفط بنحو (6-9) مليون برميل يومياً آثاراً كبيرة في متغيرات سوق النفط والطاقة العالمي. وفي تحليل الأبعاد المستقبلية لهذه التطورات، ومع الأخذ بالاعتبار ظروف التشوهات الهيكلية السائدة في السوق المحلية، وبالاستناد إلى ديناميكية اقتصاد النفط – الريعي كما تكشف عنها تجارب العراق، فإن الإضافة الجديدة المتوقعة لقوة النفط تعيد تأكيد الاستنتاج الهام الذي سبق وقدمناه عن وجود احتمالين رئيسيين متناقضين لمستقبل تطور البلاد، هما:

1- إما الانتفاع الرشيد من "الزيادة" الكبيرة المتوقعة في الإيرادات النفطية في بناء الاقتصاد الوطني وفي التخفيف من المشاكل الاجتماعية ذات العلاقة.

ويمكن تحقيق هذا الهدف فقط بتطبيق إستراتيجية التنويع الاقتصادي التي تقلل من اعتماد الدولة الكبير، وما يتبع ذلك اعتماد المواطنين، على الصادرات النفطية في تمويل الإنفاق العام والخاص والاستيراد.

2- أو، استغلال الإيرادات النفطية في خدمة مجموعات اقتصادية واجتماعية صغيرة والنخبة السياسية الحاكمة والذي سيؤدي إلى تقييد العملية الديمقراطية، بل وقد يشجع على ظهور نظام دكتاتوري جديد.

وتظهر التجربة العراقية الطويلة منذ خمسينات القرن الماضي أن تراكم سوء استعمال الإيرادات النفطية كان من العوامل الرئيسية في المشاكل الحالية المتفاقمة. كما تظهر أيضاً، ومنذ عام2003، أن الأحزاب المهيمنة والحكومات لا تمتلك رؤيا وطنية مستقبلية واضحة وبرامج للتنمية الاقتصادية والاجتماعية مدعومة بالتزامات سياسية للتعامل مع هذه المشاكل.

والأكثر أهمية، ليس هنالك بين الأحزاب الحاكمة رؤى متجانسة أو آراء راسخة وموثقة سياسياً تؤطر الخصائص الرئيسية المطلوبة لدولة العراق الحديثة. كما أن الفشل الظاهر في إدارة الدولة يمتد لأكثر من مجال حماية الحريات الفردية والعامة، وتأمين الاستقرار السياسي، والترويج للديمقراطية، إذ يشمل أيضاً القصور في توفير الحاجات الأساسية والخدمات والمنافع العامة للمواطنين.

ومن جهة أخرى، إذ يؤكد الواقع السياسي الراهن بأن العراقيين منشغلين على نطاق واسع في الشأن السياسي العام كما ينعكس في اهتمامهم بالإنتخابات العامة وانتخابات المحافظات، فإن هنالك اتجاه تنازلي في شعبية الأحزاب الإسلامية، الشيعية والسنية، وكذلك الأمر بالنسبة للأحزاب الليبرالية والديمقراطية، بما فيها الأحزاب الحاكمة في منطقة كردستان الفيدرالية، التي تتراجع مصداقيتها بين المواطنين، ولو بدرجات مختلفة. ويبرز في الوقت الحاضر تطوران مهمان يبعثان على القلق من مخاطرهما الاجتماعية والسياسية والاقتصادية:

1- زيادة التباين في الدخول والثروات بين القلة من المنتفعين من الحرب والاحتلال ومن السياسيين البارزين المحترفين من جهة، وبين أغلبية المواطنين الذين تدهورت مستويات معيشتهم وتزايد وقوعهم في فخ الفقر من جهة ثانية. كذلك يتزايد التباين بين مستويات

التطور الاقتصادي والاجتماعي في المحافظات أيضاً.

2- انتشار الفساد المالي والإداري على نطاق واسع في جميع المؤسسات الحكومية وفي أوساط النخبة السياسية الحاكمة.

ثانياً: قوة النفط والرؤيا الوطنية المستقبلية

بالإضافة إلى أن "التنفيذ الناجح" لاتفاقات النفط الجديدة سوف يحسن مركز العراق ودوره في الشرق الأوسط، ويعزز مزايا الدولة الجيو - سياسية الإستراتيجية، وسيتزايد نفوذها في منظمة الأقطار المصدرة للنفط (الأوبك). فإضافة (6-9) مليون برميل في اليوم لتجهيزات النفط الخام العالمية سوف يؤثر جذرياً في أسعار النفط والطاقة في الأسواق، وسيتسبب ذلك في إحداث تحول بعيد المدى في توازن القوى بالمنطقة.

ولكن، وفي مقابل هذه التوقعات المتفائلة، لا يمكن لأية محاولة لصياغة الإستراتيجية والسياسات الاقتصادية أن تكون فاعلة في بناء العراق بدون وجود إطار عام لرؤيا وطنية مستقبلية حيث تكون الثروة النفطية عنصراً إستراتيجياً في متطلبات تحقيقها.

وفي الحقيقة، كما كان للإيرادات النفطية دور مهم في تطور البلاد منذ الخمسينات، استمرت هذه الإيرادات بلعب دور رئيس في الحفاظ على كيان الدولة بعد سقوط النظام الدكتاتوري السابق من خلال تمويل إعادة بناء القوات الأمنية والعسكرية، وزيادة الإنفاق الحكومي وتوفير الخدمات العامة. هذا بالإضافة إلى التمويل المباشر وغير المباشر لفعاليات الأحزاب والمجموعات السياسية الفاعلة.

لقد كانت الاهتمامات المحلية والأجنبية في السياسات النفطية متباينة بعد الاحتلال.

فالرأي بإعادة تأهيل البنية الأساسية المتدهورة للصناعة النفطية وزيادة إنتاج وصادرات النفط لأقصاها كان السائد والأكثر شعبية، بينما نصحت الشركات الأجنبية بخصخصة الصناعة النفطية. كذلك، اقترح البعض تجريد الدولة من قوة النفط بتطبيق "فانتازيا" توزيع الإيرادات النفطية نقوداً بين المواطنين، واقترح آخرون بأن إعادة تأهيل الصناعة يجب أن يتم بواسطة مؤسسات القطاع العام، وفضل البعض العمل بعقود الخدمة بدلاً من اتفاقات الاستثمار المباشر مع شركات النفط الأجنبية. ومهما كانت مبررات وجدوى تلك الآراء المختلفة، فإن الاهتمام الرئيس بالنسبة للمواطنين كان، وما يزال، هو الإبقاء على الملكية العامة لفعاليات الصناعة النفطية المختلفة، أي عمليات الاستكشاف، والإستخراج، والصادرات، والتصنيع.

غير أن المسألة الاقتصادية الهامة جداً في هذه الآراء، هي، أن جميع السياسات النفطية المقترحة لم تتناول في خلفيتها وأهدافها معالجة العلاقة المعضلة بين طريقة الانتفاع من الإيرادات النفطية وبين أهداف الإستراتيجية والسياسات الاقتصادية الكلية. ففي الحقيقة، كان اهتمام جميع الأطراف ذوي العلاقة بالاقتصاد العام والسياسة النفطية متركزاً في النتائج المالية المباشرة لهذه السياسات. وهو اهتمام أدى، ويؤدي، إلى ارتكاب الخطأ الإستراتيجي للحكومات بوضع عربة السياسة النفطية أمام حصان أهداف إستراتيجية التنمية.

في الوقت الحاضر، ما تزال الآراء العراقية مختلفة بشأن تقدير المنافع - التكلفة المالية والاقتصادية ولشرعية هذه الاتفاقات

النفطية. فبينما فضلها البعض، شكك آخرون في شرعيتها، ومنهم من أثار مشكلة طاقات التصدير المحدودة حالياً، وآخر توقع نشوء تأثيرات سيئة عند زيادة إنتاج و (تصدير) النفط بأكثر من 6 مليون برميل في اليوم، وهنالك من سعى لإلقاء الضوء على الأبعاد السلبية لاحتمال سيطرة الشركات الأجنبية على الثروة النفطية. كما هنالك أيضاً التساؤل فيما إذا كانت "للزيادة المستهدفة" في الموارد المالية النفطية العامة ضرورة اقتصادية عاجلة. ويلاحظ في هذه الآراء، أنها تماثل من حيث الجوهر الاختلافات التي عرقلت الموافقة على مشروع "قانون النفط والغاز لسنة 2007" الذي أجازته الحكومة ورفضه مجلس النواب، وكذلك الآراء التي رفضت منازعة حكومة منطقة كردستان الفيدرالية لمركزية تصرف الدولة بالإيرادات النفطية العامة.

وعلى أية حال، فإن ما هو متوقع بموجب هذه الاتفاقات، ازدياد إنتاج النفط الخام ليكون معدله 12 مليون برميل في اليوم ابتداءاً من عام 2016 /2017. ومثل هذا الواقع الجديد سوف يغير جذرياً الاتجاهات المستقبلية في أسواق النفط والطاقة وذلك بإضافة نحو 38% إلى تجهيزات نفوط أوبك في عام 2016، و18% في عام 2030. وستساهم الزيادة المتوقعة في الصادرات بمقدار 9 مليون برميل في اليوم نحو 9.4% و8.5% من الطلب العالمي المتوقع على النفط في عامي 2016 و2030 على التوالي.

وبصورة عامة، وفي المدى الأبعد، يمكن تصور توقع التأثيرات الاقتصادية والسياسية الرئيسية الآنية، لهذه الاتفاقات كما يلي:

1- تعزيز نهج الحكومة العملي (البراغماتي) القصير الأجل، ومن المحتمل جداً استرخاء الجهود المطلوبة لمعالجة المشاكل الاقتصادية الهيكلية المزمنة.

2- زيادة إنفاق الحكومة وإنفاق القطاع العام بصورة كبيرة. كما أن الزيادة الكبيرة في الإيرادات النفطية ستمنح الفرص للحكومات القادمة لإخفاء فشلها في التعامل مع المشاكل الاقتصادية والاجتماعية المتفاقمة.

3- مع الأخذ بالاعتبار حالة الحكم وإدارة الاقتصاد الوطني السيئة خلال سبع السنوات الماضية، ستزداد استرخاءاً جهود زيادة الطاقات وكفاءة دوائر الحكومة الاقتصادية والمالية والنقدية والمؤسسات العامة، وكذلك انجاز مهام إعادة تقييم المشاريع العامة.

4- وفي السياسة الخارجية، ستزداد كثيراً الثقة بتملك الدولة لقوة مساومة سياسية ومالية واقتصادية وعسكرية أكبر في مقابل دول الجوار ودول منطقة الشرق الأوسط.

ثالثاً: قصور السياسات الاقتصادية

يتصف الاقتصاد الوطني في ظروف تشوهات السوق السائدة، بالظواهر التالية: تراجع الإنتاج غير النفطي، والبطالة العالية، وانخفاض مستوى الدخل والاستهلاك الفردي، والمستوى المنخفض في الاستثمار وانخفاض الصادرات، وخاصة من المنتجات غير النفطية، والاعتماد الكبير على الإيرادات النفطية في تمويل الإنفاق الحكومي والاستيراد. وتعكس هذه الظواهر المشاكل الاقتصادية الهيكلية المزمنة التي تشكل التحدي الرئيسي الذي يواجه الشعب في المدى القصير والبعيد. يحدث هذا التدهور الاقتصادي بالرغم من تزايد الإنفاق الحكومي الذي بلغ نحو 178,276 بليون

دولار خلال الفترة من 13 مايس 2003 وحتى31 تموز 2009، وأن الإيرادات النفطية العامة قد بلغت 169,472 بليون دولار خلال نفس المدة. علماً بأن الإيرادات النفطية شكلت نسبة 90,58% من مجموع النقد الذي استلمته الدولة خلال هذه المدة.

كذلك، بلغ مجموع احتياطيات العراق من العملات الأجنبية 49,530 بليون دولار في كانون الأول 2009.

وتشير التجربة بعد عام 2003، إلى أن السياسة المالية الحالية التي تشجع الإنفاق غير المنتج على خلفية أهمية التوسع الاقتصادي وزيادة التشغيل في الدوائر الحكومية والمؤسسات العامة والتأثير في الأوضاع السياسية المتردية، وكذلك السياسة النقدية الجامدة التي تفترض "استقلاليتها عن السياسة المالية" والإسهام في تحقيق الاستقرار الاقتصادي بالسيطرة على التضخم والتحكم في نظام الصرف الخارجي، لا تناسبان متطلبات التطور الاقتصادي المطلوب. إنها سياسات خاطئة لسبب بسيط هو أن الإنفاق الحكومي والاستيراد الممول من الإيرادات النفطية يشكل الجزء الأكبر من الطلب الكلي الفعال الذي يحفز النمو الاقتصادي عندما يكون مناسباً من حيث الحجم والاتجاه. ولذلك، فإن "استقلالية" السياسة النقدية المزعومة وتزايد الإنفاق الحكومي غير المنتج لا يؤديان الوظائف التي تلائم ديناميكية اقتصاد- الريع بما يحقق النمو الاقتصادي المستهدف وزيادة فرص التشغيل وبناء مشاريع البنية الأساسية الاقتصادية والاجتماعية والبيئية. ليس خفياً أن تأثيرات أسعار الفائدة وائتمان البنوك محدودة جداً، وأن فاعلية نظام الصرف الخارجي تتحدد بصورة رئيسية بتوفر العملات الأجنبية المتأتية من صادرات النفط الخام الكافية دائماً للحفاظ على الاستيراد المطلوب، ولذلك، فإن الإدعاء بأن السياسة النقدية فاعلة وأنها وراء تراكم احتياطيات البلاد هو إدعاء غير صحيح. وفي الحقيقة، إن تحجر نظام الصرف الخارجي يساهم في المشكلة الاقتصادية الهيكلية الخفية. إن السياسة النقدية المتحجرة والسياسة المالية التي تتسم بالهدر الواسع، كما تدل على ذلك تقارير الفساد المالي والإداري العديدة، تساهمان في تعزيز اعتماد الاقتصاد على الإيرادات النفطية، وهو جوهر المشكلة الاقتصادية التي عجزت الحكومات عن معالجتها قبل وبعد الاحتلال.

كما أن من الواضح أيضاً، فشل السياسة الاستثمارية للحكومة في إعادة تعمير البنية الأساسية المادية والاجتماعية والبيئية والمرافق العامة التي هي من الشروط الرئيسة في تحسين المناخ الاستثماري وتشجيع القطاع الخاص على زيادة دوره في الاقتصاد.

رابعاً: القوى الاقتصادية والسياسية الصاعدة

في العراق، هنالك نحو 24% من مجموع السكان (30 مليون في سنة 2007) هم من الفقراء، والغالبية يمكن تصنيفها بالشريحة الأدنى من الطبقة المتوسطة وذلك بمعايير الدخل، والاستهلاك، والإسكان، والتعليم، وأخرى غيرها. كذلك، يلاحظ أنه بينما تعتمد الشركات ومؤسسات الأعمال الخاصة والأحزاب السياسية بدرجة هامة على الإنفاق الحكومي والعام بدرجة كبيرة، فإن الدولة من الجانب الآخر، تعتمد بمقدار أكبر على الإيرادات النفطية في تسيير وظائفها

الاعتيادية. كما أن المواطنين لا يساهمون في موارد المالية العامة، ولذلك، فإن الضغوط السياسية المتوقعة على الحكومات من دافعي الضرائب هي معدومة. مثل هذا الوضع الفريد، كان، وما يزال، يسمح للسلطات الحاكمة القيام بالدور الرئيس في التأثير على الفعاليات الاقتصادية والسياسية في البلاد، وليس للطبقة الاجتماعية أو مجموعات التجار أو المقاولين أو الصناعيين أو أغنياء المزارعين أو أصحاب الأعمال نفوذ هام في تقريرها طالما استمرت الاستفادة المباشرة وغير المباشرة من الإيرادات النفطية ولكن بدون الاقتران بزيادة موازية في الإنتاج والإنتاجية.

وفي الواقع، إن القوة الرئيسية في البلاد هي الثروة النفطية التي تسيطر عليها وتستعملها السلطة الحاكمة.

وفي تصورنا، أن "الزيادة الكبيرة المتوقعة" في الإيرادات النفطية نتيجة لاتفاقيات الاستثمار الجديدة في الصناعة النفطية، سوف تؤدي إلى تغيير واسع وعميق في مراكز القوة والتأثير للقوى السياسية والاقتصادية والاجتماعية الدافعة، وكما يلي:

1- هيمنة أكبر للسلطة السياسية الحاكمة.

2- تنامي دور القطاع الخاص، وخاصة في قطاع التشييد (المقاولات) والصناعات ذات العلاقة، وتزايد أهمية الصناعات الصغيرة والمتوسطة، وبروز عدد قليل من الشركات الكبيرة. ولكن، وفي نفس الوقت، فإن ضرائب الأرباح والدخل ستبقى غير ذات أهمية في المالية العامة.

3- تراجع أهمية القطاع العام في الصناعات التحويلية، والزراعة، والمشاريع الخدمية، ولكن سيبقى دوره مهماً في تمويل وتسيير مشاريع البنية الأساسية الإستراتيجية.

4- زيادة نفوذ أصحاب المال، والصناعيين، والتجار، وأغنياء المزارعين، والمهنيين في قطاع الخدمات المالية.

5- زيادة دور البنوك والأسواق المالية وشركات التأمين والخدمات المالية.

6- تزايد أهمية الطبقة المتوسطة في الفعاليات السياسية والاقتصادية والثقافية والعلمية.

7- بروز دور المنظم الخاص والتكنولوجيا والكفاءة في إدارة الشركات والمشاريع.

8- وسوف تزداد أهمية نظم الرعاية والرفاه الاجتماعي لتقديم الإعانات للعاطلين عن العمل ولكبار السن وللمتقاعدين وللناس الفقراء.

خامساً: الاستنتاجات

كان النفط، وسيستمر، قوة رئيسة دافعة في تشكيل الاقتصاد السياسي في العراق.

ومن المتوقع أن تؤدي "الزيادة الكبيرة المستهدفة" في الإيرادات النفطية العامة من الاتفاقات النفطية الجديدة إما إلى فتح آفاق واسعة لتأسيس نظام جديد يحافظ على الحريات الفردية والعامة وتحرير الاقتصاد والسياسة الوطنية من الاعتماد الكبير عليها، بالإضافة إلى توفير الخدمات والحاجات المادية الأساسية للمواطنين، أو ستؤدي إلى تحقق احتمال آخر يتمثل في تعميق الأزمة الشاملة السائدة التي سوف تقيد بقيود "شرائط حريرية ناعمة وبراقة الألوان" من الزيادة "المفرطة" في الاستهلاك العام والخاص والتشغيل المنخفض الإنتاجية الممول بصورة رئيسة من الإيرادات النفطية "الزائدة".

ولذلك، يجب على العراق العمل

بإستراتيجية وسياسات اقتصادية جديدة وإجراء إصلاحات مؤسسية لتحرير الاقتصاد تعتمد على الانتفاع الرشيد من الثروة النفطية لزيادة النمو الاقتصادي والتشغيل المنتج، ولتوفير الخدمات والمنافع الأساسية العامة، ولتشييد مشاريع البنية الأساسية.

وعلى الصعيد العملي، يجب على الدولة تخصيص40% من مجموع الإيرادات النفطية في ميزانياتها في الأعوام 2011–2015، وما لا يقل عن 70% في عام 2016 وما بعده، لتمويل مشاريع البنية الأساسية المادية والاجتماعية والبيئية والمرافق العامة المطلوبة.

*** هذه المقالة خلاصة عن الدراسة المعنونة " الاقتصاد السياسي لتنامي قوة النفط في العراق: مرحلة حاسمة" المنشورة باللغة الإنكليزية في "دورية الثقافة والصراع" الصادرة عن "برنامج دراسات الثقافة والصراع" بمدرسة الدراسات العليا للبحرية في الولايات المتحدة الأمريكية:**

Sabri Zire Al-Saadi, "The Political Economy of Iraq"s Growing Oil Power: A Crucial Phase", published in "The Culture and Conflict Review", vol.4,1, Spring (April) 2010, a web-journal issued by the "Program for Culture & Conflict Studies" at the "Naval Postgraduate School", Monterey, Calif. USA.

وأعيد نشرها بعنوان "الاقتصاد السياسي لتنامي قوة النفط في العراق: مرحلة حاسمة"، في مجلة "المستقبل العربي"، العدد 378 **آب** 2010**، الصادرة عن مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان.**
تتوفر المصادر والتفاصيل والتوثيق في الأصل الإنكليزي والترجمة العربية الكاملة.

ماركس وجيمس اندرسون

حول التباين في خصوبة التربة*

د. ثـــامـــر الـــصفـــار

د.ثامر الصفار، باحث ايكولوجي حاصل على شهادة الدكتوراه في الهندسة البيئية. نشر العديد من الدراسات والابحاث في عدد من المجلات والصحف العراقية والعربية والانجليزية. ساهم في الكتابة في مجلة الثقافة الجديدة وعمل مصمما لها خلال السنوات 1986-1990. صدر له عدد من الكتب كان آخرها "الماركسية والايكولوجيا: المفهوم المادي عن الطبيعة" عام 2009 عن دار الفارابي. والمقالة التالية هي احد فصول الجزء الثاني الذي سيصدر قريبا تحت عنوان "الماركسية والايكولوجيا: المفهوم المادي عن التاريخ".

من الفرضيات السائدة عند الكثيرين، مسايرة (ماركس) لخطى (ريكاردو) عند دراسته لنظرية الريع وتحليله للتنمية الزراعية.

والواقع، ان ماركس كان ناقدا حادا لهذه النظرية، لفشلها في فهم عملية التطور التاريخي لزراعة الارض او للتربة. ولهذا السبب كان (ماركس) يعتبر ان الاقتصادي والسياسي الاسكتلندي والمزارع المحترم جيمس اندرسون (1739-1808)، وهو المبدع الحقيقي لنظرية الريع الكلاسيكية، اكثر تفوقا من (مالثوس) و(ريكاردو) (1).

فقد وضع (اندرسون) جميع المقدمات النظرية الاساسية لنظرية الريع الكلاسيكية عام 1777 ضمن بحثه الموسوم: **بحث في طبيعة قوانين الحبوب**، وواصل التعمق وتوسيع بحثه في اعماله اللاحقة. يقول اندرسون ان الريع:

"هو اجر يدفع مقابل استعمال اكثر الاراضي خصوبة.

فالاراضي الاقل خصوبة تنتج او تولد دخلا بسيطا يغطي بالكاد تكاليف الانتاج، اما الاراض الاكثر خصوبة فيرتفع اجرها بمقدار ارتفاع درجة الخصوبة، وهذا الاجر السنوي المدفوع لضمان حق استعمال الارض هو الذي يشكل ما نسميه اليوم بالريع" (2).

اما (ريكاردو) فانه يعرف الريع:

" ذلك الجزء من محصول الارض الذي يدفع الى مالكها مقابل استخدام قدرات التربة الاصلية"(3).

ويفهم من هذا ان ريكاردو ومعه مالثوس ايضا يريان ان مصدر التباين في الخصوبة هو الطبيعة، انتاجية الارض الطبيعية دون تدخل البشر.

زد على ذلك ان كليهما اكد – مفترضا ان قانونا طبيعيا يدعمه – على ان الاراضي الاكثر خصوبة، طبيعيا، كانت اولى الاراضي التي جرى استخدامها، وان ارتفاع الريع على هذه الاراضي وتدهور الانتاج الزراعي عموما كانا بفعل زراعة الاراضي غير الخصبة او ذات الخصوبة المتدنية، بسبب زيادة ضغط السكان.

بخلاف ذلك، كان نموذج اندرسون المطروح قبلهما بعقد من السنين قد عزا تباين الريع الى التغييرات التأريخية التي طرأت على خصوبة التربة، بدلا من افتراض "الخصوبة المطلقة".

فالتحسين المتواصل للتربة من خلال التسميد والري والبزل، كان ممكنا، وبالامكان من خلال ذلك رفع انتاجية الارض ذات الخصوبة المتدنية لتصبح شبيهة بالارض ذات الخصوبة العالية، والعكس صحيح ايضا، فالبشر قادرون على استنزاف اكثر الاراضي خصوبة. هذه التغيرات في انتاجية التربة هي التي كانت مسؤولة عن تباين الريع برأي اندرسون، وليس الخصوبة المطلقة مثلما ادعى ريكاردو ومالثوس.

وبرأي اندرسون ايضا، ان الفشل في تحسين خصوبة التربة هو نتيجة للفشل في اتباع ممارسات زراعية عقلانية ومستديمة.

فحقيقة ان اراضي انجلترا مملوكة من قبل ملاك اقطاعيين وتزرع من قبل مستأجرين رأسماليين، تمثل عائقاً جدياً في طريق الزراعة العقلانية، لان المزارع يميل الى تجنب القيام بأي تحسين للارض، لان فائدة ذلك، البعيدة المدى، لا تعود اليه ضمن الفترة الزمنية القصيرة نسبيا لعقد التأجير (4).

كما اكد اندرسون في **بحث هادئ في الظروف التي ادت الى الشحة الحالية للحبوب في بريطانيا** (1801) على ان تنامي حالة الفصل بين المدينة والريف قد ادى الى خسارة المصادر الطبيعية للسماد" فكل من سمع بالزراعة يعرف ان فرش الفضلات الحيوانية فوق التربة سيزيد من خصوبتها، وان من لا يفعل ذلك يستحق اللوم حقا".

واضاف ايضا بان القيام بذلك يغنينا عن اضافة اي شيء خارجي للتربة ويمكننا من تحقيق " **تربة خصبة الى الابد**". ومع ذلك نجد ان لندن بحجم فضلات سكانها الهائل والتي تحتوي على العناصر الطبيعية للتربة الانجليزية "ترمي هذه الفضلات الى نهر التايمز" وهو ما يسبب" انتشار الامراض

الخطيرة لساكني اسفل مجرى النهر" وهذا دليل على مدى ابتعاد المجتمع عن الاقتصاد الزراعي المستديم (5).

وخلص اندرسون الى موقف معارض لمالثوس رافضا فكرته عن ان النقص في الحبوب يعود الى زيادة عدد السكان وارتفاع ضغطهم على مساحة محدودة من الاراضي الزراعية (6).

وكان ماركس قد درس اعمال اندرسون عام 1851 ونقل مقاطع طويلة منها الى دفاتر ملاحظاته. **وفي نظريات فائض القيمة** التي كتبها خلال الخمسينات والستينات من القرن التاسع عشر اكد بان زبدة مساهمة اندرسون هي تأرخته لقضية خصوبة التربة. " ان اندرسون لم يفترض اطلاقا..... ان **درجات الخصوبة** المتباينة هي مجرد نتيجة للطبيعة "بل" ان الريع المتباين لملاك الارض هو، **في جزء منه، نتيجة للخصوبة الاصطناعية** التي يوفرها المزارع للتربة"(7).

وشدد ماركس على اهمية نموذج اندرسون لفهم امكانية تطوير الزراعة، وان هذا النموذج منسجم تماما مع نظرية الريع المتباين. بيد ان هناك امرا آخر نتج عن الرؤية التأريخية لاندرسون (وهو ما وضحه في كتاباته اللاحقة) ونعني تأكيده على ان الهبوط العام في خصوبة التربة يجب ان ينسب الى الفشل في الاستثمار في تحسين التربة بفعل الصراع الطبقي بين المزارع، المستأجر الرأسمالي، وبين مالك الارض، او الى الفشل في اعادة استخدام الفضلات الحيوانية كسماد للارض بفعل اتساع الهوة بين المدينة والريف. وهذا كله خلاف الاسباب التي طرحتها نظرية ريكاردو(8).

يتضح هنا ان الدمج الذي قام به اندرسون بين الاقتصاد السياسي وعلم الزراعة يمثل صرحا فكريا غير مسبوق – الاهتمام بالعلاقة العضوية بين خصوبة التربة وكيمياء التربة، العلاقة بين المدينة والريف، والصراع بين مالك الارض والزراعة الرأسمالية. وكان هذا سابقا بأربعة عقود للثورة العلمية في موضوعة كيمياء التربة. بكلمة اخرى فان لاندرسون الفضل في مساعدة ماركس **على اضفاء طابع تاريخي على موضوعة الريع العقاري الرأسمالي** ومحققا في ذات الوقت فهما اكثر عمقا لظروف التربة، وبالتزامن مع ازمة خصوبة التربة في اوروبا وامريكا الشمالية، ومع التقدم الكبير في علم التربة تمكن ماركس من تحويل هذه المعالجة التاريخية لمسألة تطوير الزراعة الى نقد ايكولوجي للزراعة الرأسمالية. كما برز اندرسون، في اواخر ايامه، كناقد بارز لمالثوس اثر نشره "**مبحث في السكان**"(1798).

ويمكن القول **ان بحثاً هادئاً في الظروف التي ادت الى الشحة الحالية للحبوب في بريطانيا** كان الى حد كبير ردا على مبحث مالثوس، وربما رداً ايضا على **بحث في سبب ارتفاع اسعار المحاصيل** (1800) لمالثوس ايضا. وكان اندرسون قد ارسل نسخة من **بحثه الهادئ** الى مالثوس، لعلها كانت المرة الاولى التي يطلع فيها الاخير على عمل الاول.

ولم يكتف اندرسون بمناقشة موضوعة انحطاط التربة في اوروبا بل تعداها الى افريقيا وصقلية وايطاليا نفسها بالمقارنة مع العهد الروماني.

* جزء مختصر من احد فصول كتاب "الماركسية والايكولوجيا: (المفهوم المادي عن التاريخ) سيصدر للمؤلف قريبا عن دار الفارابي في بيروت.

الهوامش

(1) حول منبع نظرية الريع الكلاسيكية لجيمس اندرسون، انظر جوزيف شومبيتر، تأريخ لتحليل اقتصادي (نيويورك: جامعة اوكسفورد، 1951)، ص ص 263–266.

(2) جيمس اندرسون، بحث في طبيعة قوانين الحبوب؛ مع نظرة الى مسودة القانون الجديدة المقترحة لاسكتلندا (ادنبرة: السيدة موندیل، 1977)، ص ص 45–50، و ملاحظات على وسائل بقاء روح الصناعة الوطنية (ادنبرة: ت. كاديل، 1977) ص 376

(3) ديفيد ريكاردو، مبادئ الاقتصاد السياسي والضرائب (كامبردج: جامعة كامبردج، 1951)، ص 67.

(4) جيمس اندرسون، مبحثان حول الزراعة وشؤون الريف (لندن: جون بيل،1796) المجلد 3، ص ص 97–135. كان الصراع بين المزارع المستأجر وملاك الارض حول الاستثمار في التطور الزراعي، والذي غدا عنصرا مركزيا في نقد ماركس للزراعة الراسمالية في بريطانيا، ظاهرا في مؤلف انجلز"خطوط اولية" 1844. انظر الصفحات 76–78 ، ماركس وانجلز، منتخبات في 15مجلدا، المجلد 1،(موسكو، دار التقدم،1988)

(5) جيمس اندرسون، بحث هادئ في الظروف التي ادت الى الشحة الحالية للحبوب في بريطانيا (لندن: جون كومنغ،1801)، ص ص 73–75.

(6) المصدر السابق، ص ص 12، 56–64؛ ادوين كنان، تأريخ نظريات الانتاج والتوزيع في الاقتصاد السياسي الانجليزي من عام 1776 الى عام 1848 (نيويورك: اوغسطس كيلي،1967) ص ص 114–115.

(7) كارل ماركس، نظريات فائض القيمة، الجزء 2 (موسكو: دار التقدم، 1968)، ص ص 147–148.

(8) جيمس اندرسون، مبحثان حول الزراعة وشؤون الريف، المجلد 3،ص ص97–135؛ كارل ماركس، رأس المال، المجلد 3، ص 757، ماركس، نظريات فائض القيمة، الجزء 2 ،ص 244.

مطبوعات وصلتنا

- **الهجرة الدولية والتنمية الاجتماعية - الاقتصادية، منشورات مقاربات، المغرب 2009 - د. هاشم نعمة**
- **الاقتصاد العراقي - الماضي والحاضر وخيارات المستقبل، دار الملاك للفنون والاداب والنشر، 2010- د. محمد علي زيني**

نخبة الـ NGOs
مقدمة لـ
(المشروع الديمقراطي الجديد)

د.حيدر سعيد

الدكتور حيدر سعيد باحث عراقي. عضو مجلس تحرير (الثقافة الجديدة). من مواليد مدينة النجف/ 1970. حاصل على شهادة الدكتوراه في اللسانيات. صدر له كتاب (سياسة الرمز، عن نهاية ثقافة الدولة الوطنية في العراق) في بيروت سنة 2009. ساهم مع فريق بحث في إنجاز دراسة عن (حال العلوم الاجتماعية في الجامعات العراقية)، صدرت عن (معهد دراسات عراقية) في بيروت سنة 2008. عمل في (مركز الدراسات الاستراتيجية) في الجامعة الأردنية (2008 - 2010). تتناول دراسة الدكتور حيدر سعيد ما يمكن اعتباره اشكالية العلاقة بين منظمات المجتمع المدني والاحزاب السياسية من جهة والدولة من جهة اخرى، ومن زاوية اخرى يمكن القول انها تتناول موضوع "التجديد السياسي كبنى مؤسسية واشكال ومجالات عمل". واذ حاولت الدراسة الاجابة على جملة اسئلة تتعلق بالاشكالية المطروحه فان الموضوعات المطروحة تبقى خاضعة للنقاش والجدل، لذا تدعو المجلة المهتمين بهذه المواضيع الى مواصلة السجال.

في أواخر العشرينيات من القرن العشرين، وفي عتبة تجربة الحزب الشيوعي في روسيا بعد الثورة البلشفية، كتب الفيلسوف الماركسي الإيطالي أنطونيو غرامشي، من سجنه الذي وضعته فيه الفاشيةُ، عن (الحزب السياسي) بوصفه

النموذج الحديث في السياسة والسلطة والحكم. وصف غرامشي الحزبَ بأنه (الأمير الحديث)، واضعاً إياه في تقابل مع فكرة مركزية في التراث السياسي الإيطالي، والغربي عموماً، وهي فكرة (الأمير)، التي قدّمها الفيلسوفُ السياسي الإيطالي نيكولو ماكيافيللي في القرن السادس عشر: إذا كان تنظيمُ الحكم في العصر البرجوازي الحديث، وقد نُزع عن الكنيسة، يمر عبر (الأمير)، فإنه الآن يمر عبر (الحزب).

هذا الانتقال يخص التجربةَ السياسية الغربية، غير أنه ـ مع ذلك ـ صالح إلى حد كبير لفهم السياسة الحديثة في العالم اللاغربي، الذي أصبح تطوره ـ بعد أن عاش تجربة الكولونيالية الغربية ـ محكوماً بعلاقته بالغرب. وقد تكون منطقتنا (أو ما يُسمّى "العالمين العربي والإسلامي") هي الجزء الأكثر إثارة في كيفية تطوره ارتباطاً بالغرب.

انهيار التجربة الحزبية

لقد صعد الحزبُ السياسي في المنطقة في اللحظة نفسها التي كان غرامشي ينظِّر فيها لـ (الأمير الحديث)، أي بعد أن عملت الكولونياليةُ الغربية على تفكيك المجتمع السياسي التقليدي، وبناء مجتمع سياسي جديد، بعناصر جديدة، كانت الأحزابُ إحداها وطرفاً رئيساً فيها.

وإذا لم نكن متيقنين من أن التجربة الحزبية في المنطقة مولودة من تجربتها التأريخية الخاصة، وكيف أثّر السياقُ الثقافي في ولادة نسختها من الأحزاب، فإن الأكيد أن المنطقة عاشت تجربة حزبية ثرية، تمثلت في طقم تأريخي من الأحزاب الإيديولوجية، الكبيرة والجماهيرية.

وبالفعل، ربما كانت (الأحزاب السياسية) هي المفردة الأكثر أهمية في التأريخ السياسي للمنطقة في القرن العشرين. غير أن هذا التأريخ الحزبي لم يكن تأريخاً طويلاً، إذ شهد العقدان الأخيران (أواخر القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين) **ما يمكن أن يكون نهاية لهذا التأريخ**.

ومع أن ثمة قائمة طويلة من الأحزاب التي لا تزال فاعلة، بما في ذلك الأحزاب التأريخية نفسها، عاشت هذه الأحزاب تحولات جذرية، بما ينقلها ـ في تصوري ـ إلى خارج مفهوم (الحزب) ونمطه العالمي. ولعل المظهر الأكثر أهمية لنهاية التجربة الحزبية هو نكوص الحزب إلى نزعة ماكيافيللية وتحوله إلى تنظيم هش مرتبط بكارزما سياسية، وهو ما أفقد (الحزبَ) هويته الحزبية. وإذا كانت نظريةُ الأحزاب السياسية تتحدث عما تسمّيه (أحزاب الشخص الواحد)، فإنني أتصوّر أن التحول المنهجي للأحزاب، بما في ذلك الإيديولوجية، إلى تنظيمات كارزمية، وسيطرة هذا النمط على الحياة الحزبية، هما دليلان على تراجع البنية الحزبية. إن هذا يمثل، بلغة غرامشي، عودة من (الأمير الحديث) إلى (الأمير)، أو من (الحزب) إلى (الماكيافيللية).

ولعل تجربة العراق ما بعد 2003 تكشف، بصراحة، عن الديناميكيات التي تحكمت بالحياة الحزبية، والتي تتمثل ببناء أطر لتقديم الزعامات في السوق السياسي. وإن دراسة جادة لتحولات البنية الحزبية، في العراق والمنطقة، ستجعلنا أكثر بصيرة بديناميكيات ما ندعوه حالياً بـ (الحزب)، والعناصر الفاعلة في المجتمع السياسي الآن، وموقع المؤسسة الحزبية منه.

وفي مستوى أكثر تجريداً، تقدم تحولاتُ البنية الحزبية أسئلة مهمة عن علاقة الثقافة العربية بالغرب وبالتأريخ العالمي عموماً: هل

ما تأخذه الثقافة العربية من الغرب مجرد عَرض، سرعان ما تسيطر عليه البنية الثقافية التقليدية؟ هل يمكن بَنْيَنَة الأشكال المنقولة من الغرب بما يجعلها ذات (تأريخ طويل) في البيئة المستقبِلة؟ أي أشكال تتقبل هذه البنينة؟ وأي أشكال تستعصي عليها؟ كيف يمكن أن نحدِّد (الأصيل) و(الأجنبي) في الثقافة المستقبِلة وقد أصبحت ذات تأريخ هجين، ومختلط، ومتداخل؟

لقد عملت ثلاثةُ أسباب على **انهيار التجربة الحزبية** في المنطقة، بحسب ما أتصور.

يتمثل أولها في التحولات البنيوية الداخلية للأحزاب، التي قلتُ إنها شهدت نكوصاً إلى نزعة ماكيافيللية. وترتبط بهذه التحولات مجموعة من الظواهر الحزبية التي شهدتها المنطقةُ، من قبيل (الحزب القائد) و(الحزب الأوحد)، والتي خلقت سياقات جديدة في العمل الحزبي، أقصى الطابع التنافسي المتكافئ للأحزاب.

والسبب الثاني هو جفاف المصادر النظرية للأحزاب، التي شكّلت عمادَ التجربة الحزبية في المنطقة، وهي الأحزاب اليسارية والاشتراكية والقومية.

أما السبب الثالث فيتمثل في صعود الإسلام السياسي إلى واجهة المشهد، وهو لم يعتمد نمط الحزب ذي المركزية الستالينية، بل اعتمد نمطاً لامركزياً ربما خرج به عن حدود مفهوم (الحزب). ولذلك، لم يستعمل الجزءُ الأغلب من الإسلام السياسي تعبيرَ (الحزب)، بل استعمل تعبيرات دالة على هذا النمط الشبكي اللامركزي، من قبيل (التيار)، و(الحركة)، وما إلى ذلك. ولاحقاً، لم يعد هذا النمطُ يقتصر على الإسلام السياسي، بل تعداه إلى ما سواه من تنظيمات سياسية، وهو ما يشكل واحداً من أهم مظاهر تحولات البنية الحزبية.

نهاية الحزب، بداية المجتمع المدني

غير أن نهاية التجربة الحزبية لا تعني نهاية الفكرة التي قامت عليها الأحزابُ التأريخية في المنطقة، وهي الحلم الرسولي بالتغيير، غير أن هذه الفكرة لم تعد تحملها النخبةُ الحزبية التقليدية، بل نخبة جديدة ورثت من الأولى هذا الحلمَ، وهي التي سأسمِّيها هنا نخبة الـ NGOs .

وفي العموم، أدّت نهايةُ التجربة الحزبية إلى ردّي فعل متناقضين: العودة إلى نزعة ماكيافيللية، وولادة المجتمع المدني. وكلاهما كان بمثابة بديل من الحزب.

وإذا كان (الأمير) يمثل النزعةَ الماكيافيللية، ويشكل (الحزبُ) ما يسمّيه غرامشي (الأمير الحديث)، فإنني سأصف المجتمعَ المدني بأنه (الأمير ما بعد الحديث).

هذا التحقيب يتشكل على وفق الخطاطة الآتية:

الأمير/ الماكيافيللية ؟ الأمير الحديث/ الحزب ؟ الأمير ما بعد الحديث/ المجتمع المدني

هذه النماذج قد تكون متزامنة في لحظة واحدة، إلا إن هذا التحقيب يقدّم خطاطة زمنية مجردة، تتيح لنا أن نفهم طبيعةَ حراك هذه النماذج السياسية.

وفي العموم، لم يكن هناك افتراض بوجود تعاقب زمني بين (الأحزاب) و(المجتمع المدني). لقد افترض غرامشي أن ثمة علاقة تجاور أفقية بين كيانين: المجتمع السياسي، الذي يشمل الأحزاب، والمجتمع المدني، الذي يشكل مجالَ الهيمنة، في حين تقترح الخطاطةُ السالفة أن العلاقة بين الأحزاب والمجتمع

المدني هي علاقة تعاقب عمودي واستبدال.

لقد عالج غرامشي مسألة (المجتمع المدني) في إطار معالجته العامة لنظرية الهيمنة، وفي إطار نقده للماركسية السائدة، التي يرى أنها أهملت الدور المهم الذي تلعبه البنيةُ الفوقية (والمجتمع المدني أحد مظاهرها)، واكتفت بافتراض أنها انعكاس ميكانيكي للبنية التحتية وعلاقات الإنتاج الاقتصادية،

إذن، هناك طريقتان في التفسير، كلتاهما ذات وجاهة في مستوى ما: إما أن نفترض أن المجتمع المدني لا يزال مجالاً للهيمنة، أو أن نفترض (وقد يكون هذا أولى) أن اندحار الأمير الحديث، أو تعثر وتشوّه ولادته، سمحت بولادة الأمير ما بعد الحديث (المجتمع المدني)، ليقوم بما كان على الأحزاب أن تقوم به.

ومن جهة ثانية، يرى بعضُ الباحثين أن (المجتمع المدني) و(الأحزاب) يمثلان مستويين مختلفين للمشاركة الشعبية: الأول يمثل المجال الجزئي، أو المشاركة الجزئية Micro Participation، في حين تمثل الأحزابُ المشاركةَ الكلية Macro Participation، أي مشاركة المواطنين في إدارة شؤون حياتهم العامة، السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

إن التحقيب الذي تقدّمه الخطاطةُ السالفة مستنبط من التجربة السياسية للمنطقة، بمعنى أنه لا يدعي أن الديناميكيات العالمية للأحزاب والمجتمع المدني تسير بالاتجاه نفسه. هذا مع أن بعض الباحثين الأوربيين يتحدثون عن تراجع السياسي لصالح المدني بوصفه ظاهرة عالمية، وعن تحول المجتمع المدني إلى قوة سياسية ذات دور حاسم في بناء الديمقراطية. يقول السوسيولوجي الفرنسي روجيه سو: "الديمقراطية بحاجة إلى أكثر من مشاركة كل واحد فينا. عليها أن تنغرس في تفاصيل حياتنا اليومية. وهذا يبعد تخصص السياسة ويعطي دوافع لإيجاد أشكال أخرى للعمل. إن المناخ السياسي تخلى عن مكانه للمناخ المدني أو للعمل خارج سيطرة السياسة. الأحزاب تتراجع، والجمعيات تتقدم". ويضيف: "لا بد من النظر إلى المجتمع المدني بوصفه قوة سياسية لها انفصال كامل ومستقل، لأن الصعود القوي للمجتمع المدني يحول المجتمع إلى مجتمع سياسي، في جسد سياسي". وفي النهاية، يرى سو، **أن المجتمع المدني سيقود إلى إعادة بناء مفهوم السياسة نفسه، فـ** "إذا كانت هذه الحركات تريد العمل خارج السياسة و لديها الخوف من أن تتشابه معها أو من أن تنشغل بها، فإن أي واحد منا يستطيع أن يعرف أن إعادة بناء مفهوم (السياسة)، بما يبقيها من أولويات أية حكومة ديمقراطية، لن يحدث إلا عبر هذا النوع من الحركات". وأكثر من ذلك، سيكون للمجتمع المدني "الدور الأكبر في عملية صياغة مستقبل الديمقراطية. هذه الحركات الاجتماعية هي التي تجسِّد اليوم الخيال الديمقراطي الجديد، أكثر مما يمكن أن يتخيله حزب سياسي أو تقوم به شخصية من عالم السياسة". هذا التحول يشير إلى عودة الفكر الغربي إلى منابع الديمقراطية والعقد الاجتماعي، إثر نهاية الأنظمة الأيديولوجية الكبرى ذات المحتوى التبشيري.

لقد وُلدت نخبةُ الـ NGOs في العالم العربي من مجموعة من العوامل، يتداخل فيها ما يرتبط بطبيعة علاقة المجتمعات العربية بالثقافة الغربية وما هو خاص بالتطور البنيوي لهذه المجتمعات.

وبالأحرى، وُلدت هذه النخبة من سياق

كامل من التحولات التي عاشتها هذه المجتمعات، كانت تحولات شكل المثاقفة مع الغرب هي الجزء الأبرز فيها.

إن ظهور نخبة ليبرالية حاملة لمفاهيم (حقوق الإنسان) و(الحريات الفردية) في العالم العربي خلال العقدين الأخيرين، بعد النخبة الحزبية التقليدية التي حملت فكرة (الاستقلال)، إنما يرتبط - أولاً - بالمثاقفة مع آخر نسخة من الغرب، العالمي، ما بعد الحداثي، النيوليبرالي.

كنتُ قد قلتُ، في إسهام سابق، إن هذه المثاقفة استندت "إلى الإمكانات التكنولوجية الهائلة التي أتاحتها ثورة الاتصالات، والتي أتاحت فرصة تأريخية لعبور قيم الثقافة الغربية إلى الثقافات اللاغربية، غير أنها تجسّدت في إيمان، تشكل خلال هذين العقدين، بـ (الديمقراطية) و(حقوق الإنسان)، كما صاغتهما ثقافة المجتمعات الغربية الرأسمالية، بشكل يجعلهما أقرب إلى البديهيات والمبادئ المطلقة. هذا الإيمان توازى وتزامن مع سقوط (السيادة) التقليدية وتحول المجتمع الدولي إلى رقيب على (حقوق الإنسان) داخل كل دولة، الأمر الذي أنتج دعما غربيا لـ (المجتمع المدني) في العالم اللاغربي بما يؤهله لأن يكون رقيبا ومبشرا بثقافة حقوق الإنسان".

ولذلك، ثمة اختلافات عميقة بين نخبة الـ NGOs والنخبة الحزبية، تتيح المقارنةُ بينهما فهماً أوضح لطبيعة النخبة الأولى.

سأقف، هنا، عند ثلاث مجموعات متداخلة من الاختلافات:

- كانت النخبة الحزبية تدور على طقم من المقولات المرتبطة بما يمكن تسميته (الحقوق الجماعية)، من قبيل (الاستقلال)، و(التحرر الوطني)، وما إلى ذلك، بمعنى أنها لم تكن تفكر وتسعى إلى (الحرية الفردية)، بل إلى (حرية الجماعة)، في حين عبّرت نخبة الـ NGOs عن طقم آخر من المقولات مغاير تماماً ومرتبط بما يمكن تسميته (الحقوق الفردية)، من قبيل (حقوق الإنسان)، و (الجندر)، و(حرية التعبير)، و(المواطنة)، و (المشاركة السياسية)، وما إلى ذلك.

- إن هذا لا يعني اكتشافاً، متأخراً، للثقافة العربية لـ (الفردانية)، بل هو يرتبط بوضعية المثاقفة لكل من النخبتين، على نحو ما قدّمت. وتحديداً، يرتبط هذا بطبيعة موقف كل من النخبتين من الغرب، فالنخبة الحزبية معادية للغرب، ولمفهوم (العالمية) على نحو عام، ويتمحور مشروعُها حول بناء مجال للاستقلال عن الغرب، السياسي والثقافي، في حين أن نخبة الـ NGOs تعمل على وفق اعتراف ضمني بعالمية القيم الغربية. وتفريعاً على هذا، ظل المجتمعُ المدني في المنطقة محكوماً بالمال الغربي، هذا على الرغم من أن المبادرة الأولى نحوه جاءت من الحركة اليسارية، على نحو ما سأشرح لاحقاً، بل ثمة شبه إجماع بين العاملين في المنظمات المدنية في المنطقة بأن لا وجود لمجتمع مدني من دون المال الغربي.

- النخبة الحزبية نخبة انقلابية، تهدف إلى تغيير طبيعة الدولة وإعادة بنائها على وفق نموذجها الخاص، الذي يقوم على مفاهيم (الاستقلال) و(الهوية الوطنية للدولة) وما سوى ذلك. ولذلك، كانت هذه النخبة جزءاً من الصراع على السلطة، في حين أن نخبة الـ NGOs تسعى فقط إلى تقييد الدولة، التي تغوّلت، واشتد عودها، بما بات الانقلابُ عليها في عداد المستحيل التفكير فيه. ويستند نموذجُ تقييد الدولة، هنا، إلى ما أخذته هذه النخبةُ من التجربة الغربية، والذي يقوم على

مفاهيم (الحكم الرشيدة) و(حقوق الإنسان) وما إلى ذلك.

المجتمع المدني والفضاء السياسي

إذن، ثمة متغير مهم في الحياة السياسية في العالم العربي، يتمثل في صعود المجتمع المدني بديلاً من الحزب.

غير أن علاقة المجتمع المدني بالفضاء السياسي في هذه المنطقة هي واحدة من العلاقات الشائكة. ثمة مسارات معقدة تسير فيها العلاقة.

لقد تحكمت هذه الملابساتُ السياسية في تطور المجتمع المدني، وجعلته متداخلاً بالفضاء السياسي. ومن ثم، تتضمن الخطاطةُ السالفة، التي تضع (المجتمعَ المدني) بوصفه مرحلة لاحقة لـ (الأمير) و (الحزب)، إشارة إلى الفاعلية السياسية للمجتمع المدني، بمعنى أنه لم يكن مجتمعاً مدنياً مستقلاً عن السياسة، على ما هو عليه النموذج المعياري للمجتمع المدني الغربي.

وهكذا، يمثل الطابعُ السياسي للمجتمع المدني - من جهة - سمة خاصة بالمنطقة، وليس طابعاً عالمياً عاماً. إنه، بالأحرى، يخص مجتمعاً مدنياً في عالم لاغربي. وفي كل الأحوال، لا تشبه تجربةُ المجتمع المدني في المنطقة ما استقرت عليه التجربةُ العالمية.

ومن جهة ثانية، يسم هذا الطابعُ الموجةَ الأخيرة من المجتمع المدني فقط، التي نشأت أواخرَ الثمانينيات تأثراً بالنموذج النيوليبرالي الذي بدأ يفرض نفسه في أوربا والولايات المتحدة. هذه الموجة اتجهت إلى (حقوق الإنسان) و(الحكم الرشيد)، وشكّلت (الجيلَ الرابع) من المجتمع المدني، بحسب تصنيفات الدارسين للمجتمع المدني في العالم العربي، وهو جيل المنظمات الحقوقية.

وهذا يعنى أن هذه الموجة لا تشمل التنظيمات المدنية التقليدية، من قبيل الجمعيات الخيرية، والوقفيات، والمؤسسات الإرثية، ومؤسسة العلماء، ومؤسسة الفتوى، وما إلى ذلك. وعلى الرغم من أن المنطقة شهدت، تأريخياً، ما يمكن أن يُعرَّف الآن بوصفه (مجتمعاً مدنياً)، يبدو استكشافُ التنظيمات المدنية التقليدية فيها أشبهَ بكتابة تأريخ لـ (المجتمع المدني) بأثر رجعي، وذلك عبر الكشف عن تكوينات اجتماعية في التجربة الإسلامية التأريخية كانت تؤدي وظيفة المجتمعُ المدني الغربي نفسها. هذه العملية ستقود إلى اكتشاف عناصر المفهوم الحديث لـ (المجتمع المدني) في أشكال قديمة. وقد بدا لكثير من الباحثين أن هذه المحاولة هي تجريد لاتأريخي، من الزمان والمكان. ولذلك، اقترحوا تسمية التنظيمات المدنية التقليدية في العالم العربي بـ (المجتمع الأهلي)، تمييزاً لها عن المجتمع المدني الراهن.

إن جيل المنظمات الحقوقية، الأخير، هو الجيل الوحيد الذي وعى نفسه بوصفه (مجتمعاً مدنياً)، تقوم هويته على حزمة من المفاهيم، منها استقلاليته، وملؤه الفضاء بين الأسرة والدولة، وطابعه التطوعي، وما إلى ذلك من خصائص المجتمع المدني.

غير أن الأكثر أهمية في نخبة الـ NGOs هو أنها ورثت الحلم الرسولي بالتغيير، الذي عاشته النخبةُ الحزبية، وتعاملت مع (المجتمع المدني) بوصفه مشروعاً رسالياً تغييرياً. هذا على الرغم من الاختلافات العميقة بين النخبتين.

ولعل طبيعة ولادة المجتمع المدني في العالم العربي أواخر الثمانينيات من القرن العشرين تشير إلى هذا السياق المركّب: أنه نشأ بديلاً من الأحزاب، وأنه كان ذا فاعلية سياسية،

وحافظ على استمرارية هذه الفاعلية السياسية في هذا الانتقال من الحزب إلى المجتمع المدني.

لقد كانت المبادرةُ الأولى نحو المجتمع المدني في العالم العربي مرتبطة بالحركة اليسارية، بالتزامن مع البيرسترويكا والتحولات في الاتحاد السوفييتي السابق ومنظومة الدول الشيوعية في أوربا الشرقية. ولذلك، كان المفهوم المركزي في المقاربة العربية لـ (المجتمع المدني) هو مفهوم غرامشي. يقول الباحث الماركسي الفلسطيني سلامة كيلة: "في الوطن العربي كانت المقاربة الأولى لمفهوم المجتمع المدني ماركسية، بعد أن أصبح للمفهوم جاذبية على ضوء الهيمنة التي حظي بها في أوروبا. فقد انطلقت هذه المقاربة من العودة إلى غرامشي".

لقد استلهم اليسارُ العربي ما قامت به حركاتُ المجتمع المدني في أوربا في النصف الثاني من الثمانينيات (حركة "التضامن" في بولندا، وسواها)، التي تعدها الأدبيات العالمية استعادة قوية للمجتمع المدني وانطلاقة للموجة الأخيرة منه. يقول كيلة: "انتشر المفهوم الذي ساد في العالم [عن المجتمع المدني] انطلاقاً من حالة أوروبا الشرقية (أو من حالة مواجهة الاشتراكية)، خصوصاً أن تشابهاً كبيراً جمع بين واقعنا وواقع أوروبا الشرقية (السلطة الشمولية، والهيمنة، والاستبداد)".

وإجمالاً، يبدو أن ثمة سببين يقفان وراء مبادرة اليسار العربي نحوَ المجتمع المدني:

الأول هو محاولة الخروج من أزمة الأنظمة الشيوعية والوضع التوتاليتاري الذي وصلت إليه بصيغة مقابلة نابعة من داخل المجتمعات الشيوعية. وتدخل العودةُ إلى غرامشي في هذا الإطار، فهي "تمثّل سعياً للتخلّص من الماركسية السوفياتية، والانفتاح على ماركسيات أخرى، لكنها تداخلت مع تناول بحثه في مفهوم (المجتمع المدني)". والسبب الآخر هو البحث عن صيغة حاملة لمشروع التغيير بعد أزمة التجربة الحزبية.

الإسلاميون والمجتمع المدني

لقد ركب الإسلاميون هذه الموجة، مع أنهم أدركوا ارتباط المجتمع المدني، في تأسيسه، بالحركة اليسارية. يقول الباحث الإسلامي هشام جعفر: "مع اتساع المناقشة حول الديمقراطية وحقوق الإنسان في الثمانينيات ازداد تداول مصطلح المجتمع المدني أكثر فأكثر في الخطاب العربي بالنسبة للشيوعيين والماركسيين والتحرريين من المثقفين العرب، وكان الشيوعيون والماركسيون هم أكثر المثقفين اهتماماً به وبخاصة في التسعينيات، وهذه المرة ليس نتيجة فشل مشروع دولة ما بعد الاستقلال، ولكن نتيجة سقوط (المشروع الشيوعي) بسقوط الاتحاد السوفيتي، وأراد هؤلاء أن يجدِّدوا مشروعَهم السياسي ويضخوا فيه دماء جديدة، فكانت قضايا الديمقراطية وحقوق الإنسان والمجتمع المدني هي المرشحة لضخ هذه الدماء، خاصة أن جزءاً كبيراً منهم قد أدركوا التحولات العالمية بعمق، ورأوا أن هذه القضايا هي أيديولوجية النظام الدولي الجديد فتجاوبوا معها سريعاً". ويلاحظ الإسلاميون أن المثقفين الشيوعيين والماركسيين انخرطوا سريعاً في هذه الأفكار، على الرغم من أنهم كانوا ـ إلى وقت قريب ـ معادين لها، بحسب ما يقول المفكِّر الإسلامي التونسي راشد الغنوشي.

ويرى الإسلاميون أن هؤلاء المثقفين نقلوا صورة محدّدة لـ (المجتمع المدني)، وهي الصورة التي رُسمت في مرحلة تأريخية

محدّدة من مراحل الثقافة الغربية، والتي كان المجتمعُ المدني فيها نقيضا للدين ومطابقا للعلمانية، وهو ما رأوا فيه تعسّفا وأدلجة لمفهوم إجرائي. وهكذا، على وفق ما يرون، تمّ التركيز، بتأثير هؤلاء المثقفين، على تصور غرامشي، وهو التصوّر الذي يرون أنه لم يعد صالحا لفهم صورة المجتمع المدني الراهن، ومن ثم، يمثل اختزال (المجتمع المدني) في مفهوم غرامشي استعارة لمفاهيم وتجميدها في زمان غير زمانها.

وفي الخلاصة، تعامل الإسلاميون ـ بدءاً ـ مع حركة المجتمع المدني بأنها تستهدفهم وموجّهة ضدهم وأداة في الحرب عليهم، غير أنهم طوّروا، لاحقاً، طريقة في التعامل مع المجتمع المدني بأنه أداة.

هذه الأداتيةُ ظهرت بأشكال عدة، منها فهم الأحزاب الإسلامية لـ (المجتمع المدني) وعلاقتها بمنظماته، ومنها فهمُ الإسلاميين لطبيعة العلاقة بين (الدولة) و (المجتمع المدني)، التي رأوا فيها أن المجتمع المدني لا يعدو أكثر من أن يكون ذراعا للدولة. هذا التصورُ الأخير يشكل النقطةَ الجوهرية في فهم الإسلاميين لـ (المجتمع المدني): أنه لا يقوم على علاقة تقابل مع الدولة، بل علاقة تكامل. وبشكل أكثر تجريدية: دائما، ثمة (أو ينبغي أن تكون) حاضنة سياسية للمجتمع المدني.

ما يبرّر هذا الفهمَ، في نظر الإسلاميين، أنه يعي ويعبّر عن خصوصية المجتمعات الإسلامية، حتى وإن كان يخرج عن الجوهر العالمي لفكرة (المجتمع المدني).

غير أن هذه الأداتية أفضت إلى أن يكون (المجتمعُ المدني الإسلامي) تعبيرا وجزءا من تطور بنيوي داخل الحركة الإسلامية، بمعنى أنه لا يعبّر عن خصوصية المجتمعات الإسلامية فقط، بل عن تحولات الإسلاموية نفسها.

لقد بدأت الإسلاموية بفكرة (أسلمة المجتمع)، ثم تحولت إلى فكرة (أسلمة الدولة) في الأربعينيات والخمسينيات مع تطور أفكار المودودي وسيد قطب والخميني، لتعود ثانية إلى فكرة (أسلمة المجتمع)، مع شعور عام عاشته الأحزابُ الإسلامية التقليدية، وهو أن فشل مشروع الدولة الإسلامية يعود إلى فشل الجمهور في تقبلها، ومن ثم، تعني العودة إلى أسلمة المجتمع تهيئته لاحتضان الدولة الإسلامية.

وهكذا، تكون الإسلاموية قد تحركت حركة دائرية: من أسلمة المجتمع، إلى أسلمة الدولة، ثم العودة إلى أسلمة المجتمع.

غير أن أسلمة المجتمع ليست واحدة في المرتين: إن أسلمة المجتمع الأولى تقوم على تقابل بينها وبين السياسة، في حين أن الثانية تقوم على تقابل (وإن نظري مجرد) بينها وبين الدولة، الأولى تقوم على التثقيف الديني، في حين أن الثانية تقوم على العمل السياسي داخل المجتمع، الأولى ولّدت الحركات الدعوية، في حين أن الثانية ولّدت الحركات المدنية، أو المجتمع المدني الإسلامي، وهما ليسا شيئا واحدا، ولعل هذا يفسر لمَ يرفض كثير من الحركات الإسلامية فكرةَ (المجتمع المدني)، في حين أنها مارست نشاطا قد يكون قريبا من نشاط الحركات الدعوية.

لقد وُلدت الأحزاب السياسية الإسلامية من الحركات الدعوية، وقد أنتجت هذه الأحزابُ المجتمعَ المدني الإسلامي، الذي سيكون ـ على وفق هذا الفهم ـ مرحلة في سياق التطور الداخلي للإسلاموية.

الهوامش

(1) يُنظَر: التحديات الجديدة أمام إعمال الحق في التنمية، محمود عبد الفضيل ومحسن عوض، في: حقوق الإنسان والتنمية: أعمال الندوة الإقليمية حول حقوق الإنسان والتنمية (القاهرة 7 ـ 9 يونيو/ حزيران 1999)، تحرير: محسن عوض، المنظمة العربية لحقوق الإنسان AOHRوبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي UNDP، القاهرة، ط 5، 2005 ـ 2006، ص 282.

(2) المجتمع المدني في مواجهة السلطة، روجيه سو.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه.

(5) المصدر نفسه.

(6) يُنظَر: المصدر نفسه.

(7) إشكالية حرية التعبير في الثقافة العربية، حيدر سعيد، جريدة أوان، الكويت، عدد 5/ 12/ 2008، ص 14.

(8) تتبنى (الشبكة العربية للمنظمات الأهلية) تقسيم المجتمع المدني في العالم العربي إلى أربعة أجيال، هي: جيل العمل الخيري، وجيل العمل الرعائي والخدمي، وجيل العمل التنموي، وجيل المنظمات الحقوقية (يُنظَر: مؤشرات فاعلية منظمات المجتمع المدني العربي، تحرير: أماني قنديل، الشبكة العربية للمنظمات الأهلية، القاهرة، 2010، ص ص 70 ـ 71).

(9) يُنظَر: المجتمع المدني والدولة في التأريخ العربي، وجيه كوثراني، في: المجتمع المدني في الوطن العربي ودوره في تحقيق الديمقراطية، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظّمها مركزُ دراسات الوحدة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 2، 2001، ص 120.

(10) يُنظَر: مشكلات مفهوم المجتمع المدني، سلامة كيلة، في كتاب: تطور مفهوم المجتمع المدني وأزمة المجتمع العربي، تحرير: غازي الصوراني، مركز الغد العربي للدراسات، دمشق، والعمل الأهلي: رؤية إسلامية، هشام جعفر، الموقع الإلكتروني (إسلام أون لاين)، آب2004، على الرابط الإلكتروني الآتي:
http://www.islamonline.net/Arabic/contemporary/02/2000/article57.shtml.

(11)يُنظَر: مشكلات مفهوم المجتمع المدني.

(12) المصدر نفسه.

(13) المصدر نفسه.

(14) العمل الأهلي: رؤية إسلامية، هشام جعفر.

(15) يُنظَر: مقاربات في العلمانية والمجتمع المدني، راشد الغنوشي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 1999، ص84.

(16) يُنظَر: المصدر نفسه، ص 83.

(17) يُنظَر: الإسلاميون وتحدي المجتمع المدني، عبد اللّه جاد فودة، مدونة (القصد)، 2007، على الرابط الإلكتروني الآتي:
http://alkasd.blogspot.com/2007/09/blog-post_10.html.

(18) مثال ذلك ما يقوله راشد الغنوشي في كتابه: مقاربات في العلمانية والمجتمع المدني، ص 83.

أنموذج افتراضي لدراسة الشخصية العراقية

محمد حمود إبراهيم ❖

محمد حمود إبراهيم، تدريسي وباحث في علم الاجتماع و الانثربولوجيا، ومعاون مدير مركز أبحاث الأهوار- جامعة ذي قار. لديه مجموعة من الدراسات والأبحاث العلمية المنشورة في مجلات علمية محكمة. كما له مجموعة من المقالات المنشورة في الصحف والمواقع الالكترونية، اضافة الى مشاركات في العديد من المؤتمرات والندوات وورش العمل خصوصا التي يتعلق منها بالثقافة والتعليم. يدير منظمة مجتمع مدني تعنى بتطوير النمط الثقافي لدى مجتمعات الأهوار، كما انه ناشط في مجال الدفاع عن حقوق الطفل والمرأة في المجتمعات المحلية.

نالت الشخصية العراقية اهتماماً لا بأس به من قبل المختصين والمفكرين في العراق، إلا إن اغلب الدراسات التي تناولتها كانت عبارة عن وصف إنشائي يبتعد عن الأسس و الأطر النظرية والمنهجية التي يجب اتباعها في مثل هذه الدراسات، ناهيك عن عدم اعتماد الباحثين لأسس التجرد والموضوعية والدقة العلمية والنظرة الثاقبة وشمولية الرؤية . ومع ذلك فان ثلاث دراسات قام بها علماء اجتماع يساهم وباستمرار في تكريس حالة الازدواجية وتشعب القنوات التي تغذيها حتى اصبح الفرد العراقي يطلب من غيره أن يقوم بأعمال لا يستطيع هو أو لا يرغب القيام بها ، في الوقت الذي ينهى الآخرين عن القيام بأعمال يقوم هو بالعمل بها.لقد اقتبس الوردي فرضيته من عالم الاجتماع الاسكتلندي روبرت ماكيفر كما يؤكد ذلك بنفسه، إذ يقول بأنها ليست من بناة افكاره بل اقتبستها من

عراقيين كانت جديرة بالاهتمام لأنها حاولت دراسة الشخصية العراقية وفق الأطر العلمية التي اشرنا إلى ضرورة إتباعها. لقد تمت هذه الدراسات في العراق ما بين العقد السابع من القرن العشرين والعقد الاول من القرن الحادي والعشرين،أي خلال فترة زمنية محصورة بالأربعة العقود والنصف الأخيرة، وكان أصحابها أساتذة لعلم الاجتماع في كلية الآداب جامعة بغداد، وهذا يدل على أمرين، أولهما حصر الاهتمام بموضوع الشخصية العراقية بعلم الاجتماع دون المشاركة من اختصاصات أخرى، وثانيهما أن هذه الدراسات كانت قد جرت على حافتي نظام حكم البعث في العراق (1968-2003) ، مما يدل على ان هذه الفترة الزمنية والتي يسميها احد أصحاب هذه الدراسات (سنوات الجمر)كانت احد المعوقات التي تقف دون قيام الباحثين بدراسة المجتمع العراقي، إلا إذا كان ذلك يتم وفق السياقات التي تضعها السلطة والتي كانت تعتمد الشعارات البراقة مخفية تحتها الأكاذيب والزيف والغش العلمي .وسوف نحاول هنا أن نتناول أشهر ثلاث دراسات للشخصية العراقية،ثم نطرح الأنموذج العلمي المقترح اعتماده من قبل الباحثين في الشخصية العراقية في المستقبل.

النموذج الأول "الازدواجية"

وهي فرضية علمية قدمها د.علي الوردي في منتصف عقد الستينات من القرن العشرين مفادها أن الإنسان في المجتمع العراقي يقع تحت تأثير نظامين متناقضين من القيم والمفاهيم، وهو لابد وان يتقبلهما.لكنه يتأثر بأحدهما مرة وبالأخر مرة ثانية ، الأمر الذي يؤثر في سلوكه ويجعله متناقضا. والمشكلة تتعقد أكثر لأن هذا الإنسان لا يشعر بهذا التناقض بين النظامين اللذين يثقلان كاهله ولايعترف به وهكذا تتكون الشخصية المزدوجة (1). ولكن كيف ينمو هذان التياران في الشخصية العراقية ولماذا؟ يعتقد الوردي أن (الجانب الواقعي) منهما يتأتى من طبيعة الحياة ذاتها حيث يتعلم الفرد مفرداتها منذ نعومة أظفاره من خلال المجتمع المحلي الذي يعيش فيه مع الأسرة والجيرة وجماعة اللعب التي تربي فيه القيم البدوية، فيتعلم كيف يكون غالبا وليس مغلوبا ، وكيف يكون ميالا للتحدي والمغالبة مع الآخرين، لكن هذا الفرد نفسه يجب أن يتعلم أيضا الخضوع والاستسلام للقدر، وهنا يبدأ (الجانب المثالي). أن الجانب الأول ينمو منذ نعومة إظفار الطفل فهو عميق الجذور في تكوين شخصية الفرد العراقي ، بينما ينمو الجانب الثاني أثناء تلقي هذا الفرد للمواعظ الدينية والمجادلات المنطقية التي يعلمه اياها المجتمع نفسه الذي كان قد علمه من قبل على التحدي والغلبة وهكذا تنشا الازدواجية وتنمو(2). هذا من جانب، ومن جانب آخر فان القيم الاجتماعية التي يعتز بها الفرد العراقي والتي تتضمن العصبية القبلية والنخوة وحق الجيرة والزاد والملح ،تتعارض مع القيم الحديثة التي أصبح الأفراد يتقبلونها ويتمثلون بها مثل الحرية الفردية والمساواة التي شاعت بين الناس في العراق منذ العقد الخامس من القرن العشرين. الأمر الذي ظل

ماكيفر ثم اجرى عليها التحوير والتطوير الذي تتطلبه حتى جاءت منسجمة مع واقع المجتمع العراقي (3). بينما اعتمد على تقنيات للبحث ضمت مجموعة من الأدوات مثل الملاحظة المباشرة وشهود العيان للحدث الاجتماعي وبعض الآيات القرآنية وأحاديث الرسول (ص) واقوال الائمة والاقوال والحكم المأثورة والسائدة في المجتمع العراقي بوصفها وسيلة من وسائل الضبط الاجتماعي ، بالإضافة إلى المنطق الوضعي وأداة المقارنة الثنائية(4) . لقد نشأ الوردي في اواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الانكليزي وقد شاهد كيف يتفاخر ويتشاتم الناس فيما بينهم، وما هي القيم التي يقدرونها اكثر من غيرها، وانه منذ ذلك الحين وطوال أربعين عاماً ظل يدرس المجتمع العراقي والشخصية العراقية (5). ويمكن تلخيص فكرة الوردي في فرضيته هذه بالرسم الاتي :-

جانب واقعي + جانب مثالي=
افكار متناقضة ⟵ شخصية مزدوجة

النموذج الثاني "القلق والقوقعية "

يمثل النموذج الثاني **د. عبد الجليل الطاهر** (1917- 1971)، صاحب فرضية "القلق والقوقعية"، والتي ظهرت في عام 1969 والتي تؤكد على أن للفرد العراقي مجموعة كبيرة ومتشعبة من الانتماءات التي يتوجب علية تقديم الولاءات لها. لكن بعض هذه الانتماءات عميقة وبعضها الآخر مجزأً، إلا أنه يشعر بعجزه أمام إرضاء جميع هذه الولاءات الامر الذي يؤدي الى حدوث الصراع النفسي. ان الفرد العراقي ومن خلال ولاءاته التي تتوزع بين القبيلة، والطبقة، والطائفة، والدين، والحزب، والنقابة، والنادي، والعائلة، والمرجعيات الدينية والثقافية التي يشعر بالولاء العميق لها، ويتبادل العلاقات السطحية المؤقتة والطارئة خارج هذه الولاءات القوقعية،التي ظلت رغم قدمها تؤثر في وجدان الفرد العراقي وتحدد دوره في الحركات السياسية والاجتماعية والثقافية فأصبح الأفراد يتوزعون بين هذه الحركات بالمقدار الذي تتصل به الحركات ببناء القواقع الولائية القديمة، حتى أن خطوط حياة الفرد العراقي اليومية تتحدد بحدود تلك القواقع الولائية. أن سلم هذه الولاءات المتحرك المتبدل على الدوام صعودا او هبوطا اثر في وجدان الشخص العراقي بحيث جعلة متناقضا ومتبدلاعلى الدوام (6). لقد بذرت هذه القواقع بذور التحيز والتعصب، فانعزل ابناء المجتمع العراقي عموديا وأفقيا، فتهشم المجتمع الى اجزاء عديدة متناقضة في اعماقها ومتهاوية في شكلها. ومن خلال سلم الولاءات صار الفرد العراقي يحاول ان يتشبث بواحدة او اكثر من درجات هذا السلم والذي يصعد تارة ويهبط تارة اخرى مما ادى الى اختلاط نقاط الانتماء والتشابك والانطلاق. ونتيجة لهذا الواقع فقد ضم وجدان الشخص العراقي صورا مختلفة من الحرمان، والتذمر،والقلق تؤثر جميعها في السلوك والمواقف (7). أن الشخصية العراقية كانت ولازالت حصيلة لذلك التفاعل ألتناقضي بين أعداد متنافرة من القواقع الولائية، مما جعل هذه الشخصية ينبوعا لا ينضب من الحركة، والقدرة على التعبير،والأصالة، والإبداع، والاجتهاد. لقد استطاعت هذه الشخصية أن تطبع كل الأقوام التي سكنت بلاد مابين النهرين وكل التيارات الحضارية الفلسفية

والدينية واللغوية بطابعها الخاص. ويحدد الطاهر أعراض القلق الذي تعاني منه الشخصية العراقية بمجموعة من الظواهر والمشكلات الاجتماعية كالثورات المسلحة، والانقلابات العسكرية، والمنازعات بين القبائل، وسقوط الوزارات بصورة متتابعة، والعزل عن المناصب، وإسقاط المواطنة، والاعتقالات، والنفي، والطرد، والفصل، والعزل، وإعلان الأحكام العرفية وحل البرلمانات وتعطيل الصحف(8).

أما صفات هذه الشخصية فيلخصها الطاهر بالاندفاعات المفاجئة والعنف في معاملة الخصوم حتى انه يشبه الفرد العراقي في سلوكياته المندفعه والمتفجرة بشكل غير متوقع بنار نبات الحلفة التي تهب مرة واحدة وتنطفئ مرة واحدة (9).

ويعتقد الباحث أن فكرة الطاهر تكون وفق الرسم الآتي:-

انتماءات متحجرة ← ولاءات متعددة ومتشعبة← تصدع البناء النفسي للشخصية والبناء الاجتماعي العام.

أن القوقعة تؤدي إلى القلق، بل أن الطاهر يذهب بعيدا عندما يجعل القوقعية والقلق عقدة مزمنة في الشخصية العراقية.

فهي كانت ولازالت حصيلة ذلك التفاعل التناقضي بين اعداد متنافرة من القواقع الولائية التي لم يؤدِ تفاعلها الى تكوين مركب نفسي متكامل ومترابط.

وتصل الحالة إلى تساؤله: هل أن القلق موروثاً في عظام العراقيين ولحمهم ودمهم؟ هل صنع من ذرات ترابهم، وصخور جبالهم، وقطرات مياههم؟ انه يعتقد أن في الأرضية الخلفية لشخصية الفرد العراقي تقف اشباح تلك القواقع الولائية القديمة والمتحجرة (10).

لقد كانت دراسة الطاهر هذه نتيجة لملاحظاته ومشاهدته لما كان يجري على مسرح الأحداث بعد عام 1953، أي بعد أكمال دراسته في الولايات المتحدة وعودته للعراق وحتى 1969 العام الذي نشر فيه هذه الدراسة.

لقد عوقب هو نفسه خلال هذه الفترة الوجيزة بالطرد من ألمهنه كأستاذ لعلم الاجتماع في جامعة بغداد، ثم أعيد ثم عزل مرة ثانية، ثم زج في السجن في شباط 1963، بعدها اجبر على ترك العراق إلى السعودية أولا، ثم إلى ليبيا التي قضى فيها أربعة أعوام قبل أن يعود للعراق مرة ثانية في عام 1969، ليواجه التضييق والمراقبة والمنع من السفر ثم يموت بشكل مفاجئ في عام 1971 وهو في ذروة عطائه العلمي. ويضع الطاهر الخصائص التي يعتقد أن الشخصية العراقية تتميز بها وهي:-

1. انها شخصية حية.
2. تنتقل من قوقعة الى اخرى بقفزة واحدة.
3. تمجد ألذات وتعظمها .
4. تعتمد كثيرا على التاريخ.
5. الاعتزاز بالكرامة والمبالغة في ذلك .
6. الاندفاعات المفاجئة.
7. العقدة ضد السلطة.
8. السلبية عن طريق التاكيد على الفردية .
9. الحفاظ على الحدود النفسية والاجتماعية.
10. المبالغة والتطرف .
11. عقدة البطل الشعبي.
12. العنف.
13. سلوكية مزدوجة بين العمل المكشوف والعمل السري(11).

النموذج الثالث "الاستنفار والاستفزاز"

ظهر النموذج الثالث على يد الدكتور متعب مناف السامرائي ، أستاذ علم الاجتماع في كلية الآداب جامعة بغدادفي عام2005.

يسميها الشخصية الأساس للمجتمع العراقي، على الرغم من ان بعض الانثروبولوجيين يفرقون بين الشخصية القومية National character والشخصية الأساسية Basic personalit .

لقد حاول د. متعب ان يبحث عن جذور المشكلة وان ينظر لها نظرة شمولية تمس جميع الجوانب المحيطة والتي ربما غفل عنها آخرون. فالشخصية العراقية هي جزء من محيطها العربي والاسلامي بل وحتى محيط الدول المتخلفة (تحت النمو)، وبذلك فان التاريخ والتراث يلعبان دوراً اساسياً في تكوين ثقافة هذه الشخصية التي ظلت أسيرة القوالب الفكرية القديمة. أن الشخصية الأساس للمجتمع العراقي هي"النمط السلوكي الذي يستقطب اكبر عدد من المواصفات المشتركة الى حد التمايز بين ثقافة وأخرى"ويصنف هذه المواصفات إلى ايجابية و سلبية. فالإهمال، والتقاطع، ومركب ألذكورة في (الرجل)، والعرف، والثقافة الشعبية، والزمن المحدود، ومركب الأبوية في (الأب)،والطائفية، والنقل، والتدين السياسي، والشعبي، والماضي هي من السلبيات، وعلى الضد منها تقف المواصفات الايجابية وتشمل الاهتمام، والتعاون، والمرأة، والقانون، وثقافة النخبة، والزمن المفتوح، والابنائية، والطائفة، والعقل والدين والتركيز على الحاضر(12).

لقد صنف الباحث لنا في البداية المواصفات الايجابية والسلبية وجعل ذلك مدخلا لفكرته حتى يمكننا من التفكير في وضع المواصفات السلبية والايجابية التي يمكن ان يستقطبها النمط السلوكي في الشخصية الاساس للمجتمع العراقي.هذا الاستقطاب الذي يجعل من هذه المواصفات المشتركة تبدو مقبولة واضحة بحيث تميز الشخصية العراقية دون غيرها. وهو يسأل عن مجموع الصفات التي يمكن ان تستقطبها هذه الشخصية القاعدية سلبا أو إيجابا؟ ومع هذا التساؤل يطرح بديهية أن الاستقطاب لا يمكن أن يكون أحاديا بل ثنائيا وهذا لا يسري على الشخصية العراقية لوحدها إنما يشمل كل الشخصيات القاعدية (13).

فالشخصية العراقية وهي جزء من المجتمع الإسلامي، والدين الإسلامي يقر بالثنائية فالنفس الإنسانية قد ألهمت فجورها وتقواها وقد تم تقديم الفجور على التقوى دلالة على ان السلوك القويم للإنسان لا يأتي متلازما معه في الولادة انما هو نتيجة حتمية للخطا الذي يقع فيه الإنسان أثناء تجاربه التي يخوضها في الحياة، إلا إن الفعل السلوكي قد يتداخل نتيجة لضغوط المجتمع وضوابطه وبذلك فان ردود الفعل المقبولة هي أرجح منها لو كانت معقولة (14). ولكن من يجيز للمجتمع وضع ضواغطه وضوابطه التي تقسم السلوك إلى معقول ومقبول؟ من دون شك انها الثقافة السائدة فهي اكبر المرجعيات التي تحرك الاداءالانساني في اية بقعة من بقاع العالم. فالثقافة هي احد اضلاع المثلث الذي يبين العلاقة بين الثقافة والمجتمع والشخصية، بل هي في قمة المثلث بينما يجعل من المجتمع وسطا بين الثقافة والشخصية وبذلك فان العلاقة التي تنتج عن ذلك هي علاقة هيمنة وليست علاقة تعاقد

(15). لقد أعطت ثقافتنا الحق لجيل الآباء في امتلاك التصرف في المرجعيات الثقافية الحاكمة والمتحكمة، وقد صير هذا الواقع الحياتي/السلوكي جيل الأبناء جيلاً مستنسخاً سلوكياً"Behavioral copies.

"وهكذا وتحت شعار حراسة الموروث ألقيمي مارس جيل الآباء سلوكه التسلطي بمباركة الشخصية القاعدية والثقافة التقليدية السائدة على الأجيال الجديدة والى حد الوصاية (16)،الأمر الذي ساعد في نشوء ثقافة الاجترار الفكري لأن جيل الآباء قد قتل ميكانزمات الإبداع عند جيل الأبناء وجعله وسطا ناقلا يعتمد على الهامش أكثر من المتن (17).

وهكذا نمت وترعرعت ثقافة بغيضة اخرى هي ثقافة التهميش والاستئصال التي لعبت ولازالت تلعب ادواراً خطيرة في تفتيت وحدة الامة والوطن. أن من أقسى نواتج الوصاية الأبوية في المجتمع العراقي وجواره العربي والمسلم أن برزت شخصية الأب القوي الذي يمارس كل التقاطعات السلوكية متمتعا بالحق الذي يمنحه إياه (الفقه ألذكوري/ الأبوي)، فصار هذا الاب عفيفا في الظاهر ماجنا في الداخل. وبذلك كرست حالة التداخل في سلوك العراقي الذي صار يتوجب عليه أن يتحمل شخصيتان، الأولى خارجية (برانية)، والثانية داخلية (جوانية).

لقد ارتضى الفرد العراقي بتحمله للإطارين في آن واحد، نتيجة لحالة القلق وعدم الثقة بسبب حالة الاستنفار المزمنة التي عانى منها المجتمع العراقي طيلة القرون الماضية الى ان اصبحت في الوقت الحاضر جزءا لايتجزأ من حياته. أن سلوك الأب القاسي والأم الخاضعة في المجتمع العراقي ساهم في تعقيد حالة الشك الدائم، والتشكيك المستمر الذي نتج عن وانتج في الوقت ذاته حالة الاستنفار بسبب الخوف من (الغريب)، وهو بالنسبة للعائلة أي فرد آخر من غير أفرادها، وللمجتمع المحلي أي شخص لا ينتمي إليه... وهكذا. لقد ساهمت هذه الظروف مجتمعه في نتاج وضع نفسي / اجتماعي مركب ومتداخل. أن للتراث والفكر المنغلق دوريهما في مد الثقافة بما يغذيها من دواعي الشك والتشكيك والاستنفار وبصورة شبه دائمية. لقد ظلت الشخصية العراقية محكومة بعقدة الخوف من الغريب، الأمر الذي جعلها تضع خطا فاصلا هو المسافة المسموح بها بين الطريد والمطارد، هذه المسافة جعلت "الغريب" وهو ايضا قريب او ابن المدينة او القرية او المحلة او اي وسط مكاني آخر مصدرا للريبة والشك، وعليه فلابد من وجود فواصل وحواجز نفسية واجتماعية، ولابد أيضا من تكريس آلية الاستنفار إلى حد الاستفزاز، فهذا هو الوضع الوحيد الذي يمكن من خلاله ضمان سلامة الشخصية العراقية. ومن خلال تبني ومباركة الشخصية العراقية لحالة الاندماج والتزاوج بين الاستنفار والاستفزاز ولد "العنف" Violence الذي صار يأكل بالشخصية العراقية نفسها. وبدلا من تبني الحكومات العراقية في العصر الحديث لسياسات ثقافية وتربوية وتعليمية تسعى إلى تغيير في مفردات الثقافة العراقية، صارت هذه الحكومات تعمل على تكريس حالة الاستنفار والاستفزاز،وهذا بالمناسبة لا ينطبق على العراق فقط بل يشمل اغلب أنظمة الحكم في دنيا العرب والمسلمين والشرق (18). لقد صنعت هذه الأنظمة من التداخلية

السلوكية بين الاستنفار والاستفزاز صيغة أكثر حدة جمعت بين الخوف من الآخر القريب إلى الخوف من الآخر البعيد في الوقت الذي احتكرت فيه التعامل مع الآخر البعيد لنفسها! وهكذا استبدلت الدولة في العراق مثلث (ثقافة/ مجتمع/ شخصية) بعد ان البسته ثوباً جديداً بمثلث اخر هو (العلم والشعار والنشيد) فالعلم يترجم نمط الحكم، والشعار يمثل اللازمة الفكرية التي يجب ان يعتمدها المجتمع، بينما يقوم النشيد بدور التعبئة الفكرية في ابعد مدياتها بعد ان يحرك الشخصية، وبذلك تكون الشخصية قد انكمشت في كبسولة الدولة الى حد عسكرتها مما يفتح الطريق أمام إطلاق ثقافة الاستعلاء التي تنفذ بآليات التهميش والاستئصال (19).

ويؤكد السامرائي على مسألة ارتباط المجتمع العراقي بالمجتمع العربي الإسلامي، المحكوم أصلا بفقه النكاية، وهو فقه يقول انه من الممكن ان تخبر بما هو صح ولكنك يجب ان ترفض هذا الصح وتبقى على الخطأ، ولكن لماذا؟ والجواب نكاية بالآخر.

فوق ذلك الشخصية العراقية شخصية اتباعية تهتم بالوسائل اكثر من اهتمامها بالغايات، وهي جزء لايتجزأ من الشخصية الشرقية الاختزانية المؤجلة، وليست مثل الشخصية المعجلة عند الغربيين، وخير دليل على ذلك مفهوم (الصبر) (20). إن الشخصية العراقية لا تستطيع أن تجذب خطا واحدا وانما المطلوب خطين في سبيل إيجاد الحركة (21)، فنحن يجب أن نعترف بأن جزءا كبيرا من الذي يحصل في العراق في الوقت الحاضر هو نابع من الشخصية العراقية ذاتها، فالعراقي لديه استعداد عال للعنف. (22) أن المشكلة تكمن في الانقطاع الحضاري الذي حصل في العراق، إذ توجب على المجتمع العراقي تبديل دينه وحضارته مرات عديدة، ولم تكن المشكلة في البديل فقط بل كانت ايضا بمدة الانقطاع والتبدل وتاثيرها على الشخصية العراقية، بالإضافة إلى انهيار اليقينيات القديمة مع بقاء تجذر السلطة الرعوية في المخيال الشعبي، فلازلنا نقيم وزنا لكلمة "راعي" الى ان ترسخت لدينا السلطة الرعوية، فلابد من وجود الاب القوي الممثل بالحاكم العادل المستبد،الأمر الذي يجعلنا نشعر أن هناك هيمنة كبيرة تمنعنا من إقامة التعاقد الاجتماعي فيدفعنا ذلك إلى التسليم بالواقع الموجود(23). ان ثقافتنا وهي مركب (عالٍ وأبوي) تتغلب دائما على شخصيتنا لان التنشئة لا زالت في بلادنا فردية تنحصر في الأسرة بينما في المجتمعات الغربية، وقد فصلت بين الثقافة والأبوة،تقوم الثقافة لديها بدور التقويم الذي يصل إلى التطبيع والتنشئة،وبذلك تقوم المدرسة بعملية التنشئة (24). أن المجتمعات الغربية تتلقى تنشئة رسمية موضوعة وفق مناهج علمية مدروسة سلفا بينما تظل تنشئتنا تقليدية عبر الثقافة التقليدية المغلقة التي نتلقاها من خلال الأسرة والمجتمع المحلي المحيط. أن مشكلتنا كعرب هي أننا (لقاح)، هذا يعني أننا لانملك ولا نمتلك، أي لا نعرف كيف نملك ولا نقبل ان نمتلك حتى نستطيع ان نؤسس ونكون دولة ومؤسسات ونفصل السلطات، بينما تظل مشكلة الشخصية العراقية مفتوحةلاتحمل (لا) فالمجتمع العراقي مازالت تهيمن عليه الثقافة السياسية (25). أن من اخطر ألازمات التي رافقت حركة المجتمع العراقي في السابق هي دخول سلطة بدوية على واقع حضري متقدم

خاصة بعد عام 1963 وهو دخول يختلف عن دخول الريفية في عام 1958 لأن البدوية تخاف من المؤسسة فهي تسعى دائما الى ضرب المؤسسة، وإقامة البديل عنها، لهذا علينا إيجاد حد لمنع دخول البدوية ثانية ويتوفر هذا في بناء المؤسسات (26).

نموذج الدراسة المقترح

لنفترض ان هذا الموضوع الذي سنقوم بدراسته هو موضوع تأريخي ولتصميم هذا البحث التأريخي فأننا لابد من أن نقوم بالخطوات آلاتية:-

أولا- تحديد موضوع البحث : فالباحث هنا مطالب بتحليل موضوع بحثه إلى عناصره فيتوجب عليه تحقيق مطلبين أساسيين:-

أ- تحديد المفاهيم المستخدمة ،أي ماذا نقصد بالشخصية، مصطلحا ومفهوما علميا. ويمكننا هنا ان تستخدم تعريفا إجرائيا للشخصية العراقية على أنها (مجموعة من السمات والخصائص التي تنعكس في مجموعة من المشاعر والسلوك في مواقف معينة لدى الإنسان الذي يعيش في الرقعة الجغرافية المحصورة بحدود العراق) ومع ذلك فلازال الأمر مبهما لان الموضوع لم يزل غير محدد، لذا فان الباحث يتوجب عليه ان يهتم بتحديد السمات التي سوف يدرسها دون غيرها لانه من الصعوبة بمكان ان يقوم باحث واحد أو حتى مجموعة من الباحثين بدراسة كل سمات الشخصية العراقية، فالباحث مطالب بدراسة إحدى هذه السمات أو مجموعة محددة منها مثل (الحزن، الفرح، روح النكتة...الخ) التي تتميز بها الشخصية العراقية دون غيرها من الشخصيات المحلية أو الوطنية القريبة منها أو البعيدة عنها تأريخيا وجغرافية وحضاريا ونفسيا واجتماعيا.

ب. تحديد المجال المكاني والزماني للبحث، وهذا تحديد آخر للبحث وفيه يقوم الباحث بتحديد المجال المكاني للدراسة والذي يرتبط به أو يأتي عن طريقه تحديد نوعية الشخصيات التي سوف يقوم بدراستها أو بمعنى اكثر دقة انه مطالب بتحديد (عينة بحثه) هل تكون عينة تشمل جميع أبناء المجتمع العراقي الكبير على شكل مسح اجتماعي شامل، أم اختيار العينة من المدن الرئيسة الثلاث بغداد والبصرة والموصل، أم يتم اعتماد تصنيف العينة على أساس ريفي/ حضري، ثم دراسة تأثير السمات التي تحملها هذه المجتمعات على سمات وخصائص المجتمعات المحلية الأخرى التي تقطن المدن والقصبات والبلدات المجاورة لكل من تلك التي تم الإشارة إليها.

إن جدية الدراسة ومدى رصانتها العلمية تعتمد الى حد كبير في تحديد العينات التي يجب إخضاعها للبحث والتي يجب أن تكون ممثلة للطيف العراقي بقومياته وطوائفه وأديانه وألوانه المتعددة. وبقدر ما يكون الباحث مطالباً بتحديد المجال المكاني واختيار عينات بحثه فانه مطالب أيضا بتحديد المدة التاريخية التي سوف يدرسها في هذه الشخصية سواء اعتمد فيها على العينة أو الوثائق والسجلات المتاحة. وتجدر الإشارة هنا إلى إن عينة البحث وشموليته والمدة التاريخية المقترحة تتحدد في ضوء الإمكانات المادية المتاحة والزمن المحدد لأجراء الدراسة.

ثانيا- مسح التراث للتعرف على سمات الشخصية العراقية: فالباحث يتوجب عليه أن

يرجع إلى بعض الكتب الأدبية التي تصور الإنسان العراقي في مدد زمنية محددة (رواية،قصة قصيرة) في العراق والتي تناولت المجتمع العراقي، كذلك دراسة الأساطير والحكايات الشعبية الموروثة في الفترة المظلمة التي امتدت منذ عام 1258م وما تلاها من تعرض العراق للغزو الأجنبي المباشر أو الحكم المحلي المرتبط به وحتى عام 1958م. إن دراسة السبعة القرون هذه من تأريخ العراق سياسيا واقتصاديا وثقافيا واجتماعيا لابد وان ينتج عنه مجموعة من الحقائق الموضوعية التي أثرت في تركيبة المجتمع العراقي الفكرية ومن ثم تأثيرها المباشر وغير المباشر في مجمل الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية.

إن دراسة هذا التأريخ الطويل ربما يفيدنا في استنتاج وتحديد السمات التي تشترك فيها الشخصية العراقية، أي ما يجمع بين ابن زاخو في أقصى الشمال وابن الفاو في أقصى الجنوب وبين ابن الرطبة في أقصى الغرب وابن خانقين أقصى الشرق من سمات وصفات وخصائص محددة وواضحة يمكن أن يلاحظها الباحث بصورة واضحة بحيث ان هذه الصفات المشتركة التي توجد عند العينات التي تم اختيارها في هذه المناطق التي تقع في أبعاد العراق الأربعة، والتي تشترك مع نفس الصفات التي يتم استنتاجها من عينات عشوائية أو نظامية يمكن تحديدها من مختلف مناطق العراق في المدن والبلدات والقصبات والقرى والأرياف ،إن هذه الصفات والخصائص يمكن أن تمثل جميع هذه العينات التي أشرنا إليها وان تعتبر قاسما مشتركا لجميع المجتمعات المحلية في العراق، وان يلاحظ الباحث من خلالها إنها صفات محلية تخص المجتمع العراقي الكبير دون غيره من المجتمعات المحلية المجاورة له والبعيدة عنه ويستطيع الباحث أن يقول إن هذه الصفات والخصائص مع مالها من تقارب وتشابك مع صفات توجد في الجزيرة العربية والخليج وبلاد الشام وإيران وتركيا إلا أنها ومع كل ذلك تبدو اكثر خصوصية للإنسان العراقي دون غيره من جميع المجتمعات المحيطة بالعراق جغرافيا التي تم الإشارة إليها التي يشترك العراق بكل قومياته وطوائفه وأطيافه معها بعوامل مشتركة نتيجة عوامل التاريخ والجغرافية وتلاقح الحضارات أو صراعها.

كذلك فقد يلجأ الباحث أو فريق البحث إلى صور التعبير الفني كالشعر واللوحات الفنية إذ يمكنه من ملاحظة بعض القيم والسمات التي حاول الشاعر أو الفنان أن يترجمها في عمله الفني (الشاعر مثلا في الغزل،الرثاء، المديح،الهجاء...الخ) وان الباحث مطالب أيضا بالرجوع إلى الوثائق القديمة والخطب السياسية والمحاضرات والمذكرات الخاصة بالقادة أو حتى العامة ،ومن غير شك في أن في كل هذه المصادر العديد من البيانات التي تعكس الكثير عن الشخصية العراقية في السجلات الإحصائية المتداولة والخاصة بالزواج والطلاق والمواليد والتعليم والعمل والهجرة. وقد يقوم الباحث بتحليل مضمون الجرائد والمجلات التي تتناول المجتمع العراقي عامة أو تلك التي تعكس مشكلاته أو المواقف التي تؤدي إلى إظهار سمات خاصة معينة. ولاشك في أنه سوف يفيد في قراءة وتحليل الكتب المتخصصة التي تناولت التأريخ العراقي،

وبعض الدراسات التي تناولت تلك المدة بالعرض والتحليل. كل هذا قد يساعد فريق البحث في الوقوف على العوامل والقوى الخفية التي شكلت بعض سمات الشخصية العراقية، وكثيرا ما تثير هذه الدراسات بعض التساؤلات أو الفروض التي يتبناها الباحث لتفسير الظواهر التي يقوم بدراستها. كذلك قد يلجأ الباحث إلى دراسة الشعر الشعبي (البدوي والريفي) ودراسة الأغنية العراقية (الجنوبية والفراتية والبغدادية والبدوية والكردية والمقام العراقي)، أيضا دراسة الأمثال والحكم التي تنتشر بصورة اكبر وعادات ومراسيم الأفراح والأتراح، وقضايا الفصل العشائري وعادات الثار وغسل العار والخلط بين التعاليم الدينية والأحكام القبلية والفهم الخاطئ للدين وقيم الفخار والعار في المجتمع العراقي ووسائل الضبط غير الرسمية في هذا المجتمع،كل هذه المفردات الطويلة ربما تكون ضرورية ولامناص منها للباحث الذي يبغي أن يستنتج سمات وصفات الشخصية.

ثالثا- الفرض العلمي: إن البحث التأريخي قد يكون بحثا استطلاعيا بمعنى انه لا يختبر فروضا معينة ويكتفي فقط بإثارة بعض التساؤلات العلمية. وقد يتبنى الباحث بعض الفروض التي من خلالها يحاول تفسير اصل ووظيفة بعض السمات وعلاقتها بسمات أخرى أو قد يكشف عن اثر بعض السمات في توجيه الفعل الاجتماعي. كل ذلك متروك للباحث حسب طبيعة دراسته وحسب نوعية الموضوع الذي يعالجه.

رابعا- الطريقة أو الأداة: فطالما كان نموذج البحث الذي اختاره الباحث هو النموذج التاريخي فان افضل الطرق المناسبة لهذا النموذج التي تتلاءم مع موضوع الشخصية هي طريقة تحليل المضمون Content Analysis وطريقة البيانات الجاهزة، أما عن الأداة المناسبة فهي تتمثل في الوثائق والمقابلات الشخصية.

خامسا: مستلزمات ضرورية: إذ يجب على الباحث أن يلتزم بالدقة وعدم التحيز (عدم اعتناق أفكار مسبقة). أن الكثير من الكتب التاريخية قد كتبت في عصور مختلفة تأثر بعضها بتوجهات أيديولوجية معينة وانعكس ذلك على فكر المؤرخ وتحليله ولذلك يجب ان يكون الباحث على دراية بظروف كل عصر ونوع نظام الحكم والأيديولوجية السائدة في تلك المدة.

سادساً- مستويات التحليل والتفسير: أن التحليل هنا يجب أن يبين بوضوح الظروف الاجتماعية أو السياسية التي أدت إلى ظهور سمة معينة وينبغي أن تكون العبارات التفسيرية مدعمة بالمادة العلمية حتى يمكن الإفادة منها في الحكم على الظاهرة محل التفسير. و أيضا فان الباحث مطالب بعرض كل ذلك في التقرير النهائي الذي يشتمل على خطوات البحث ومنهجيته والنتائج التي توصل إليها الباحث، واخيرا فلابد من الإشارة إلى تحديد مدة لدراسة الشخصية العراقية فليس من المعقول أن تدرس هذه الشخصية من البابليين وحتى الوقت الحاضر فالدراسة يمكن أن تتضمن جيلين أو ثلاثة ويكون التركيز على الوقت الحاضر.

سابعا- فريق العمل: ومن خلال ما أشرنا أليه آنفا يتضح بان الموضوع ذو وجوه عديدة ولا يمكن ملامسة جانب منه دون الجوانب الأخرى فالوعاء العام هو التاريخ وكل مختص ينظر من منظاره الخاص ويأخذ

العينات التي يراها سوف تعطيه نتاجا أكثر دقة وموضوعية. إذن لابد أن يضم فريق العمل مختصين في علم الاجتماع، والأنثروبولوجيا الثقافية، وعلم النفس الاجتماعي، والاقتصاد، والتاريخ، وعلم اجتماع الأدب، والفنون، والآداب، والايديولوجيا، والسياسة.

ويعمل هؤلاء جميعا تحت خطة عمل موحدة موضوعة بدقة وعناية فائقة تعتمد الأطر المنهجية والنظرية الملائمة لمثل هذه الدراسات، وان تتوفر لفريق العمل هذا كافة الإمكانات والقدرات التي تسهل عمله، وان يترك أفراده دون أي ضغوط من أي نوع كان ومن أية جهة كانت.

ثامناً – في ظل الظروف المعقدة التي يعيشها بلدنا ربما توضع الكثير من العقبات في طريق هذا الفريق لكنني أظن إن الإمكانية سوف تكون أفضل في ظل حكومة مؤسساتية قوية وسوف يكون للتعداد العام للسكان أهمية قصوى، إذا ما استطاع المخططون أن يضمنوا استمارة العد بعض الأسئلة والاستفسارات التي ستوضح الرأي العام لمختلف فئات وشرائح المجتمع، كما ستعطي البيانات المتعلقة بحجم الأسرة والفئات العمرية والمستوى التعليمي لأفرادها ونوع العمل ونسبة البطالة وأعداد المعاقين فرصا عظيمة لدراسة الشخصية العراقية بالإضافة إلى معرفة التركيبة السكانية والثقافة العامة والثقافات الفرعية والأديان واللغات والعادات والأفكار والقيم والتقاليد التي سوف توفر بمجموعها المادة العلمية الموضوعة لهذه الدراسة.

* جامعة ذي قار– مركز أبحاث الأهوار

الهوامش

1. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء الرابع، مطبعة الشعب، بغداد، 1969، ص 300–302 .
2. علي الوردي، نفس المصدر، ص304 .
3. علي الوردي، مقالة في جريدة القادسية، بغداد، العدد 1868، 1986/6/29
4. معن خليل عمر، رواد علم الاجتماع في العراق، بغداد، 1990، ص 27.
5. علي الوردي، مقالة في جريدة القادسية، المصدر السابق.
6. عبد الجليل الطاهر، القوقعية والقلق في الشخصية العراقية، مجلة المثقف العربي ، العدد 11. وزارة الأعلام، العراق، 1996، ص 35–37.
7. عبد الجليل الطاهر، نفس المصدر، ص 39 .
8. عبد الجليل الطاهر، نفس المصدر، ص 40 .
9. عبد الجليل الطاهر، نفس المصدر، ص 42–43 .

10. عبد الجليل الطاهر، نفس المصدر، ص 44 .
11. عبد الجليل الطاهر، نفس المصدر، ص 41–42 .
12. متعب السامرائي، الشخصية العراقية : متبنيات ومنطلقات، مجلة النبأ، السنة العاشرة، العدد 74، بغداد، كانون الثاني 2005، ص 23 .
13. متعب مناف، نفس المصدر، ص 24 .
14. متعب مناف، نفس المصدر، ص 24 .
15. متعب مناف، نفس المصدر، ص 24 .
16. متعب مناف، نفس المصدر، ص 25 .
17. متعب مناف، التهميش الاجتماعي، مجلة الثقافة الجديدة، العدد 312، نيسان 2004، ص 20–22.
18. متعب مناف، الشخصية العراقية : متبينات ومنطلقات، مصدر سابق، ص 25.
19. متعب مناف، نفس المصدر، ص 26.
20. متعب مناف، نفس المصدر، ص 26–27.
21. متعب مناف، نفس المصدر، ص 27.
22. متعب مناف، نفس المصدر، ص 28.
23. متعب مناف، نفس المصدر، ص 28.
24. متعب مناف، نفس المصدر، ص 29.
25. متعب مناف، نفس المصدر، ص 29.
26. متعب مناف، نفس المصدر، ص 30 .

قراءة في بعض مذكرات عامر عبدالله

إعداد عبدالرزاق الصافي

عبد الرزاق الصافي محامي وصحفي. قيادي سابق في الحزب الشيوعي العراقي، ومن العاملين في إعلام الحزب منذ نحو نصف قرن. في أواخر الستينات تفرّغ للعمل في مجال الأعلام : "الثقافة الجديدة" و "الفكر الجديد"، وكان رئيس تحرير جريدة (طريق الشعب) عند صدورها علنية في العام 1973 حتى تعطيلها في العام 1979 ، وواصل الأشراف عليها والكتابة فيها في فترات لاحقة. كما كان عضواً في مجلس السلم والتضامن العراقي ، وعضواً في مجلس السلم العالمي .

واذ تنشر المجلة هذه المذكرات تؤكد على الأهمية التاريخية للمعلومات الواردة فيها، مما يجعلها تستحق ترويجا خاصا .

حدثني الفقيد الرفيق عامر عبدالله، مرة، انه أعدّ مذكرات بلغت ما يزيد على الألف صفحة. وحدث ان تطوّع الزميل الكاتب فايق الشيخ علي ان يتولى إعدادها للنشر، فأوعز الفقيد الى من كانت المذكرات عنده، باعطائها للزميل فايق الشيخ علي. ولسوء الحظ عاجل الموت الرفيق عامر قبل ان يتسلم الزميل فايق تلك المذكرات. وبعد وفاة الرفيق عامر لم يجر التوصل الى المذكرات. وبمحض الصدفة عرفت ان الرفيق عامر كان قد استعان بآخرين لتبييض مذكراته. ذلك ان خطّه، رغم جماله، صعب القراءة أحياناً. وحصلت من أحدى الجهات، التي استعان بها الفقيد، على جزء قليل جداً من المذكرات. ووجدت فيها مادة غنية عن بعض الأحداث، التي تحدث عنها كشاهد. ومن بين هذه الأحداث حرب اكتوبر (تشرين الأول) 1973. ولذا رأيت من

المناسب ان اعدّها للنشر في الذكرى السنوية العاشرة لوفاته، التي مرت هذا العام، لما فيها من مادة غنيّة جديرة بالاطلاع عن هذا الحدث التاريخي الكبير، وأقصد به حرب اكتوبر 1973، وما حوته المادة من معلومات خطيرة تنشر، في حدود علمي، لأول مرة.

كتب الفقيد عامر عبدالله يقول:

نعود الى العلاقات العراقية – السوفيتية، ونتجاوز ما يتعلق بالطلبيات العسكرية، التي قدمتها بتقريرين ضافيين الى رئيس الجمهورية، اثر زيارتين للاتحاد السوفيتي، ونتوقف لدى القضايا السياسية التي بحثتها مع الرفاق السوفييت اثناء الزيارة التي كلفني بها أحمد حسن البكر في اثناء حرب تشرين 1973.

كان هذا اللقاء مع بونوماريوف، رئيس القسم الدولي في اللجنة المركزية، وآخرين من المسؤولين عن العلاقات مع البلدان العربية، اقتطف من وثائقه ما يلي على لسان السوفيت:

" – ان تأخر شحنات الأسلحة الى العراق يعود بالدرجة الأولى الى انشغالنا بالوضع على الجبهتين المصرية والسورية، والأهمية الملحة بدعم مصر وسوريا على وجه السرعة. وقد تم، على سبيل المثال، تجهيز كل من سوريا ومصر بأكثر من ألف دبابة عن طريق الجو خلال اسبوعين، عدا الطائرات والتجهيزات والذخائر...

– بشأن زيارة الرفيق صدام الى موسكو... وجّهنا برقية الى سفارتنا ببغداد بتاريخ 17 تشرين الأول، اعربنا فيها عن ترحيبنا بهذه الزيارة، ومشاركة الرفيق صدام حسين في مؤتمر موسكو لقوى السلم، كما اوضحنا فيها انه ستجري خلال ذلك مباحثات على مستوى رفيع. وقد قمنا بالترتيبات اللازمة لاجراء هذه المحادثات مع الرفيق بريجنيف، وهيأنا داراً لاقامة الرفيق حسين، ويؤسفنا انه لم يحضر.

– لم يستطع كوسيجن المرور ببغداد او دمشق اثناء زيارته للقاهرة، لأننا كنا بحاجة اليه هنا.

– ارسلنا رسالة الى الرفيق البكر، بتاريخ 26 تشرين الأول، اوجزنا له فيها مباحثات كوسيجن في القاهرة، ومباحثاتنا مع كيسنجر.

– قوبلت خطوات العراق بالتأييد في الاتحاد السوفيتي، خصوصاً ما يتعلق بالارسال العاجل للقوات العراقية الى سوريا، وتأمين الوقود لسوريا.

– قمنا من جانبنا بما يلزم من المساعي لدى الحكومة الايرانية.

– ارسلنا رسالة الى البارزاني حملها اليه بعض رجالنا في السفارة ببغداد. وقد استلمنا جواب هذه الرسالة، وسنجري مباحثات مع وفدهم الذي وصل الى موسكو.

– سنأخذ بعين الاعتبار انطباعات القادة العراقيين حول سفيرنا في بغداد، علماً باننا وافقنا على السفير العراقي الجديد في موسكو. فنحن لا نتدخل في شأن يهم العراق. وأردف بمزح: إذا كنتم سترسلون الى الاتحاد السوفيتي سفيركم في الكويت، فهل معنى ذلك اننا ينبغي ان نرسل لكم سفيرنا في لوكسمبورغ؟

– نحن مسرورون لاعلامنا بالموقف العسكري ايام القتال، لأن ذلك ساعد المارشال غريشكو على اعلامنا اول بأول

عن مواقع وتحركات القوات العراقية التي وصلت بسرعة، وفي الوقت المناسب – أي عندما كان الوضع في الجبهة السورية خطيراً. وقد لعبت القوات العراقية دوراً كبيراً، وحاربت بكفاءة".

حدثتهم عن مقدمات الحرب، وتنامي ميول المساومة في بعض البلدان العربية، ووجود شكوك حول السادات، وما يمكن ان يعتبر صفقة خفية مع امريكا والرجعية العربية على القتال، ومداه، ونتائجه... ومحاولة ابعاد الاتحاد السوفيتي عن الصورة. كما اشرت الى تقديرات رئيس الجمهورية في اجتماع مجلس الوزراء، الذي لمّح الى ان المستلزمات الضرورية لخوض حرب ظافرة لا تبدو متوفرة بالنسبة الى الشقيقتين مصر وسوريا. وأن الأمور غير محسوبة جيداً للتغلب على اسرائيل، وبعد أن اعلن عن تدابير العراق للاشتراك في المعركة... تمنى ان تكون العاقبة خيراً.

– حدثتهم ايضاً عن تقديرات حزبنا في الاجتماع الأخير للجنة المركزية وعن القرارات والتدابير التي اتخذت في اطار الجبهة الوطنية، واللقاءات المتكررة مع صدام حسين حول طبيعة هذه المعركة وآفاقها، وعن ضرورة دخول العراق المعركة، والمساهمة بتوجيهها وجهة صحيحة، واكسابها مضموناً تحررياً معادياً للامبريالية بحق، ودرء المخططات المرسومة لها. كما بينت لهم انها كانت متفقة على ان هذه الحرب لم تكن محسوبة بدقة، ولا مصممة لكي تكون مديدة، وجدية، وتستهدف تحرير الأراضي المحتلة حقاً، وتستخدم فيها كل الامكانيات العربية... الخ.

– لم يعلقوا على التقديرات التي ذكرتها بشأن الحرب، وطريقة ادارتها ونتائجها. ولكنهم في معرض التعقيب على مجمل الحديث، ذكروا ما يلي:

– انهم حذروا مصر وسوريا قبل بدء القتال بأسبوع، ودعوهم الى تدقيق حساباتهم جيداً قبل الدخول في المعركة. مؤكدين لهم "ن مسألة الحرب هي من الأمور التي تقرّرونها انتم بأنفسكم، على مسؤوليتكم تجاه شعبكم.. وأن موقف الاتحاد السوفيتي في دعم القضية العادلة للعرب معروف.

– يذكرون كذلك انهم – لدى نشوب القتال – ناشدوا مصر وسوريا ان اصمدوا... وسنواصل تجهيزكم بالسلاح، ونضغط على الامريكان.

– وبشأن مجرى العمليات، لاحظوا:

– ان الهجوم بدأ بشكل جيد في الأيام الأولى.

– ثم بدأ التراجع والارتباك لأسباب لا نعرفها.

– لم يكن هناك تنسيق بين الجبهتين.

– وأن المصريين توقفوا عن الهجوم، ولم يتقدموا إلا ضمن مدى المدفعية الموجودة في غرب القناة.

– لم يكن لنا بعد ترحيل الخبراء السوفيت اي عسكري على الجبهة المصرية. كان هناك ملحق عسكري فقط يتصل بالقيادة المصرية، ويستقبل ببرود، ويقوم المصريون بتزويده بما يريدون من المعلومات، ويكتمون الباقي.

– أما الوضع في سوريا فكان افضل – حيث كان خبراؤنا موجودين يقودهم عسكري برتبة جنرال. وقد استدعي من قبل حافظ الأسد بحضور مجلس الدفاع، حيث قدم آراءه ومقترحاته. وقد قام رجالنا

بتشكيل أجهزة الصواريخ المضادة للطائرات. وعندما اصبح الوضع صعباً على الجبهة انتقل فريق من خبرائنا الى هناك... لقد قتل عدد من ضباطنا، ولكننا نكتم ذلك. ومن المؤسف ان حوالي 300 دبابة سورية قد غنمت من الجانب الاسرائيلي، وقد كوّن منها الاسرائيليون ثلاثة ألوية مدرعة وأدخلوها في المعركة ضد سوريا.

طلب منا مرتين التدخل لوقف القتال، بينما كانت القوات المصرية قد عبرت القناة، وعزّزت مواقعها.

سألناهم: ما هو موقف مصر؟

اجابوا: ان مصر لا تتصل بنا في هذه الايام.

على الجبهة المصرية، جرى الاختراق الاسرائيلي عبر البحيرات المرّة بدبابات سوفيتية الصنع. هذا الوضع غير مفهوم بالنسبة لنا، إذ كيف استطاعوا ان يفعلوا ذلك؟

فأثناء حرب الاستنزاف التي نصحنا بها عبدالناصر قبل ثلاث سنوات، أقام رجالنا "جبالاً من المدفعية - أي 3200 مدفع بعيد المدى على 30 كيلومتراً غرب القناة، وحيث وقع الاختراق الاسرائيلي تماماً. فماذا كان دور هذه القوة الهائلة من المدفعية؟

بعد نجاح الاسرائيليين في اختراق الجبهة المصرية، تلقينا من السادات طلباً مستعجلاً بالتدخل لوقف اطلاق النار. كان المكتب السياسي مجتمعاً حتى العاشرة ليلاً، وانصرفنا، ولكن في الرابعة فجراً ايقظ سفيرنا في القاهرة الرفيق بريجنيف بالتلفون.. بعد ان اعتذر.. قال انه لم ير بداً من ايقاظه لأن السادات يتصل به كل ساعتين، ويطالب بإلحاح ان يتصل بموسكو ويطلب من بريجنيف ان يبذل مساعيه العاجلة لوقف اطلاق النار. وقد سأل بريجنيف سفيرنا في القاهرة: وما هو موقف سوريا؟ وجاء الجواب من السادات بأنه لم يتشاور مع سوريا، ولكنه سيتفاهم مع حافظ الأسد ويقنعه.

أصبح الوضع على الجبهة المصرية خطيراً، حيث استطاع الاسرائيليون تطويق الجيش الثالث (وكان لديه 1200 دبابة). كما استطاعوا قطع الامدادات عنه، وكذلك الماء والطعام والمواد الطبية والذخيرة، ولم يبق له اتصال بالقيادة المصرية إلا عن طريق الراديو... كما كان يعاني من مشكلة 3 آلاف جريح... فماذا نفعل؟

كانت الأمور تتطور بالساعات...

يجدر بنا هنا ان نشير الى مؤاخذة العراق لنا لعدم التشاور معه حول وقف اطلاق النار.

ان قيادتنا وبريجنيف شخصياً يقدرون تقديراً عالياً دور العراق.. وليس هناك اي تفكير بتجاهله.. ولكن الأمور كات تتطور بالساعات كما قلنا، وقد ارسلنا برقية الى سفارتنا ببغداد ليلة اجتماع مجلس الأمن، وطلبنا الاتصال بالمسؤولين العراقيين فوراً (رفض وزير الخارجية العراقية، كما ذكرت آنفاً، استقبال السفير السوفيتي، الذي شكا اليّ هذا الموقف، وقال انه يحمل برقية عاجلة الى الحكومة العراقية، وقد منعوه من دخول القصر الجمهوري لتسليمها الى رئيس الجمهورية.. فاتصلت بوزير الخارجية على تلفون داره حوالي الساعة الرابعة صباحاً، فأخبرني انه يعرف بالحادث ويتهرب قصداً عن استقبال السفير... وبعد أخذ ورد وإلحاح وجدال، اقترح ان يودع البرقية في مكتبه بوزارة الخارجية... وهذا ما اقترحته على السفير، ففعل*.

وأضافوا:

"كنا مجهدين، ونعمل ليلاً ونهاراً لانقاذ الوضع في مصر وسوريا، خصوصاً عندما اصبح هذا الوضع في غاية الصعوبة على كلا الجبهتين.. وكنا قد ارسلنا الى الرفيق البكر في 25 تشرين الأول رسالة تضمنت شرحاً لتطورات الوضع.

-"هناك للأسف، في بعض الأوساط العربية، من يتصرف او يتحدث كما لو ان الاتحاد السوفيتي قد احبط اكثر من مرة المقترحات والمشاريع الامريكية في مجلس الأمن، والتي كانت تستهدف اتخاذ قرار بوقف اطلاق النار، في وقت مبكر. وقد اتخذ الاتحاد السوفيتي موقف الرفض عندما كانت الجيوش العربية تتقدم. ولكن ماذا نفعل عندما اصحبت اسرائيل في وضع تستطيع فيه الاستمرار في الهجوم واحتلال أراضى جديدة؟

– يؤسفنا اننا لا نستطيع ان نقول شيئاً بشأن الالحاح علينا بالتدخل لوقف اطلاق النار. وهذا ما لم نذكره في رسالتنا الموجهة الى ياسر عرفات. ومع ذلك كله، فنحن مسرورون لأن اصدقاءنا العرب قد حاربوا هذه المرة بشكل أفضل.

وحول استدعاء كيسنجر الى موسكو:

– ابلغنا كيسنجر بأننا مصممون على دعم العرب. ونحن نعلم ان الولايات المتحدة تمد اسرائيل بالسلاح وغيره. وإذن فان الأمور تتطور نحو المجابهة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة. فهل تجدون في ذلك مصلحة لكم؟

– تملك الامريكان خوف من نتائج الصدام والمواجهة، كما دخل النفط العربي كعنصر اضافي في مخاوفهم.

وهكذا كان الاتفاق على صيغ مشتركة لوقف القتال:

– ولكن الاسرائيليين استمروا بالهجوم، واحتلوا مواقع جديدة، خصوصاً في مصر. وهنا أخذ السادات يطالب بارسال قوات امريكية وسوفيتية لوقف الهجوم الاسرائيلي.

وعن تدابيرهم لمعالجة الموقف، ذكروا ما يلي:

– في ليلة 24/23 اكتوبر وجّهنا الى الرئيس الامريكي نيكسون رسالة شديدة وحازمة حول استمرار اسرائيل بالهجوم. وأكدنا له، بلهجة صارمة، بأنكم إن لم تفعلوا شيئاً لوقف اسرائيل عند حدها، فإن الاتحاد السوفيتي سيجد نفسه مضطراً لأن يتخذ من جانبه كل الاجراءات الضرورية لوضع حد للعدوان.

وجاء رد نيكسون على شكلين:

– فمن جهة قال اننا سنفعل ما يلزم.

– ومن جهة أخرى، قام في اليوم التالي بوضع القوات الامريكية في حالة تأهب قصوى... مصوراً الوضع بأنه شبيه بأزمة الكاريبي (أي الأزمة التي قامت بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة في عام 1962 لدى كشف مواقع الصواريخ السوفيتية على الأراضي الكوبية).

ويستطردون في وصف موقفهم على الصورة التالية:

– في الساعة الخامسة من مساء اليوم الذي قرّرت فيه الولايات المتحدة وضع قواتها في حالة الانذار اجتمعنا وقرّرنا عدم الخضوع للتهديد. كما اتخذنا التدابير والاجراءات الضرورية.

وعلى الضد من بيان نيكسون صدر بيان الحكومة السوفيتية، باسم وكالة (تاس)

وصفنا فيه قرار نيكسون، بوضع قواته في حالة التأهب القصوى، بأنه تدبير أخرق. وفي كلمات قليلة ولكنها مفهومة تماماً، قلنا في هذا البيان:

"بأن الاتحاد السوفيتي ليس هو الجهة التي يمكن ان تخاطب بلغة التهديد"!

كنا نتصرف بهدوء وحزم ويقظة، وقد حظيت تصريحات نيكسون وتدابيره بانتقاد واسع في العالم بما في ذلك انكلترا وفرنسا والمانيا الغربية (شركاء امريكا في حلف الأطلسي).

– المشكلة الملحة التي كانت تواجهنا هي وضع الجيش الثالث المصري المحاصر.

– ارسلنا رسالة الى نيكسون نطالبه فيها ان يضغط على اسرائيل لحملها على السماح لـ 100 سيارة نقل بالعبور الى الجيش الثالث، واسعافه بالماء والطعام والأدوية. وعلى هذا الاساس، امكن تنظيم لقاء بين ممثلين مصريين واسرائيليين على بعد 101 كيلومتر شرقي القاهرة. ورغم انهم لم يتفقوا على شيء، لكن سمح للسيارات أخيراً بالعبور.

– وفي هذه الأثناء وصل فريقنا العسكري الى القاهرة، للمساهمة في وقف اطلاق النار، وتأمين انسحاب القوات الاسرائيلية. وسنسعى من أجل اشراك قوات من بولندة وبلغاريا في مجموعة قوات الطوارئ الدولية.

– اهدافنا حالياً هي:

– انقاذ الجيش الثالث.

– ارجاع القوات الاسرائيلية الى شرقي القناة.

وذلك تمهيداً لتنفيذ قرار الانسحاب الكامل.

– نحن نرى ان موافقة الولايات المتحدة على قرارات مجلس الأمن الأخيرة مهمة. فالقرار 242 واضح بالنسبة لنا ولكم، وجوهره الانسحاب الكامل من الأراضي العربية المحتلة. وبالملموس، يريدون استثناء شرم الشيخ وغزة والقدس والجولان.

– ثمة من يقول ان مصر لا تمانع من وضع شرم الشيخ وغزة تحت اشراف الأمم المتحدة، ولكنهم لا يتحدثون بشيء عن الجولان.

– هناك فكرة لعقد مؤتمر دولي لتنفيذ قرارات مجلس الأمن، لأن الوضع معقد، ومن الخطأ التصور بأن مجرد صدور القرار يعني تنفيذه.

– في تقديرنا ان اسرائيل لا تملك في الوقت الحاضر امكانية جدية لمواصلة الحرب. وإذن فالصراع مستمر، حيث يسعى الامريكان لافهام المصريين بأن لهم الكلمة النافذة. ولكننا نعمل ايضاً، ونأمل انكم ستعملون ايضاً، في الاتجاه ذاته، وقد ارسلنا مؤخراً رسالة الى الرفيق البكر حول ضرورة وجود قوات عراقية في سوريا وتدعيم التضامن الذي تحقق بين البلدين في مجرى العمليات الحربية" **.

(خارج الاجتماع ذكروا: ان صمود سوريا هو أمر هام بالنسبة للعراق، وبعكسه يتعزّز الطوق المضروب حول العراق من الدول الرجعية المجاورة. ومن هنا، بالاضافة الى نقاط اخرى، نجد من الضروري ان يجري تناول قضية وقف اطلاق النار من جانب العراق بأفق اوسع وبالارتباط مع القضايا الأخرى. فالتضامن بين العراق وسوريا سيكون تأثيره بالغاً على مجموع الوضع في المنطقة وعلى القضية المرتبطة بالعدوان الاسرائيلي ونتائجه.

تواصل المذكرة حديث الاجتماع في اللجنة المركزية:

– من المعلومات التي نود اطلاعكم عليها، بحكم الثقة القائمة بين الطرفين، هي ان الاسلحة المضادة للطائرات، التي زودنا بها اصدقاءنا العرب، وأثبتت فعاليتها اثناء المعارك، هي من الاسلحة السرية للغاية، بحيث انها غير موجودة، مثلاً، حتى لدى حلفائنا في الدول الاشتراكية. وقد وصلتنا معلومات بأن الاسرائيليين قد اخذوا نموذجاً منها على الجبهة المصرية، ونحن قلقون جداً.

لذا قام بريجنيف بابلاغ سفيرنا في القاهرة بأن يتوجه فوراً الى السادات ويناشده باختيار بضعة ضباط ممن يثق بهم يتسللون الى مواقع الصواريخ القريبة من الخطوط الاسرائيلية، غربي القناة، ويقومون بتدميرها. والمهم، كما طلبنا، هو تدمير اجهزة الاطلاق، رغم ان الصاروخ هو الآخر جهاز سريّ ومعقد.

وتمضي المذكرة في مخاطبة رئيس الجمهورية قائلة:

– لقد ابلغت بمضمون الرسالة الموجهة اليكم بتاريخ 1 تشرين الثاني من قبل القادة السوفيت والمؤمل ان يلحقوها بنص تحريري فيما بعد...

وقبل ذلك أرجو ان تسمحوا لي بالتأكيد على بعض ما ورد فيها من نقاط:

أولاً: يشير القادة السوفيت في رسالتهم الى انكم تقومون باعلامهم عن تقديراتكم للوضع في الشرق الأوسط، وأن القادة السوفيت (كما جاء في الرسالة) يعيرون اهمية كبيرة لتبادل مثل هذه الآراء والمعلومات... طبقاً لأحكام معاهدة الصداقة والتعاون بينهم.

ثانيا: استعداد الاتحاد السوفيتي للقيام بكل ما من شأنه ان يساعد على استمرار هذه الاتصالات، وأن تكون منظمة ومستمرة.

ثالثا: وفقاً لرغبة الرئيس (كما جاء في الرسالة) سيزور العراق وفد سوفيتي كبير، للقاء مع السيد الرئيس والقادة العراقيين الآخرين، وذلك في الاسبوع الأخير من تشرين الثاني الجاري.

(كان ذلك اثر الدعوة التي بادرت بتوجيهها الى بونوماريوف في هذا اللقاء – بعد ان اعتذر عن القيام بهذه الزيارة بريجنيف او كوسيجن او بودغورني – بسبب مشاغلهم الكثيرة – وربما ذلك تعبيراً عن موقف مقصود).

رابعاً: وردت في الرسالة تأكيدات متكرّرة حول أهمية التضامن الفعال بين العراق وسوريا، وضرورة تنسيق مواقفهما.

خامساً: يواصل الاتحاد السوفيتي (كما جاء في الرسالة) الامداد العاجل بالامكانات العسكرية، لكل من مصر وسوريا بهدف تعزيز صمودهما.

سادساً: ان الولايات المتحدة، رغم موقفها الرسمي في تأييد قرارات مجلس الأمن، قامت وتقوم بنشاطات ومناورات تستهدف عرقلة اتخاذ تدابير فاعلة ضد أعمال اسرائيل العدوانية. وقد لجأت حتى الى أساليب الابتزاز، واعلان حالة التأهب القصوى لقواتها المسلحة، وخاصة تلك المرابطة في اوربا.

سابعاً: يقوم الاتحاد السوفياتي باتصالات دائمة مع قادة مصر وسوريا والمقاومة الفلسطينية، ويتصرف بالاتفاق معهم على التدابير الملموسة الخاصة بالتسوية السياسية. وأن الاتحاد السوفيتي، على حد الرسالة التي ستوجه اليكم –

يعرفون بأن الرفاق العراقيين يعتبرون ضمان الحقوق القومية المشروعة لشعب فلسطين العربي مسألة هامة جداً. كما يأمل السوفيت بأن القادة العراقيين والرئيس شخصياً، الذين قدموا مساعدة كبيرة وفعالة لسوريا ومصر في مجرى العمليات العسكرية الأخيرة، سيؤيدون المساعي الرامية للتوصل الى تسوية سياسية ملائمة وعادلة.

– اما فيما يتعلق بالاتحاد السوفيتي، فهو كما جاء في الرسالة – يبدي اليقظة الضرورية ازاء دسائس اسرائيل وحماتها في الولايات المتحدة، ويثابر على انتهاج سياسة مبدئية لحل أزمة الشرق الأوسط وفقاً لمصالح الدول والشعوب العربية.

ويبدى القادة السوفيت اخيراً استعدادهم للنظر في كل ما يرتئيه الرئيس من آراء وأفكار تتعلق بالأمور والقضايا المثارة في هذه الرسالة.

وتختتم المذكرة بالاشارة الى رئيس الجمهورية "بأن كل هذه الأمور تتطلب تداولاً عاجلاً، ومشاورات منظمة ودائمة لغرض بلوغ الاتفاق والتفاهم".

علمت اثناء وجودي في موسكو، من الرفاق السوفيت ببعض الوقائع الأخرى، ومنها:

– انهم حثوا القادة المصريين، بعد عبور القناة، على تطوير هجومهم نحو الشرق، بعد ان قاموا برصد وتصوير المواقع الاسرائيلية، والحصول على معلومات تفيد بأن اسرائيل كانت في حالة ارتباك.

– وأنهم على اثر الهزائم التي تعرضت لها اسرائيل في الايام الأولى من الحرب، والايعاز من رئيس الوزراء بنقل القنابل النووية من مخازنها الى ميادين القتال، قام الاتحاد السوفيتي بتوجيه احدى السفن الحاملة للصواريخ النووية باتجاه السواحل المصرية، وكانت هذه الصواريخ مكشوفة للتصوير الجوي المقصود، وكان الهدف من هذا التدبير، هو توجيه انذار معلن لاسرائيل والولايات المتحدة بهدف شل يد اسرائيل عن ارتكاب جريمة استخدام السلاح النووي.

– كما اخبرني بونوماريوف، بأن خسائر اسرائيل في هذه الحرب، كما تشير بعض المصادر، هي 4 – 3 آلاف قتيل، و 7 – 6 آلاف جريح. وأن الهجوم لاستعادة جبل الشيخ كلف اسرائيل نحو 500 قتيل. اما الخسائر في المعدات فغير معروفة بعد، وكذلك الاسرى والمفقودين.

* * *

تسنى لي بعد حرب اكتوبر ان اقوم بزيارة ميدانية لمدينة السويس، وخط بارليف، والتجوال بالسيارة على العديد من المواقع التي استولى عليها الجيش المصري، الى جانب التعرف على موقع "الثغرة" وامتداداتها الخطيرة والواسعة الى الشمال حتى مدينة الاسماعيلية، والى الجنوب حتى قرن البحر الأحمر والى الغرب باتجاه القاهرة نحو 39 كيلومتراً، حيث المسافة بين مدينة السويس والقاهرة هي 140 كيلومتراً على طريق بري معبد. ومن هنا التسمية المعروفة للموقع الذي بلغه الاسرائيليون ودارت فيه المباحثات هو الكيلو 101.

وقد رافقني في هذه الجولة الأخ نوري عبدالرزاق ومقدم في الجيش المصري، كان من بين المحاربين على هذه الجبهة، ومن منتسبي الجيش الثالث الذي تعرض للحصار.

كانت مدينة السويس مدمرة، وقد رحل عنها معظم سكانها. وقد شاهدت في الجهة الثانية من القناة المقابلة للمدينة مواقع ستة مدافع ثقيلة من نوع هاوتزر محصنة ومخفاة عن الأنظار، وفي مواقع متقاربة، وقد دمرها المصريون اثناء القتال واحتلوا مواقعها. ولفت نظري الحجم الهائل لهذه المدافع، وزنتها الثقيلة، وطريقة تركيزها في الأرض، والمصاعد المركبة في جانب كل منها، لانزال القنابل التي يتجاوز وزنها قدرة الانسان على حملها.

كانت السويس طيلة سنوات هدفاً لهذه المدافع الستة، التي كان السكان يحسبونها غابة من المدافع، وذلك بسبّب قدرتها التدميرية الهائلة، ولم يستطع المصريون قبل الوصول الى مواقعها في الايام الأولى من الحرب، ان يصيبوها بمدافعهم الثقيلة عبر القناة.

كان الشعور الذي تكون لديّ اثر تجوالي في المواقع التي احتلها المصريون في سيناء، السد الترابي الهائل، والجسور العائمة، التي ركبت فوق القناة، وأشلاء الدبابات الاسرائيلية، هو شعور الاعجاب ببسالة المقاتلين المصريين، الذين تأكدت بالاستقصاء والمتابعة، انه لم تسجل ولا حادثة تراجع واحدة، ابان الهجوم، ولا حادثة اندحار او جبن من جانب اي من المقاتلين جنوداً او ضباطاً.

كانوا مفعمين بالعزيمة والوطنية والبطولة، وبالإيمان بعدالة القضية التي يقاتلون من أجلها. وقد سجلوا آيات من البسالة والتضحية، هي أشبه بالاساطير، وخصوصاً فيما يتعلق بعبور القناة، ونصب الجسور، واقتحام الحاجز الترابي وخط بارليف المحصن، ومواقع المدفعية المنتشرة على طول الضفة الشرقية من القناة.

كما استثارت اعجابي الخطط العسكرية وأسلوب التخفي والمفاجأة، واختيار مواقع الانطلاق واقامة السدود الترابية على الجانب المصري، وعلى ارتفاعات، تكفي لاخفاء تحركات تلك القوات الضخمة التي قامت بعبور القناة.

شرح لي الضابط المصري المرافق امتدادات الأرض الى الشرق، مؤكداً على الامكانيات التي كانت متاحة في الأيام الأولى للتقدم السريع وسط سيناء. كما شرح لي خطة احتلال كل موقع مرّرنا به، وأطلعني على الطريقة البارعة في بنائها ووسائل تحصينها من قبل الاسرائيليين. وقد لفت نظري من وسائل التحصين تغطية المواقع باكداس من اكياس الحجارة، التي اخبرني الضابط المرافق، بأنها طريقة مبتكرة لامتصاص الضغط التي تولده القنابل اثناء انفجارها فوق هذه المواقع او بالقرب منها.

وروى لي قصة محاصرة الجيش الثالث، وثبات المقاتلين المصريين واستعدادهم للموت في سبيل وطنهم، قال:

تطوع جميع الجنود والضباط في الجيش الثالث، عند انقطاع الطعام، بأن يقتسم كل ثلاثة ما هو مخصص لأثنين. ولما بدأ الطعام ينفد اتفقوا على أن يكتفي كل ثلاثة بما هو مخصص لفرد واحد. وكانوا رغم ذلك في حالة حماس منقطع النظير يهللون ويكبرون ليلاً ونهاراً، ويتوعدون العدو بالقتال والعقاب.

وأضاف:

بلغت الأزمة ذروتها، بسبب شحة الماء، ولم يبق لنا خيار غير التوجه الى الجنوب نحو (عيون موسى)، التي تبعد عن مواقعنا

نحو ثلاثين كيلومتراً. وكانت بيد العدو. وللاستيلاء على عيون الماء هذه تطوع الجميع. فانتقينا منهم بضعة آلاف وتوجهنا للهجوم والاستيلاء عليها.

يقول:

كان من نصيبي ان اقود احدى هذه الكتائب. وكانت ملحمة دموية، فقدنا فيها اكثر من 800 شهيد. ولكننا نجحنا في تحقيق هدفنا ودحر العدو، وغامرنا بفقد هذا العدد الكبير من المقاتلين من أجل توفير الماء للجيش الثالث كلّه.

وصف لي هذه المعركة ووقائعها المثيرة التي كانت اشبه باسطورة. كما اكد لي على حماسة المقاتلين بقوله: لا تسمع إلا كلمة "اللّه اكبر"، يردّدها الآلاف من الجنود. ولم يكن هناك من بدا متردداً او عابئاً بالموت.

اقترح عليّ التوجه بالسيارة لزيارة هذه المنطقة. فزرناها، وعاد يصف لي على الأرض وقائع هذه المعركة البطولية.

كان هذا الضابط نموذجاً للآلاف وعشرات الآلاف من أمثاله، من المقاتلين المصريين، وقد استثار اعجابي ببراعته العسكرية، ولطفه وتواضعه. فكان لا ينسب لنفسه مأثرة ما، وانما يتحدث عن غيره. ولم أعلم بأنه كان قائداً او مشاركاً في الهجوم على (عيون موسى) ومن قبلها على المواقع الأخرى، إلا بعد عودتنا من هذه الرحلة وتساؤلي منه عن دوره ومكانه في هذه المعارك. فكان يوجز ويجيب على استحياء ويركز على دور وبطولة الجنود.

اقنعتني هذه الجولة، بقدرة المقاتل العربي على اجتراح المعجزات، عندما يكون مؤمناً بوطنه واخلاص قيادته السياسية. وبالاحباط والتداعي النفسي والقتالي، عندما تكون هذه القيادة السياسية من نمط خادع متردّد او مساوم..

كما كان انور السادات. وهذا ما لمسته من حديث الناس في السويس والقاهرة، ومن مشاعر الخيبة والمرارة التي كانت تغشي نفس مرافقي الضابط المصري الشجاع.

كان مقاتلاً وسياسياً، لأنه ونحن في طريق العودة، كان يعبر عن أساه وأسى الشعب المصري.

قال لي هامساً وبكلمات متحفظة، ولكنها بليغة الدلالة:

" كان انتصارنا العسكري أكيداً، ولكن ضيّعته علينا السياسة"!

*** طرأ تحسن ملموس لدى وزير الخارجية الراحل مرتضى سعيد عبدالباقي الحديثي بعد تعيينه سفيراً في موسكو. برغم ان الرفاق السوفيت لم يكونوا يحبذون حضوره معي في المحادثات الرسمية، رغم طلبه ذلك.. إلا ان بعضهم قد اكد لي بعد اغتياله، بأن له دوراً هاماً في تطوير العلاقات العراقية —السوفيتية.. معربين عن الأسف لفقده.**

**** قبل عودتي من موسكو، اتخذت الحكومة العراقية قراراً بسحب القوات العراقية من سوريا على الفور، خشية تعرضها الى ضربة اسرائيلية، كما علمت ان أسباباً أخرى كانت وراء هذا الموقف، ومنها ضرورة المحافظة على "أمن النظام"!؟**

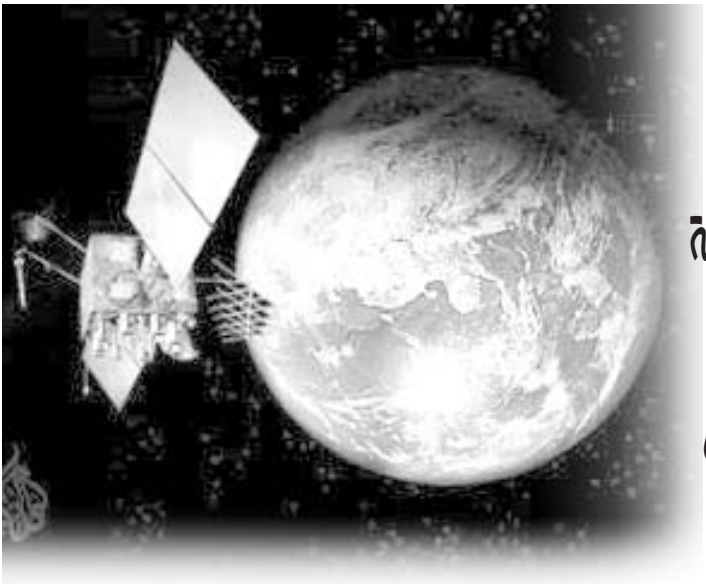

الفضائيات العربية وأثرها في تزييف الوعي الاجتماعي

د. محمـــود شمـــال حســـن

دكتور محمود شمال حسن أستاذ في كلية الآداب - الجامعة المستنصرية. نشر العديد من الدراسات في الدوريات العراقية والعربية، كما له مجموعة من المؤلفات من بينها: سايكلوجية الفرد في المجتمع (القاهرة 2001)، الصورة والاقناع (القاهرة 2006)، الشباب ومشكلة الاغتراب (بغداد 2008)، سايكلوجية خطاب الفضائيات (بغداد 2009).

المقدمة

لقد كان من النتائج المترتبة على الثورة الاتصالية التي شهدها عالمنا المعاصر، انتشار الفضائيات ، فكل القنوات التلفزيونية الوافدة الينا بتوجهات قيمية وإيديولوجية مختلفة . ولقد اثارت هذه الفضائيات منذ ظهورها في البلاد العربية وحتى اللحظة الراهنة ، جدلا واسعا بين الاوساط العلمية ، الى جانب الجدل الدائر بين اوساط عامة الناس . فلقد انقسم هؤلاء، سواء من الاوساط العلمية او من عامة الناس الى فريقين اثنين . فريق مؤيد، يرى في الفضائيات وسيلة اتصالية تساهم مع غيرها من القنوات الجمعية في اشاعة المعرفة عن العالم المحيط بنا، وانها تؤدي وظيفة الترفية والتسلية ، كما تؤدي وظيفة الاخبار ، بمعنى انها تطلعنا على العالم برمته وتجعله في

لحظات معدودة امام انظارنا. كذلك لا تكمن وظيفتها كما يزعم المؤيدون على نقل اخبار العالم السياسية فحسب، وانما تنقل الينا كل جديد عن هذا العالم ؛ لكي نكون على اتصال بما يجري فيه من احداث وتطورات. وفريق معارض يرى في الفضائيات ، انها وسيلة اتصالية تستهدف تزييف وعي الافراد، ومن ثم تصرف انتباههم الى قضايا اقل اهمية.

واية ذلك، فان هذا الجدل، لما يزل بعد، دائراً بين الاوساط العلمية منها والشعبية، واننا في هذه الدراسة، نتبنى الرأي القائل، ان الفضائيات المنتشرة في البلاد العربية، وسيلة اتصال تخدم بالدرجة الاساس، النظام المهمين على السياسة وانها غدت مزيفة لوعي الافراد، بما يتناسب وتوجهاته الإيديولوجية.

نقول، بالرغم من الوظائف المتعددة للفضائيات التي تؤديها في حياتنا اليومية، فانها ولاريب، متهمة بتزييف الوعي الاجتماعي، وبذلك اصبحت في دائرة الاتهام ، وهذا معناه، ان الرسائل الصادرة من هذه الفضائيات، تستهدف تضليل الناس ازاء قضايا معينة، وفي الوقت نفسه، تحاول هذه الفضائيات تشكيل وعيهم، طبقا لايديولوجية النظام السياسي. وان الحيادية التي يؤكدها المسؤولون عن خطابها، انما هي محض وهم. وعلى ذلك، نقول، ان الفضائيات التي تنتشر في البلاد العربية، متهمة من جانب بعض المراقبين، بالسعي الحثيث لصرف انتباه الناس عن قضايا معينة وتركيزها باتجاه قضايا اخرى اقل اهمية، او لنقل تركيز الانتباه باتجاه قضايا تهم الخطاب الرسمي بالدرجة الاساس، ولاجل ان ندعم الرأي الذي استندت اليه هذه الدراسة، نجد من الضروري، الاقتصار على مناقشة الفقرات الاتية:

- مفهوم الوعي الاجتماعي.
- الصورة التلفزيونية واثرها في تشكيل الوعي الاجتماعي.
- اساليب تزييف الوعي الاجتماعي في الفضائيات العربية.
- الاثار النفسية المترتبة على تزييف الوعي الاجتماعي في الفضائيات العربية.

مفهوم الوعي الاجتماعي

بادئ ذي بدء، نقول انه ليس من السهولة بمكان، وضع تعريف محدد لمصلح الوعي الاجتماعي (social conscious-ness) ومرد ذلك، ان هذا المصطلح لما يزل بعد، يثير الخلاف بين الباحثين في العلوم الانسانية على وجه التحديد، ولم يستقر على تسمية محددة، بدليل ان علم النفس يجرده من الصفة الاجتماعية ويفضل تسميته المفردة (الوعي) فحسب، بينما يشدد علم الاجتماع على ضرورة ربطة بالبيئة الاجتماعية، ومن هنا، صار يطلق عليه (الوعي الاجتماعي).

ان محاولة فهم هذا المصطلح، يقتضي منا تفكيكه الى مقطعين اثنين هما: الوعي والوعي الاجتماعي، ليتسنى لنا بعد ذلك فهمه ومن ثم تعريفه.

من الناحية النفسية، يعرف الوعي، انه عملية (احتفاظ الفرد بما مر به من خبرات وبما حصله من معلومات وكسبه من عادات ومهارات) (1).

هذا التعريف يحصر الوعي بوظائف معرفية فحسب، تلك الوظائف التي تنحصر في الاحتفاظ بالخبرات والمعلومات واكتساب

العادات والمهارات. وهو لايحدد حقيقة ماهيته او لنقل على نحو اخر، ان هذا التعريف لا يجيب عن السؤال، ما الوعي؟ ويعرف الوعي ايضا بـ (القدرة على الحصول على الخبرة من العالم بثرائه)(2).

اذا نحن امعنا النظر في هذا التعريف، وجدنا انه هو الاخر، لم يحدد ما (ماهية) الوعي، واكتفى كسابقة، بتحديد وظيفته المعرفية التي ترتكز على الحصول على الخبرة من عالم غني بالتنبيهات. وهناك تعريف يحدد ماهية الوعي، كونه (انتباه انتقائي لمدركات وافكار ومشاعر متواصلة) (3).

نستطيع القول، ان هذا التعريف تقدم خطوة باتجاه تحديد ماهمية الوعي، اذ لم يذكر وظائفه المعرفية، وانما ركز على ما هيته، كونه انتباه، وهذا الانتباه هو انتقائي، أي الانتباه الى تنبيهات معينة دون غيرها من التنبيهات التي تعج بها البيئة.

كذلك، فان هذا الانتباه، ما ورد في التعريف، ينحصر في العمليات التي تشتمل على المدركات والافكار والمشاعر التي تتكرر على الدوام. وقد يعرف الوعي على انه (الدراية باي شيء) (4)، بحيث يكون الفرد على علم بما يدور داخل ذاته او خارجها من افكار ومشاعر وخيالات وذكريات ومدركات(5).

واضح، ان هذا التعريف يحدد الوعي بالدراية والمعرفة لما يجري داخل الفرد وخارجه من عمليات، تلك الدراية التي تجعل الفرد واعيا بما يحدث حوله. ويعرف الوعي، على انه (حالة المعرفة والانتباه)(6). او (وعي الافعال والنشاطات والاستجابات) (7). او (معرفة الذات والانتباه اليها)(8).

ان مما يجب الاشارة اليه في هذا الصدد، ان هذه التعريفات لا تخرج عن سياق التعريفات الانفة الذكر، تلك التعريفات التي تشير الى ان الوعي هو المعرفة بما يجري داخل الفرد من عمليات او المعرفة بالاستجابات التي تصدر عنه. من ذلك نخلص الى القول، ان الوعي هو عملية معرفية، تستهدف بالدرجة الاساس، معرفة العالم الذي يحيط بالفرد والالمام بشؤونه ؛ بهدف اضفاء معنى مناسبا عليه.

اذا كان هذا المقصود بالوعي، فما المقصود بالوعي الاجتماعي؟ وهل ثمة اختلافات بينه وبين الوعي الاجتماعي؟ نقصد بالوعي الاجتماعي (مجموعة المفاهيم والتصورات والاراء والمعتقدات الشائعة لدى الافراد في بيئة اجتماعية معينة، التي تظهر في البداية بصورة واضحة لدى مجموعة منهم، ثم يتبناها الاخرون لاقتناعهم بانها تعبر عن موقفهم)(9).

ان الوعي الاجتماعي، طبقا لهذا التعريف، يتحدد بمجموعة من الاراء والتصورات التي تنتشر في بادئ الامر بين مجموعة من الافراد في بيئة اجتماعية معينة، ثم سرعان ما تنتشر هذه الاراء والتصورات بين افراد اخرين في البيئة نفسها، اعتقادا منهم، انها تعبر عن وجهات نظرهم ازاء قضايا كثيرة.

ويعرف الوعي الاجتماعي من وجهة نظر اخرى، انه ذلك المفهوم الذي نعني به (محصلة معرفة والمام كل جماعة بالقضايا الاجتماعية – الاقتصادية والسياسية والثقافية على المستويين المحلي والوطني) (10).

اذا نحن امعنا النظر في هذا التعريف، وجدنا ان الوعي الاجتماعي هو عملية المام او معرفة بالقضايا السياسية والاجتماعية

والاقتصادية والثقافية السائدة لدى جماعة معينة.

واذا انتقلنا الى تعريف آخر، نجد انه مفهوم ينطوي على (ادراك الناس وتصوراتهم للعالم المحيط بهم، بما يشتمل عليه من علاقات بالطبيعة وبالانسان وبالافكار)(11). يفهم من هذا التعريف، ان الوعي الاجتماعي، عبارة عن تصورات يكونها الافراد عن العالم الذي يعيشون فيه، ذلك العالم الذي يحتوي على اصناف من العلاقات، تلك العلاقات التي تكون انسانية، كما هو الحال في علاقات الناس بعضهم ببعض، واصناف اخرى غير انسانية، وهذه تنقسم الى نوعين فاما النوع الاول، فهو العلاقة الحادثة مع الطبيعة كما هو الحال في العمليات الجارية لتكييف هذه الطبيعة لاهداف انسانية. واما النوع الثاني، فهو العلاقة الحادثة مع الافكار، كما هو الحال في تبني الآراء الفلسفية او النظرية ومحاولة توظيفها في المجالات الانسانية.

وبذلك يكون هذا التعريف، قد حدد على وجه الدقة ماهية الوعي الاجتماعي. وهناك تعريفات اخرى للوعي الاجتماعي لاتخرج عن سياق التعريفات التي مر ذكرها واستنادا الى التعريفات التي اشرنا اليها، يمكن القول، ان الوعي الاجتماعي عبارة عن مجموعة من الافكار اوالتصورات التي يكونها الافراد، عن بيئتهم الاجتماعية حصرا، بما يجري فيها من احداث اجتماعية وعلاقات انسانية، تلك الافكار او التصورات التي تفضي بهم الى اتخاذ موقف ازاء قضايا او مشكلات معينة. واما التزييف في الوعي الاجتماعي، فيراد به هنا، عملية تشويه مدركات الافراد او تضليلهم بمعلومات خاطئة، يكون القصد منها، صرف انتباههم عن قضايا مهمة الى اخرى اقل اهمية او انها غير ذات موضوع.

الصورة التلفزيونية وأثرها في تشكيل الوعي الاجتماعي

تشير الوقائع الميدانية، ان الصورة التلفزيونية، لها اثر بالغ في تشكيل وعي الفرد ازاء قضايا مختلفة، ولما كانت الصورة التلفزيونية لها اثر بالغ في تشكيل وعي الفرد. فلقد صارت منافساً قويا للقوى الثقافية والاجتماعية المؤثرة في تشكيل وعيه؛ نظراً لما تتمتع به الصورة التلفزيونية من جاذبية وسعة انتشار. فقد صارت ندا للمدرسة في عملية التنشئة، حتى لقد وصفت بالمنهج الاول، بينما وصفت المدرسة بالمنهج الثاني (12). وهذا يعني: ان المدرسة، قد ضعف دورها في التأثير في سلوك ابنائها لتحل بذلك الصورة التلفزيونية في المقام الاول في عملية التاثير، والسبب يعود الى ان التلفزيون، صار يلازم الفرد في كل مكان، اذ يلازمه في غرفة النوم، وفي غرفة الجلوس وفي اماكن الاستراحة. ولما كانت الصورة التلفزيونية، لها من التأثير في سلوك الافراد ما يفوق قنوات التنشئة الاجتماعية الاخرى، فمن الممكن ان تكون فاعلة في عملية تشكيل وعي الافراد، بما يتناسب والمضمون الوارد فيها، فعلى سبيل المثال، ان المضمون الوارد في الصورة، قد يساهم في حث الافراد على الانجاز، او معوقاً له؛ وذلك بتاكيد نماذج بشرية تتسم بالانجاز والنشاط والحيوية والدأب المستمر لتحقيق اهدافها الحياتية باساليب مشروعة.

ومن الطبيعي ان عرض هذه النماذج على الدوام طيلة مدة البث، سيؤدي بالمشاهدين الى تقليدها. بيد ان الصورة

التلفزيونية قد تكون معوقا للانجاز، في حال عرض نماذج بشرية تتسم بالاستعراض والانحراف والتحايل على الغير، مما يترتب على ذلك بإشاعة مناخ مقاوم للتغيير، وفي الوقت نفسه معارض للانجاز.

اذا نحن عدنا الى البرامج في الفضائيات العربية، وجدنا ان اغلبها يحاول اشاعة مثل هذا المناخ، بدليل ان بعض الساعات التلفزيونية تصرف، على الاعلانات التي تروج لهذه السلعة او تلك او لهذه الخدمة او تلك، وعادة ما يكون الترويج لسلع تخلو من الجدوى الاقتصادية وتدخل في باب الجدوى الترفيهية، كالاعلان عن مطاعم فاخرة او سيارات فارهة او فنادق فخمة او غير ذلك. ان الاعلان عن مثل هذه السلع او الخدمات سيستثير لدى بعض الافراد، ولاسيما اولئك الذين يعانون الحرمان والفقر، حاجات غير مشبعة، وربما ينتهي الامر بهم الى المخالفة القانونية في محاولة لاشباع بعض حاجاتهم. ولعل الامر نفسه ينطبق على البرامج التلفزيونية من افلام ومسلسلات، فهذه البرامج قد اخذت تعرض نماذج من البشر، تؤكد الاستعراض، أي ان غايتها استعراض ما لديها من ممتلكات ليس الا. والاخطر من ذلك، انها اخذت تعرض بعض الافراد الذين كانوا يعيشون على هامش الحياة الاجتماعية، وفي لحظة ما، قد اصبحوا في عداد الاثرياء او من متخذي القرار، عندما استعملوا اساليب الحيلة والخديعة مع الاخرين، وكأن بهذه البرامج توحي للمشاهدين:

ان النجاح في الحياة يمر عبر هذه الاساليب. مما يعني للكثير من الأفراد، ولا سيما الشباب منهم الذين يواصلون الدراسة الى هجرها لعدم جدواها(13).

ان كل ما ذكرناه يدل دلالة قاطعة، على ان برامج الفضائيات العربية، غدت مزيفة لوعي الافراد، والدليل على ذلك انها اخذت تتناول خطاب ينسجم مع إيديولوجية المرسل وتغييب واضح للخطاب النقدي. والشواهد الواقعية تشير صراحة، ان الافراد الذين اكتسبوا انماطا من السلوك غير المقبولة اجتماعيا، انما اكتسبت نتيجة المشاهدة للخطاب المزيف.

أساليب تزييف الوعي الاجتماعي في الفضائيات العربية

ان المتتبع لمضمون البرامج الواردة في الفضائيات العربية، يجد انها تنطوي على تضليل او تزييف لوعي الافراد، وهناك اساليب متعددة اتبعت في عملية التزييف، وهنا نشير الى ابرز هذه الاساليب:

1- ان الخطاب التلفزيوني وجد في الجسد الأنثوي اسلوبا فعالا في جذب انتباه الافراد الى رسائله الاتصالية، لما له من اهمية في (استثارة) الحاجات غير المشبعة، ولا سيما الحاجة الجنسية. ان مما يجب الاشارة اليه في هذا الصدد، ان جسد المرأة يظل على الدوام رسالة اتصالية تنطوي على السحر والفتنة والجاذبية ،لذا غدا اسلوبا فعالا في الاعلانات والبرامج التلفزيونية الاخرى، التي تستهدف جذب الانتباه الى الرسائل التي يراد ايصالها الى الجمهور، وفي الوقت نفسه إحداث الأثر النفسي المطلوب، الا وهو تشكيل السلوك بطريقة تتلاءم مع توجهات المرسل في هذا الصدد. وليس من الغريب، ان نجد الشركات الاعلانية الى جانب المؤسسات

الاجتماعية التي تروم ارسال رسالة اتصالية الى الجمهور، تعمد أولا الى التركيز في برامجها على جسد المرأة، ذلك الجسد الذي وجدت فيه عاملا ييسر عملية التعرض الى الرسالة الاتصالية، ولا يعمد في حقيقة الامر الى التشويش على تلك الرسالة ، وهذا ان دل على شيء، انما يدل على ان جسد المرأة يعد احد الاساليب الفعالة في عملية تزييف وعي الافراد ازاء بعض القضايا الاجتماعية.

2- ان التلفزيون اخذ يشرط وعي الافراد، وهذا الاشراط افضى الى تحديد الخيارات او البدائل لدى الفرد المشاهد، بمعنى اخر: ان التلفزيون لم يفسح مجالا للفرد ان يحدد بنفسه خياراته المطلوبة، بل ان المشرطين Conditioners هم الذين يحددون له الخيارات بالرغم من المزاعم التي يطلقها هؤلاء (المشرطون)، من ان الفرد حر في اختيار البدائل التي تقرر مصيره. بيد ان هذه المزاعم هي في واقع الامر محض وهم، وليس هناك ما يسندها ، لان وسائل الاتصال الجمعية، ومنها التلفزيون على سبيل المثال، تغرق الفرد المشاهد في اليوم الواحد بعديد من الصور والبرامج والرسائل التي اريد منها ادماجه في عمليات الاشراط الحادثة في المجتمع من جانب، واستثارة بعض حاجاته المؤجلة من جانب آخر، وكأن بالتلفزيون هنا يدفع بالفرد الى اشباع تلك الحاجات المؤجلة بشكل آني، وذلك هو ديدن المجتمع الاستهلاكي(14).

واذن، (يستحيل تقنيا ان يكون الانسان سيد نفسه وان يختار اسلوب حياته) (15). على حد تعبير ماركوز.

اذ نحن عدنا الى عبارة ماركوز، نجد انها تنطوي على جملة امور منها:

أ- ان تقدم التقانة، ولاسيما في ميدان الاتصال قد سلبت الفرد حريته في انتقاء اشيائه اذ اخذ ينتقي اشياءه طبقا لاذواق الغير (المشرطون). فالمشرطون هم الذين يريدون منه ان يشتري السلعة المعنية وبالمواصفات التي حددت لها، وبذلك فهو لا يمتلك خيارا سوى شرائها.

ب- ولما كان الفرد لا يمتلك الحرية في انتقاء اشيائه، فهو اذن ليس سيدا على نفسه، ولو كان سيدا على نفسه كما يزعم هؤلاء؛ لا نتقى اشياءه بنفسه بموجب حاجاته غير المشبعة من السلع.

ج - ولانه لا ينتق اشياءه بنفسه، فهو اذن لايحدد لنفسه الاسلوب المناسب لحياته. ووفقاً لهذا المنطق، تغدو مزاعم هؤلاء – المشرطون – ان الفرد حر في تقرير خياراته محض وهم(16) .

3- ان عمليات الاشراط الحادثة بفعل التلفزيون، تستهدف فيما تستهدف، خدمة المتلاعبين بالعقول (Mind Managers) او على نحو اصح خدمة المشرطين، أي خدمة المرسل فحسب، وهو يعني جملة ان الخطاب التلفزيوني يكرس ايديولوجية المهيمن ويدعو الى تقبل خطابه.

4- ومما يترتب على عمليات الاشراط هذه، ان الخطاب التلفزيوني اخذ يعتمد على وجهة نظر واحدة واهمل وجهات النظر الاخرى، أي انه يعتمد على وجهة النظر التي تتفق مع ايديولوجية المهيمن حصراً، وتغييب وجهات النظر المخالفة.

5- ولعل الاندماج في المجتمع، هو جل ما تستهدفه عمليات الاشراط (17). اذا نحن عدنا الى عمليات الاشراط الحادثة بفعل الخطاب التلفزيوني في كثير من الاقطار

العربية، فان الهدف منه، هو جعل الفرد منجذبا الى مجتمعه، راضيا عن نمط الحياة فيه، ومتقبلاً للإيديولوجية السائدة، ولعل ذلك يعود، الى ان النظم السياسية تحاول ان تحافظ على ما استقر من اوضاع ونظم او ما كان مطلوبا له ان يستقر، وليس المحافظة على تماسك المجتمع، حتى في حال تعرض الافراد الى الشعور بالضياع والاغتراب. واذن، فان استقرار الاوضاع، ولاسيما السياسية منها، وهو جل ما تستهدفه عمليات الاشراط.

6- لقد اشتملت الرسائل الاتصالية الصادرة من التلفزيون على تناقض في تناول الانساق القيمية Value Systems فتارة تدعو الى تبني نموذج الانسان المتدين، وتارة اخرى تغمر رسائلها المشاهد بفيض من نماذج الانسان المنحرف ونموذج الانسان المغترب ونموذج الانسان الاستعراضي ونموذج الانسان المقهور ونموذج انسان السوق، وكل تلك النماذج من البشر، التي تطرح عبر تلك الرسائل، قد تؤدي الى عدم تثبيت النسق القيمي المطلوب، ذلك النسق الذي يشيع بين الافراد الوحدة والتماسك والتوجه نحو الهدف المشترك .

7- ومن الاساليب التي يلجأ اليها الخطاب التلفزيوني في تزييف الوعي، اقناع الافراد بالرضا عن احوالهم الاقتصادية السيئة، وذلك بتصوير قضية الغنى والفقر انها حالة طبيعية ولا يعني انها ناشئة عن قصور السياسات الحكومية، وبذلك فان الخطاب التلفزيوني، يصور قضية العسر الاقتصادي الذي تعاني منه الاغلبية من المجتمع، انها مرتبطة بحجم الموارد، وليس لها اية علاقة بعدالة التوزيع، وكأن الخطاب التلفزيوني يحاول ان يبرئ السياسات الحكومية من قضية التصرف اللاعقلاني بالموارد، فضلا عن اضفاء فلسفة جبرية في عملية توزيع المنافع الاقتصادية. وبذلك اصبح الخطاب التلفزيوني مضللا او مزيفا لوعي الافراد ازاء مشكلات اليسر والعسر.

نقول، ان الخطاب التلفزيوني، اخذ يصور قضية الغنى والفقر، على انها خارجه عن ارادة السياسات الحكومية، ملقيا بتبعاتها على الظروف الدولية، وعلى اعداء الإنسانية.

8- ان الدين بوصفه اسلوبا فاعلا في الاقناع، قد وظف في عمليات التزييف او التضليل التي اخذ يركز عليها الخطاب التلفزيوني، وذلك باقناع الافراد بالرضا عن ظروفهم الحياتية الراهنة وتصوير عيش الكفاف والفقر على انه امتحان سماوي واختبار صبر الصابرين.

9- لقد اخذ الخطاب التلفزيوني يصور الواقع السياسي الراهن على انه يوتوبيا او مدينة فاضلة، وذلك بتكرار خطاب ينطوي على حرية الفرد في التعبير عن آرائه ومعتقداته وله الحق في المشاركة في صنع القرار السياسي، الى جانب حقه في مساءلة النظام الاجتماعي في حال ارتكابه للاخطاء. وبطبيعة الحال، ان وصف الخطاب التلفزيوني للواقع السياسي بطريقة وهمية او مضللة، سيفضي الى سخرية الافراد وتهكمهم، مما يعني ان هؤلاء سيطلقون المزيد من الصور النمطية السلبية على النظام الاجتماعي عند تعرضهم لمثل هذا الخطاب، فضلا عن العزوف عن سماعه.

10- اذا نحن اجرينا مسحا للبرامج التلفزيونية الموجهة نحو النساء، نجد انها

تولي اهتماما بالنخبة منهن، أي باخبار تلك النساء البارزات او اللواتي ذاعت شهرتهن في ميادين الفن والادب والعلوم (18). لذا اخذ الخطاب التلفزيوني، يروج لهن اعلانات في محاولة لاشباع حاجاتهن من السلع الاستهلاكية، فضلا عن اشباع الحاجة الى الاستعراض في المجتمع. اما الغالبية العظمى منهن، فلا تحظ الا بحصة قليلة من هذه البرامج، تلك الحصة التي لا تتناسب مع نسبتهن في المجتمع. وهذا ان دل على شيء، انما يدل على ان الخطاب التلفزيوني يكرس مصالح الفئة المسيطرة حصرا، ويعبر عن ايديولوجيتها. والمتتبع لهذه البرامج، يجد انها لا تعبر عن حاجات المرأة العربية من السلع والمواد الاستهلاكية، ولعل ذلك يعود، الى ان هذه البرامج، تستند الى مرجعية اجنبية، بمعنى انها تحاكي او تقلد البرامج الغربية على وجه التحديد، في طريقة انتاج الخطاب التلفزيوني الموجه للنخبة من النساء. وحقيقة الامر، ان اشاعة خطاب يعبر عن مشكلات النخبة من النساء ويتجاهل مشكلات الأغلبية منهن، انما يراد منه، النظر الى النساء على انهن فئة واحدة ولا ينقسمن الى فئات متعددة، وهو تزييف لحقيقة الامر.

ووفقا لهذا المنطق، غدا الخطاب التلفزيوني، وسيلة للتعبير عن مشكلاتهن في الحياة، سواء في ميدان العمل او في ميدان الحياة الزوجية او في ميدان الشهرة، او في ميدان التفاعل الاجتماعي.

11- ولعل الامر نفسه ينطبق على الاطفال، اذ لا يحظ هؤلاء، ولاسيما اولئك الذين ينتمون الى المستوى الاجتماعي – الاقتصادي المتدني، الا بنصيب قليل من البرامج التلفزيونية التي تتناول مشكلاتهم النفسية والاجتماعية، وكذلك اوضاعهم الاقتصادية. في حين يحظى اقرانهم من ذوي المستوى الاجتماعي – الاقتصادي الراقي بنصيب وافر منه؛ ولعل ذلك يعود الى الرقابة على مضمون الخطاب التلفزيوني، اذ ان تناول موضوعات تتعلق بالاطفال من ذوي المستوى الاجتماعي – الاقتصادي المتدني، يعني جملة، تناول موضوعات تخص المسألة الاجتماعية التي تحرص النظم السياسية على تجنبها؛ لارتباطها بعدالة التوزيع وكفاءتها في معالجة الاوضاع الاقتصادية المضطربة.

12- وقد تفضي عمليات التهويل والمبالغة في مضمون الصورة التلفزيونية، الى استثارة السخط والاستياء السياسي، وربما يفضي ذلك الى استثارة العنف في وقت لاحق بين الفئات الاجتماعية التي تعاني من الغبن والحرمان، ولا سيما اذا كان المناخ الاجتماعي مهيئاً لاستثاره العنف. وهنا نجد في المواجهات المسلحة التي حدثت بين انصار تيار الصدر في العراق والقوات متعددة الجنسيات، خير شاهد على عمليات التهويل والمبالغة في الصورة التلفزيونية.

ان المتتبع لهذه المواجهات، يجد انها تركزت في بداية الامر في احد احياء بغداد المكتظة بالسكان وهو مدينة الثورة التي اطلق عليها فيما بعد بمدينة الصدر، ثم سرعان ما انتشرت هذه المواجهات الى مناطق اخرى من بغداد والى مدن الجنوب. وانها اصبحت شديدة الوطأة على الطرفين، بعد ارسال صور من عدد من الفضائيات العربية، تفيد، ان انصار تيار الصدر، يشكلون نسبة كبيرة من المجتمع العراقي او انهم يعدون بالملايين، بيد ان هذه المواجهات

اخذت بالتصاعد اثر بث هذه الصور؛ وكأن هذه الصور المرسلة، كانت بمثابة العامل المعجل لانتشارها الى رقعه اوسع. ومما زاد من شدة المواجهات المسلحة بين الطرفين، ان الخطاب الوارد في هذه الصور، اخذ يتناول الخلفية الاجتماعية لانصار هذا التيار؛ وذلك بالاشارة الى ان الغالبية منهم من الفقراء الذين يعيشون في احياء سكنية مدقعة، تعاني من البؤس والحرمان من الخدمات الرئيسة، وانهم قارعوا النظام السابق وتحملوا جراء ذلك الظلم والاضطهاد.

والحقيقة التي لابد من التركيز عليها هنا، ان الوصف الذي ورد في معظم الفضائيات العربية، كان وصفا واقعيا للخلفية الاجتماعية والاقتصادية لانصار تيار الصدر، ولكن تكثيف الصور والمبالغة في ارسالها، افضى الى استثارة سخط انصار التيار الصدري واستيائهم وهذا ادى بدوره الى استثارة العنف الذي عم ارجاء واسعة من البلاد. ولقد مكنت حالة الاضطراب التي عمت البلاد، بعض الجماعات الإرهابية من الاشتراك في عمليات مسلحة، تتمثل باشعال الحرائق في محطات الوقود او وضع العبوات الناسفة في وسط التجمعات الجماهيرية او ضرب المناطق الآهلة بالسكان بالقذائف او تفجير السيارات او وضع المتفجرات في بعض الطرقات الرئيسة، ولعل ذلك أفضى الى اشاعة الخوف بين صفوف الافراد، وتفشي الارباك وضعف التنظيم في مؤسسات المجتمع، فضلا عن توقف النشاط المهني لبعض الافراد.

وغاية ما يمكن قوله هنا، ان الصورة الوافدة من الفضاء قد تستثير العنف بين فئات اجتماعية معينة، شريطة ان يكون مضمونها باعثاً على التذمر، فضلا عن توفر بعض المحرضات في الميدان.

13- تصور الفضائيات العربية المجتمع العراقي في الظروف الراهنة، على انه ساحة حرب فحسب، بمعنى، ان الحياة الاجتماعية فيه غدت مستحيلة او تكاد، الى جانب تغييب واضح لدور السلطات في ضبط الامن ومطاردة العناصر الاهاربية وتسيير الحياة اليومية للبلاد. ولعل الاخطر في هذه الصور، انها اوحت للجمهور العربي، بصعوبة العيش في المجتمع وان النشاط الاقتصادي فيه معطل او شبه معطل. كما اوحت هذه الصور للجمهور العربي المتابع لتطورات الاحداث في المجتمع العراقي، ان القنابل تمطر الناس ليل نهار، وان الجثث تنتشر في الطرقات وفي الازقة، مما افضى الحال بالناس الى التزام المنازل. بيد ان الحقيقة على النقيض من ذلك، اذ ان الافراد في عموم المجتمع يزاولون نشاطاتهم المختلفة، سواء كانت سياسية او اقتصادية او اجتماعية او ثقافية او تربوية، غير آبهين بما يحدث من تفجير هنا او هناك، باستثناء المناطق المحسوبة على النظام السابق التي فقدت الكثير من النفوذ السياسي، الى جانب فقدان الامتيازات الاقتصادية، اذ تشهد بين الآونة والاخرى مواجهات مسلحة. اما المناطق العراقية الاخرى، فهي تشهد استقرارا أمنياً ملحوظا، وما يهمنا هنا، ان الفضائيات العربية، ساهمت في تشكيل صورة نمطية سلبية عن المجتمع العراقي، كونه غير آمن، ولعل الاحاديث السيئة التي اخذ يتناقلها الجمهور العربي عن الاحداث الجارية في المجتمع العراقي، هي نتاج

التضليل الحادث في هذه الفضائيات.

14- ومن الاساليب المزيفة لوعي الافراد في الفضائيات العربية، الصمت حيال انتهاكات حقوق الانسان الحادثة في كثير من الاقطار العربية، والمتتبع للبرامج السائدة في الفضائيات العربية، يجد ان الصمت الذي التزمته حيال هذه الانتهاكات، لم يكن من قبيل صعوبة الحصول على تفاصيل الامور، وانما كان صمتا مقصوداً، يستهدف بالدرجة الاساس السكوت عن تصرفات السلطان، حيال هذه الانتهاكات التي بلغت درجة لا يمكن السكوت عنها، كما حصل ايام النظام السابق في العراق.

اذ دفن معارضيه وهم احياء في مقابر جماعية واستعمل مع آخرين، اساليب التنكيل والاهانة والتحقير والسحل والتقييد بالاصفاد والحرق التي تعود الى القرون الوسطى، ولم تحرك الفضائيات العربية ساكنا، وانما لجأ بعضها الى تصوير رئيس النظام بوصفه بطلا قوميا وقائداً مهيباً. بيد ان واقع الحال، كشف بما لا يدع مجالا للشك، حالة التضليل الحاصل في هذه الفضائيات، عندما سقط تمثاله وسط حشود من الجماهير المهللة في بغداد، تلك الحشود التي كشفت بين ما كشفت، مشاعر الفرح والارتياح جراء سقوط نظامه.

اذا نحن بحثنا عن الاسباب التي جعلت هذه الفضائيات تبرز ايجابيات النظام وتخفي عن عمد سلبياته، نجد ان اولى هذه الاسباب يكمن في ان النظام أغدق على بعض الفضائيات العربية عطايا سخية. لذا غدت عملية التغاضي عن انتهاكاته ازاء حقوق الانسان، مسألة نفعيه، وليس ادل من دليل على ذلك، الفضائح التي كشف عنها برنامج النفط مقابل الغذاء. اذ كشفت الوثائق الموجودة في وزارة النفط العراقية ،حصول شخصيات اعلامية واخرى فنية على اموال من هذا البرنامج، مقابل الاسهام الفعال في التعبئة الاعلامية للنظام. ومن الاسباب التي جعلت الفضائيات العربية تخفي سلبيات النظام، ان معظم الفضائيات، انطلقت من مقولة، ان الفضائيات، هي مشروعات تجارية؛ ولانها كذلك ، فهي تخضع للمبدأ النفعي، وما تبثه عبر قنواتها، انما يخضع لهذا المبدأ، وهكذا اخذت تروج فكرة النفعية في عملية البث؛ بهدف تمويل القنوات واستمرارها؛ لكي يكون هذا المبدأ مسوغاً لها، عندما تتسرب بعض الوثائق الى الرأي العام، التي تدينها حيال صمتها. وعلى ذلك نقول، ان معظم الفضائيات العربية عمدت الى اخفاء سلبيات النظام، استنادا الى المبدأ النفعي وحسب.

15- تشير الوقائع، ان الفضائيات العربية اخذت تساهم مع غيرها من قنوات الاتصال المتقدمة في اشاعة ثقافة الموت؛ وذلك بارسال صور تتناول شخصيات ملثمة تقطع رؤوس الافراد الذين لم يلتزموا بالاوامر او النواهي الصادرة عنها. والحقيقة التي لابد من التركيز عليها هنا، ان اشاعة ثقافة تشتمل على التدمير والتخريب وانهاء حياة الاخر عند الاختلاف معه برأي او بموقف افضى الى تشجيع بعض الافراد الذين يتمتعون بحكم خلقي متدنٍ الى تقليد او نمذجة هذا السلوك، كما هو حاصل في العراق. وهناك محرضات ميدانية دفعت بهؤلاء الافراد الى تقليد غيرهم في عمليات الخطف او قطع الرؤوس ولعل من ابرز هذه المحرضات، وجود اتجاهات سياسية معادية للوضع السياسي

الجديد. ولقد اثبتت الوقائع الميدانية، ان التغيير الحاصل في الحياة السياسية، افضى بهؤلاء الافراد الى فقدان نفوذهم السياسي، مما ترتب على ذلك، فقدان الجاه الاجتماعي، وهذا بدوره افضى الى فقدان الامتيازات الاقتصادية، وبالمحصلة النهائية اصبح هؤلاء من المهمشين في الحياة السياسية الجديدة.

وما يهمنا هنا، ان الفضائيات العربية، غدت وسيلة اتصال مهمة في بلوغ اهداف العناصر الارهابية المتمثلة بنشر ثقافة الموت ولولا اصرار هذه الفضائيات على تحقيق السبق الصحفي والشهرة، لما انتشرت هذه الثقافة ولكن السبق الصحفي الذي تحاول الفضائيات بتحقيقه، كانت له عواقب واضحة على بعضها. اذ تردد في الاوساط الاعلامية، ان بعض القنوات الفضائية تلقت تهديدات من جماعات ارهابية، تفيد بضرورة حجب البث لبعض المواد الاعلامية او الفنية، بحجة انها تسيء الى توجهاتها الإيديولوجية، وحجب مسلسل (الطريق الى كابل) عن البث، خير شاهد على الامتثال للاوامر الصادرة عن هذه الجماعات.

16- يلاحظ على بعض الفضائيات العربية اثناء تغطيتها للاحداث السياسية، انها تعمد الى استثاره الكراهية بين افراد المجتمع الواحد، ولا ادل من دليل على ذلك، سوى التغطية الاعلامية للاحداث السياسية في العراق. اذ حاولت بعض الفضائيات العربية، ومنها على وجه التحديد قناة الجزيرة الفضائية، ان تستثير الكراهية بين طائفتي المسلمين في العراق؛ وذلك بزعم مراسلها اثناء تغطيته للاحداث الجارية، ان بعض المدن العراقية انتفضت بوجه القوات الاجنبية، ثم اخذ بعد ذلك بتسمية هذه المدن، في اشارة واضحة الى المدن السنية. ويضيف هذا المراسل، ان المدن الاخرى لم تصدر عنها اشارة دالة على الانتفاضة. وهنا نذكر، ان هذا المراسل لم يعمد الى تسمية هذه المدن، وكانت اشارته واضحة الدلالة، فالمقصود بهذه المدن، الشيعية على وجه التحديد. ولعل الاخطر من ذلك، ان تقريره اشتمل على اشارات لفظية تفيد، ان سكان هذه المدن هم حلفاء للولايات المتحدة؛ ولانهم كذلك، فقد التزموا حاله الهدوء. على ان حالة الاحباط التي يعاني منها المجتمع العراقي في الظروف الراهنة، نتيجة تأخر اعمار البنى التحتية، مهيئة لاستثارة العنف الطائفي شريطة توفر بعض المحرضات الميدانية، ولا سيما المحرضات الصادرة عن الطرفين.

الآثار النفسية المترتبة على تزييف الوعي الاجتماعي

ان التزييف او التضليل الذي عمدت الفضائيات الى اشاعته في خطابها الموجه الى الافراد، سيترتب عليه اثارا نفسية عدة، ولعل من أبرزها :-

1- ان الخطاب الوارد في الفضائيات، وهو يرسل فيضا من الصور والبرامج والمشاهد التي تكون في العادة غير حقيقية عن واقع الحال، او هي تضليل للواقع الحياتي، سيعمد الى تشكيل عالم يوتوبي او ما يسمى بالمدينة الفاضلة، تلك المدينة التي تتوافر فيها كل مستلزمات الحياة الحرة الكريمة. وبمقتضى ذلك، سينعم الانسان بالحرية ويتحرر من الخوف ويشبع حاجاته النفسية والاجتماعية وستكون العاقبة، ان الانسان في بلدان العالم الثالث ومنها المجتمع العربي، سيجد هوة واسعة

بين البيئة التي يعيش فيها وذلك العالم اليوتوبي الذي ما انفك يحلم به (19). هذا العالم اليوتوبي الذي تحددت معالمة في برامج الفضائيات، سيشيع حالة من الاغتراب لدى الفرد، بحيث يجد نفسه مبتعدا عن مجتمعه وغير مشارك فيه، مما يشجعه على تكوين صور نمطية عنه، كونه مجتمعاً متخلفاً ولا يمكن اصلاحه.

2- ومما يترتب على عملية التضليل والتموية الحادثة في الفضائيات، اضعاف الانجاز الدراسي، وذلك يرجع اساسا الى ان الخطاب التلفزيوني، اخذ يرسل رسائل متناقضة عن نجاح الفرد او فشله في الحياة، فتارة يعزو النجاح الى الجهد المبذول والكفاءة التي يتمتع بها الفرد، وتارة يعزو النجاح الى اسلوب الحيلة والخديعة التي يمارسها مع الآخرين، ثم يعزز هذه الرسائل، برسائل اتصالية اخرى تنطوي على بعض الادلة والشواهد الواقعية وحقيقة الامر، ان مشاهدة مثل هذه الرسائل والاستماع اليها، سيفضي الى العزوف عن المطالعة وتحصيل المعرفة، وبمرور الوقت سيفضي الحال الى تشكيل عادات تنطوي على نبذ المطالعة واضعاف التوجه نحو الدراسة، مما يضعنا ازاء مشكلة في غاية الخطورة، الا وهي الانصراف عن الإنجاز الدراسي.

3- كما ان استمرار خطاب الفضائيات في ممارسة عمليات التمويه والتضليل الى تعليم الفرد اساليب حياة تنطوي على الخداع والحيلة اثناء عمليات التفاعل الاجتماعي .

4- وقد تفضي عمليات التمويه او التزييف الحادثة في الوعي الاجتماعي، الى تكوين عادات سلوكية لدى الافراد، تلك العادات التي تنطوي على البحث عن الاثارة والفتنة في جسد المرأة او البحث عن الاثارة في الوسائل التي يرسلها الخطاب التلفزيوني مما يترتب على ذلك، ان الرسائل الاتصالية التي تنطوي على التوجيه والارشاد والوعظ سيعزف الافراد عن التعرض لها، وعدم متابعتها، وفي حال استمرار العزوف عن التعرض لرسائل من هذا القبيل، سيفضي الى تكوين اتجاهات تنطوي على تفضيل المتعة والاغراء .

5- وربما تفضي عمليات التزييف في الوعي الاجتماعي، الى اشاعة ثقافة تتسم بالاستهلاك المفرط، وذلك من خلال التركيز على البرامج التلفزيونية التي يشيع فيها نمط استهلاكي الى حد البذخ كالاعلانات على سبيل المثال.

6- ولعل خطوة الخطاب التلفزيوني في تزييف وعي الافراد، يكمن في اشاعة حالة من الاعجاب والانبهار ببعض الثقافات، وقد تفضي حالة الاعجاب والانبهار الى مقارنة. أي الافراد -اوضاعهم الحالية في مجتمعهم، مع اوضاع اولئك الذين يعيشون في تلك الثقافات، وقد تؤدي هذه المقارنة التي تبني وجهة نظر مفادها، ان عالم تلك الثقافات، هو العالم الذي يتمتع فيه الانسان بالحرية، وهو عالم يضمن له حقوقه، فضلا عن كونه عالماً يتحرر فيه الانسان من الخوف(20). بعبارة اخرى، ان الافراد سيجدون انفسهم بعد المقارنة من الساخطين على الثقافة السائدة، وقد يترتب على ذلك، اشاعة حالة من التمني للعيش في تلك الثقافات، وربما ينتهي الامر ببعضهم الى الهجرة اليها والاندماج في عالمها.

7- كذلك، فان عمليات التمويه والتضليل

الحادثة عبر الفضائيات العربية، ستنمي لدى الافراد، ظاهرة اللامبالاة السياسية، تلك الظاهرة التي تتمثل بالعزوف عن المشاركة في النشاطات السياسية الحادثة في المجتمع كالعزوف عن المشاركة في الانتخابات والعزوف عن الانضمام الى الاحزاب السياسية ومنظمات حقوق الانسان والعزوف عن مطالعة الصحف اليومية والعزوف عن مشاهدة البرامج السياسية في الفضائيات؛ وذلك بارسال صور، تفيد ان المشاركة في هذه النشاطات لن يغير من الامر شيئا، ولن يؤد الى نتيجة محددة، ذلك ان النتائج المترتبة على المشاركة في هذه النشاطات، مقررة مسبقا، وان اسهام الافراد فيها لن يغير منها شيئا يذكر. وكأن الصور المرسلة عبر هذه الفضائيات، تريد ان تبلغ الجمهور برسالة مفادها: ان القوى التي تتحكم بالقرار، هي التي ستحدد مصيرهم، وما عليهم سوى الاستسلام للمصير الذي اعد لهم.

8- ومن الآثار النفسية المترتبة على نشر ثقافة الموت، ان الآخر (الغربي)، كون عن الاسلام صورا نمطية تتسم بالسلبية، وهي من قبيل: ان الاسلام دين حرب، او انه دين كثير الشر(21). ولم يكتف الآخر بهذه الصورة النمطية، وانما اخذ يصف النبي الكريم بعدد من الصور النمطية السلبية منها انه شخص متطرف وارهابي وسارق، وانه من قطاع الطرق (22). اما المسلمون الذين يعيشون في البلدان الغربية وفي الولايات المتحدة ، فقد وصفوا بالطابور الخامس (23).

وواقع الامر، ان الصورة النمطية السلبية التي وصف بها الاسلام، لم تكن وليده الظروف الراهنة، وانما تعود الى حقبة ما قبل انطلاق الفضائيات العربية.

بيد ان الفضائيات العربية زادت من سلبية الصورة النمطية للاسلام، وكذلك زادت من نشرها بين الفئات الواسعة للاخر. والسؤال الذي نثيره هنا، ما الدور الذي ساهمت به الفضائيات العربية في زيادة سلبية الصورة النمطية للاسلام؟ ان الاجابة عن هذا السؤال تقودنا الى الحديث عن مهنية هذه الفضائيات، فالمهنية، اقتضت تغطية الوقائع الاخبارية مع تقديم تفاصيل وافية عنها؛ ولعل من بين الوقائع الاخبارية التي نالت نصيباً وافراً من التغطية، الرسائل الصادرة عن العناصر الإرهابية التي تتوعد فيها بضرب المصالح الغربية وقتل المواطنين الذين يحملون جنسيات غربية. وهناك مسألة اخرى زادت من سلبية الصورة النمطية للاسلام في الاوساط الغربية، تلك المسالة المتمثلة بارسال الفضائيات العربية فيضا من الصور واللقطات للعناصر الارهابية، وهي ترتدي الزي الاسلامي، وملتحية بلحى كثة، وتحمل البنادق على اكتافها، وترتسم على وجوهها امارات الغيظ والغضب، في إشارة واضحة الى ان الإرهاب يرتبط بالإسلام وان البيئة الإسلامية موطن الإرهاب.

وقد يفسر ذلك من جانب الآخر الذي يجهل اصول الدين الاسلامي، ان الإسلام دين يحض على الحرب ويدعو الى الشر وينبذ السلام ولا يقبل بالحوار العقلاني، بوصفه اسلوبا لحل الخلاف، وهو في النهاية، دين لا يعلم إفراده حق الاختلاف وحق التسامح، وانما يعلمهم الأساليب التي يتم بموجبها إقصاء الاخر عند الاختلاف معه، ولعل الإرهاب، يعد احد أساليب الإقصاء.

الهوامش

(1) احمد عزت راجح . أصول علم النفس ، (القاهرة : دار المعارف ، 1994) ، ص307 .

(2) سيدني جورارد وتيد لندزمن . الشخصية السليمة ، ترجمة حمد دلي الكربولي وموفق الحمداني . (بغداد : مطبعة التعليم العالي ، 1988) ، ص53 .

(3) D.G.myers . psychology , Ist ed. (New York:worth publisher . inc . 1986), p. 189 .

(4)جورارد ولندزمن . الشخصية السليمة ، ص54 .

(5) لندا دافيدوف. مدخل علم النفس ، ترجمة سيد الطواب واخرون ، ط2. (الرياض : دار المريخ للنشر ، 1983) ، ص291.

(6) فاخر عاقل . معجم العلوم النفسية . (بيروت : دار الرائد العربي ، 1988) ، ص85 .

(7) المصدر نفسه ، ص86 .

(8) المصدر نفسه ، ص86 .

(9) عبد اللّه بو جلال . الأعلام وقضايا الوعي الاجتماعي في الوطن العربي. المستقبل العربي. السنة 14، العدد147 (آيار – مايو، 1991)، ص42.

(10) المصدر نفسه ، ص42 .

(11) عبد الباسط عبد المعطي . الأعلام وتزييف الوعي . (القاهر : دار الثقافة الجديدة ، 1979)، ص15.

(12) حسن صعب . وسائل الأعلام والعطاء العلمي للإنسان العربي. بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع مؤسسة عبد الحميد شومان حول تهيئة الإنسان العربي للعطاء العلمي ، ط1 ، (بيروت : المركز ، 1985)، ص378 .

(13) محمود شمال حسن ، قلق المستقبل لدى الشباب المتخرجين من الجامعات . المستقبل العربي ، العدد 249 ، السنة 22 (تشرين الثاني – نوفمبر،1999)، ص77.

(14) محمود شمال حسن، الحرب النفسية الموجهة الى المجتمع العربي، قراءة جديدة ،(بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة، سلسلة افاق ، 2001)، ص42–43 .

(15) هربرت ماركوز . الانسان ذو البعد الواحد ، ترجمة جورج طرابيشي ، ط3. (بيروت : منشورات دار الاداب ، 1973)، ص190.

(16) حسن ، الحرب النفسية الموجهة الى المجتمع العربي : قراءة جديدة ، ص43– 44 .

(17) المصدر نفسه ، ص44.

(18) راسم محمد الجمال . الاتصال والاعلام في الوطن العربي . ط1 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1991)، ص157 .

(19) محمود شمال حسن ، نحن والبث الفضائي: دراسة الاثار النفسية والاجتماعية المحتملة للبث الوافد من الفضاء في المجتمع العربي . دراسات اجتماعية . السنة 1 ، العدد 2 ، (حزيران – يونيو ، 1999)، 96–97.

(20) محمود شمال حسن . بث برامجي ام تشكيل نسق قيمي: دراسة الانساق القيمية المترتبة على البث الفضائي في المجتمع العربي. شؤون عربية . العدد 97 (آذار –مارس ،1999) ، ص51 .

محمود شمال حسن . سايكولوجية الخطاب في برامج البث الوافد من الفضاء . الحكمة السنة 2 ، العدد 9 (آيار –مايو ، 1999) ، ص98–99

(21) نبيل دجاني . اجهزة الاعلام الغربية وموضوع الإرهاب. في : العرب والاعلام الفضائي ، ط1 . (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، 2004)، ص80 .

(22) المصدر نفسه ، ص80 .

(23) المصدر نفسه ، ص80 .

ترجمة نصوص

مئة زهرة
ردود على صريح البروفسور
يانغ
وحوارات مع البروفسورات
يي و وانغ وسي

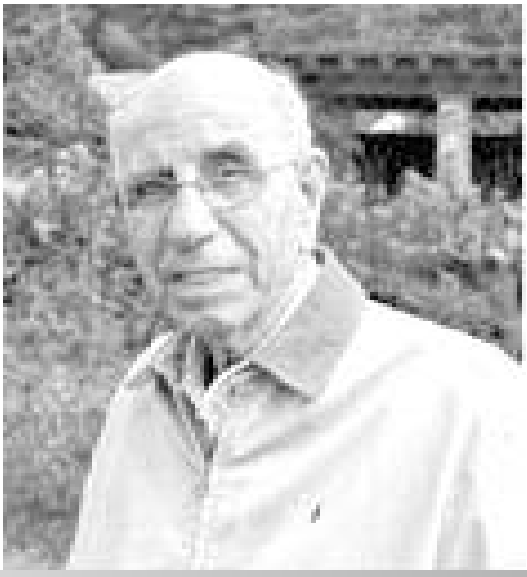

واي كيت جوي Wai Kit Choi
ترجمة: عزيز سباهي

نال واي كيت جوي، شهادة الدكتوراه من جامعة كاليفورنيا، إرفين، وهو الآن أستاذ مساعد في قسم علم الاجتماع في جامعة ولاية كاليفورنيا، لوس أنجلس. من بين مؤلفاته الحديثة:

Post coloniality as Chinese State Of Exception " in Postcolonial Studies, 10:4 (2007).

تكشف الحوارات مع جيتسيونغ يي Jiexionyi وشاوبو تسي Shaobo Xie وفينغزين وانغ Fengzhen Wangوكذلك مقالة جينهاي يانغ Jinhai Yang جميعاً سلسلة من الآراء المنوعة حول مسار الصين في سبيلها للتقدم. هذا الحشد من الأصوات يتحدى أية محاولة لافتراض تصور موحد في الصين للسوق الاشتراكية. والمسألة التي تتعلق بماو تسي تونغ، على سبيل المثال تثير ردوداً مختلفة في الحوارات. ففيما يلاحظ أن ماو قد ركز الاهتمام بالسياسة أكثر من الأوضاع الاقتصادية، مسيئاً بذلك فهم أحد المبادئ الماركسية الرئيسة – أي الفكرة القائلة بأن القاعدة الاقتصادية تقرر البناء الفوقي، فان (يي) يرى أن الفترة الماوية التي سبقت عام 1978، كانت انحرافاً عن الماركسية الكلاسيكية. يي في الجانب المقابل يلاحظ أن كلاً من (ماو) و (رايموند) و (ليمز)(1) يحملان وجهة نظر متماثلة إزاء الثقافة. وتوحي مقارنته بأن وجهة نظر (ماو) ليست مخالفة لوجهات نظر مفكرين ماركسيين آخرين بالضرورة.

يرى (وانغ) أن ماو كان له السبق في التنبؤ بإنبعاث الرأسمالية في الصين، وهو بهذا قد فاق (يي) في إضفاء المديح على ماو.

وتنوع الآراء التي تتعلق بالظروف الاجتماعية في ماضي الصين وحاضرها، يبدو جليا في الحوار مع يي، الذي يعطي موجزاً منظماً للمدارس الخمس في الفكر. هذه الآفاق الخمسة تعطي تقييمات مختلفة للتغيرات السياسية والاقتصادية منذ سبعينات القرن الماضي. والمسألة التي أثيرها هنا، هي كيف يحكم على هذه التقييمات ذاتها في الصين؟ وإذا ما نظرنا إليها من زوايا مختلفة، فأي من هذه الآفاق ينبغي أن يرفض، وأيها يجب أن يحظى بالقبول لإدراك ونقد الواقع الاجتماعي للبلاد؟

باختصار، أود أن أحصر تعليقي على الأفق الثاني الذي يشير إليه (يي) في عرضه. إذ كما يلاحظ، أن الذين ينادون بهذا الرأي يتمسكون بشكل الشيوعية الصينية التي كانت قائمة في الفترة الماوية، وهم يرون الى أيام (دنغ) كفترة للعودة الرأسمالية، وسياسته عن إصلاح السوق كصدع من الأساس.

من بين المدارس الخمس المتنافسة، ربما يكون موقف اليساريين التقليديين، والماويين، أكثرها إثارة للجدل. والتقييم الشائع عن السياسة الإصلاحية لدينغ حول السوق، أنها نالت نجاحاً عظيماً. وعلى الضد من فترة (دينغ)، لايحظى العهد الماوي إلا بالدعم النادر من الباحثين اليوم. إذ غالباً ما ينظر إليه كعهد مليء بالكوارث التي دبرها ماو– الحملة المعادية لليمين، القفزة العظمى الى الأمام، الثورة الثقافية – كل منها قد أورثت سكان الصين معاناة هائلة، وان أفق اليساريين التقليديين قد جاء في غير زمانه، إن لم يكن معاكساً للزمن.

ولكن هل ثمة تفسير بديل لوجهة نظر اليساريين التقليديين؟ فيما يلي سأعطي تبريراً آمل أن يساعد في توضيح وجهة نظر اليساريين التقليديين.

بالنسبة لهؤلاء، خمدت التطبيقات الاجتماعية وما كانت تقدمه المؤسسات الشيوعية في عهد ماو كنقطة أفضلية ينتقدون من خلالها الواقع الاجتماعي الصيني الراهن. ومع ذلك، فحين يوصف عهد ماو كفترة من الفشل المذل، وماو نفسه بالطاغية السادي، فان هذا بالنسبة لكثير من الناس يوحي بان الشيوعية الصينية قبل 1978 لا يمكن أن تخدم كأساس للنقد الاجتماعي. والمرء يجيب على هذا النوع من التفكير بأن يستعيد من الذاكرة المكبوتة إنجازات عهد ماو ويبطل شتي الهجمات على السلوك الأخلاقي لماو. مثل هذا الإستراتيجي من شأنه أن يساعد، ولاشك، في شرعنة استخدام الشيوعية الصينية لما قبل1978 كنقطة يستند إليها في نقد المجتمع الصيني المعاصر.

بيد أن هنالك، كما اعتقد، سبباً آخر لأن يكون الرفض الفوري للمنظور اليساري التقليدي فجاً. إن حيوية وقوة الشيوعية لما قبل 1978 كقاعدة للنقد الاجتماعي الراهن لا تعتمد على نجاح منجزاتها السياسية، كما ليس على الاستقامة الأخلاقية لماو. وحتى لو استندنا الى ثقافة صارمة، فإننا سنتوصل الى اجتماع في الرأي أن النتائج السياسية والاقتصادية الاجتماعية والواقعية للفترة الماوية على خلاف النتائج المماثلة للفترة الراهنة كانت غير ناجحة تماماً، وانتهى ماو لأن يصبح مجنوناً بالعظمة، لا يعنيه سوى تجميع القوة. إن سلامة اتخاذ الشيوعية الصينية لما كان قبل 1978 كأساس لتوجيه النقد لم يضعف بالضرورة.

والزعم بان شيوعية ما قبل1978 لازال سليماً رغم أنها كانت فاشلة في الواقع التأريخي، هذا الزعم هو الذي جمع بين نقيضين بالنسبة للبعض. وسأستند الى مفهوم أدورنو(2) وهوركيهمر(3) عن مايسمى بـ"النقد الجوهري" لحل هذا الإشكال الواضح. واقترح أن نعامل الأفق اليساري الصيني التقليدي كـ"نقد شيوعي جوهري" وسأوضح حجتي بالضد من دفاع زيزك (4) (Slavoj Zizek) الذي أورده في كتابه الحديث (2008،2002). ولكن قبل ذلك، سأوضح بتفصيل أكبر آراء اليساريين التقليديين.

ربما يستخدم الخطاب المفتوح الذي وقعه الرئيس السابق لمكتب الإحصاءات الوطني لي جنغروي (Li Chengrui) وآخرون من كوادر الحزب كمثال لوجهة نظر اليسار التقليدي. عنوان الخطاب المفتوح هو: "خطاب مفتوح للمؤتمر الوطني للحزب السابع عشر. لتحيا الراية العظمى للماركسية واللينينية وفكر ماو تسي تونغ. دافعوا بحزم عن المبادئ الأربع الأساسية".

هذا الخطاب يعطي تحليلاً شاملا لتطور الصين السياسي والاقتصادي منذ بداية الإصلاح حتى حكم جيانغ زيمين. كذلك تضمن الخطاب مقترحات سياسية يأمل الموقعون أن يطبقها الحكم الجديد لهيوجنتاو و وين جيا باو.

يؤكد الخطاب الانجازات الاقتصادية الصينية في العقود الاخيرة، ويلاحظ أن كلاً من الإصلاح وسياسة الباب المفتوح ضروريات لنمو البلاد. ومع ذلك، فهو يلاحظ أن نوع الإصلاح الذي يسانده هو ما يرفع من شأن النظام الاشتراكي ويطوره. ولا يمكن أن يكون من النوع الذي يستهدف إحياء الرأسمالية. كما لا يمكن أن يكون إصلاحا يتجاهل ما إذا كانت "كنيته" اشتراكية أو رأسمالية. إن الانفتاح الذي يؤيده أصحاب الخطاب ينبغي أن يكون نوعاً من انفتاح يعتمد على النفس، ولا يمكن ان يكون انفتاحاً يتجاهل الكفاية الذاتية. ولا يمكن أن يكون تابعاً أو انفتاحاً يتجاهل الأمن الوطني ولا يفرق ما بين السيادة الصينية والسيادة الأجنبية. بهذه الطريقة وحدها، نحن نتفهم التحديث الاشتراكي، وليس أي نوع آخر من التحديث.

يلاحظ الخطاب المفتوح أن الإصلاح قد انحرف نحو الرأسمالية، ونشأت بسببه معضلات جدية كثيرة. وسأعطي أربعة أمثلة عن المشاكل التي يشير إليها الخطاب. الأول، تؤلف المشاريع الخاصة الآن القطاع السائد في الاقتصاد ونصيبها من إجمالي الدخل القومي عام 2006 بلغ 63%، فيما لا يتجاوز نصيب القطاع العام 37%. والتوقع المستمر لهذه المشاريع يمكن أن يلمس في القطاعات الحيوية كسكك الحديد والفضاء الجوي وحتى في صناعات الدفاع الوطني. وبالارتباط الوثيق مع انحدار القطاع العام يبرز التفاوت في الدخول. وطبقاً لمعامل جيني GINI الصيني قفز التفاوت من 0,24 عام 1985 الى0,469 عام 2004. ومنذ 1995 بات الرقم الصيني أعلى باستمرار من أرقام البلدان النامية الأخرى كالهند وإيران ومصر، وكذلك من أرقام البلدان المتقدمة كفرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة. تظهر هذه الأرقام "إن بلادنا الآن ذات نظام اجتماعي يتصف بالفارق الكبير بين الأغنياء والفقراء واستقطاب طبقي حاد. بلادنا باتت الآن أبعد كثيراً من هدف الرفاه للجميع بدلاً من الاقتراب من هذا الهدف".

وتتعلق القضية الثالثة بضعف قوة العمل والفلاحين. والخطاب يلاحظ ذلك: كثير من المشاريع يستخدم تكنيكا إداريا بربرياً وعنيفاً يوهن العمال ويحقرهم. بل وبعضهم يستخدم عملاً عبودياً. ونشاهد اليوم ظواهر مثل "أفران الطابوق الأسود" "البوشنكرنك المعاصر" و "الورش الحلوة". وكثير من المشاريع تمنع العمال من تنظيم نقاباتهم، وهذا ما يجرد العمال من حقهم في الدفاع الجماعي. وكثير من وكالات الفضاء والإدارة لاتعير اهتماماً الى حقوق الطبقة العاملة. وينتهي العمال الى أن يفقدوا أية جهة يمكن أن يطرحوا عليها شكاواهم.

تتعلق القضية الرابعة بوجود الرأسماليين في الحزب الشيوعي الصيني. ويشخص الخطاب المفتوح طريقتين يلجأ إليها الرأسماليون للانخراط في صفوف الحزب. الأولى، أن كثيراً من أصحاب المشاريع يرغبون في الانضمام الى الحزب. وغرضهم من ذلك، كما يلاحظ الخطاب، أن يقودوا الصين الى الطريق الرأسمالي. والثانية، أن بعض أعضاء الحزب ذاتهم قد أصبحوا رأسماليين، لكنهم ظلوا يحتفظون بعضويتهم. وعملهم هذا يخالف المبدأ الأساسي لعضوية الحزب الشيوعي الذي ينص على عدم استغلال عمل الآخرين، وهم بهذا يخرقون على المكشوف النظام الداخلي للحزب. خلال الإصلاح، بيع عديد من المشاريع التي تملكها الدولة الى مديريها. هنا برز تحول "أصبحت فيه المشاريع العامة ملكية خاصة" " وأصبح أعضاء من الحزب مالكي مشاريع" وبات أبناء وبنات، وكذلك أقارب كثيرين من الموظفين الحكوميين وكوادرها رأسماليين. إنهم الشريحة الأكثر قوة في الطبقة الرأسمالية التي برزت حديثاً.

تظهر هذه القضايا المختلفة لمؤلفي الخطاب المفتوح أن الإصلاح انحرف نحو الرأسمالية. والسبب الرئيس للانحراف عن الاشتراكية، هو الفشل في التمسك بالمبادئ الرئيسة الأربع والتي ترتبط بدورها بتهميش فكر ماو تسي تونغ في فترة الإصلاح. وأساس المبادئ الرئيسة الأربعة هو نظرية ماو عن الثورة الدائمة. والتناقض ما بين الرأسماليين والطبقة العاملة يستمر حتى في ظل دكتاتورية البروليتاريا: الثورة بهذا المعنى هي ثورة دائمة. وسواء جرت مساندة المبادئ الرئيسة الأربعة أو هوجمت، ينبغي الاعتراف بها كتعبير عن الصراع الطبقي في ظل الاشتراكية. والخطاب يصرح بأن تفسير (دينغ) للمبادئ الرئيسة الأربعة بات أخرقاً لأنه يزعم أن الصراع الطبقي قد استنفد. ويذهب الخطاب المكشوف الى أبعد من ذلك. إذ يشير الى أن تجاهل الصراع الطبقي في ظل الاشتراكية ينجم عنه نمو الطبقة الرأسمالية خارج وداخل الحزب. إن سلطة الطبقة العاملة للدفاع عن نفسها يجرى التساوم عليها بشكل خطير.

يؤكد الخطاب أهمية إعادة تسليح الحزب بالوسائل الماركسية – اللينينية وفكر ماو تسي تونغ، ويقترح إعادة مركزية المبادئ الرئيسة الأربعة. بالإضافة الى ذلك، يقدم الخطاب عديداً من التوصيات السياسية. فهو يقترح مثلاً تعزيز المشاريع التي تملكها الدولة بحيث يستطيع القطاع العام أن يلعب الدور السائد في الاقتصاد، وتفعيل القوانين التي تحدد بيع موجودات الدولة، وتوسيع سلطة مجلس الشعب، وزيارة عدد ممثلي العمال والفلاحين. واستعادة دستور (آنغانغ) ليكون أساس الإدارة الاقتصادية وتأسيس نظام يلزم كوادر الحزب بالإعلان

عن الدخول والثروات التي يحصلون عليها وكذلك أفراد عوائلهم، وإدخال مصادر اكبر ضمن الحماية البيئية.

هذا الخطاب المفتوح وثيقة معقدة؛ والخلاصة التي أوردناها آنفا تعنى فقط ببعض النقاط الرئيسة، وتفسيرها للإصلاح والعديد من ادعاءاتها الوقحة يمكن تحديها. بيد أن هناك اعتراضاً اعتقد أن نقاداً كثيرين يحيلون الى القول به. فطالما كانت الشيوعية الصينية لما قبل 1978 تفشل في التطبيق كما يقول النقاد، أفلا يخطئ هذا، إذن، النقد الذي تضمنه الخطاب المفتوح؟ عند هذه النقطة يصبح النقاش حواراً حول نجاح أو فشل العهد الماوي. هذه بالتأكيد قضية معقدة. لكنني أرى أن نلاحظ أن الشيوعية الصينية لما قبل 1978 يمكن أن تظل وجهة نظر مشروعة للنقد حتى ولو أن محاولة تطبيقها في زمن أسبق ليست موفقة. والملاحظة الصادرة عن "النقد الجوهري" من مدرسة فرانكفورت تساعد في توضيح حجتي.

أن تنشغل في نقد جوهري معناه أن تأخذ المبادئ المعيارية للخصم أو الافتراضات التي تقوم عليها أراء الخصم كمقياس للحكم على موقفها أو عملها. النقد الجوهري هو نقد داخلي، بمعنى انه لا يعتمد على مقياس خارجي بالنسبة للخصم. وتعطينا أعمال أدورنو نموذجاً للنقد الجوهري. فأدورنو يصرح، وهو يشرح حجته ضد الفينومونولوجيا (علم الظواهر) أن ديالكتيك الإجراء بالذات هو نقد جوهري. انه لا يعارض الظاهرة بالمواقف أو الموديل الخارجي الغريب على الظاهرة عندما تدفع بالموديل الفينومونولوجي بقوة الأخير ذاته الى حيث لا يستطيع الأخير السير قدماً (أدورنو 1982 ص242). في عالم الثقافة، أن تمارس نقداً جوهرياً معناه أن تحلل معنى العمل الفني بحيث يستطيع النقد أن يحدد موقع "التناقض ما بين الفكرة الموضوعية والذريعة" (أدورنو 1981، ص 32).

إن إمكانية النقد الجوهري تكمن في الفجوة والتناقض ما بين المبادئ المعيارية وتفعيلها. والفشل في تفعيل المبادئ لا يلغي أو يتخلى عن هذه المبادئ المعيارية، وإلا فانه لا يمكن استخدامها كأساس للنقد في المكان الأول. والتمييز بين المبادئ المعيارية الكامنة في افتراض واحد وشرط تحقيقها هو أمر أساسي. صرح أدورنو في مقالة عنوانها: "الماوية والأخلاق" (وهي مقالة قديمة تقدم حساباً فلسفياً لتطبيق النقد الأخلاقي في التأريخ الغربي)، "إن النقد المادي للاقتصاد السياسي يظهر أولاً أن تحقيق المثل الأعلى في الصورة التي صبغ بها المجتمع القائم ـ أعني الوحدة ما بين المصلحة العامة والخاصة ـ لا يمكن أن يحدث إلا بإنكار شروطه الخاصة. واليوم يزعم بان المُثُل البورجوازية عن الحرية والمساواة والعدالة قد أثبتت أنها مُثل فقيرة. مع هذا، فان العلّة ليست في مُثل البرجوازية وإنما في الظروف التي لم تتطابق وإياها، والتي أظهرت أن من المتعذر الدفاع عنها".

إن شيوعية مثل التنوير لم تتلم في رأي هورخايمر Horkheimer بالفشل الذي لحق بتحقيقها في الظروف التاريخية. وإنما العكس فإن الأوضاع التاريخية التي دفعت الى طمرها هي التي منعت تحقيق إمكانياتها في الانعتاق. ففي كتاب (كسوف العقل) الذي كتب بعد الحرب العالمية الثانية، ظل (هورخايمر) يتمسك بذات الأطروحة.

والحجة الرئيسة هي أن اتساع العقل الذاتي، إي العقلانية الذراعية، في ظل الحداثة، يؤدي الى طمس كل من الطبيعة والفردية. ومهمة الفلسفة هي تحرير الأفكار الجوهرية من قيود العقل بحيث تستطيع هذه الأفكار أن تندفع ضد الأنظمة الاجتماعية التي أوجدتها. مثال ذلك، أن فكرة شرف امرئ ما "قد ولدت في تجربة الأشكال البربرية للسيادة" أما اليوم "وبعد أن تحررت من أصلها الدموي، فان الإشارة الى شرف الفرد هي واحدة من الأفكار التي تعرف التنظيم الإنساني للمجتمع". إن ملاحظة (هورخايمر) بشأن التمييز ما بين المبادئ الجوهرية وشروط تحقيقها تساعد في توضيح إمكانية نقد جوهري شيوعي يستقي قوته من عصر "فشل".

إن المؤسسات الاجتماعية المختلفة والتطبيقات التي جرت خلال العهد الماوي كانت تتم باسم المبادئ الاشتراكية كالمساواة الطبقية والمساواة بين الجنسين وتحسين أوضاع الجماعات المضطهدة تاريخيا، والأممية، والدمج بين العمل اليدوي والفكري. وتحقيق هذه المبادئ الاشتراكية كان مليئاً بالتناقضات في مجرى التأريخ. أضف الى هذا، فان كثيراً من الباحثين يروق لهم أن يشيروا الى أن ماو وقادة الحزب الشيوعي الصيني الآخرين لم يكونوا معنيين بهذه المبادئ، وإنهم كانوا يستخدمونها لمجرد أنها تزيد من قوتهم. ولكن إذا كانت ملاحظات (هورخايمر) عن مثل التنوير تلقى الترحيب فان مقاصد قادة الحزب الشيوعي الصيني غير واردة، لأن صحة هذه المبادئ لا تعتمد على شروط تحقيقها. إن الحزب الشيوعي الصيني اليوم لا يزال يردد التزامه بالاشتراكية. والأخرى انه يقتبس مثل البرجوازية "العالمية" من البلدان الرأسمالية ويطبقها في الصين. إن الأفق اليساري التقليدي الصيني يمكن أن ينظر إليه كنوع من "النقد الجوهري الشيوعي"، نقد يؤدي الى تحرير الإمكانات الكامنة في المؤسسات الاجتماعية المختلفة، وتطبيقاتها منذ الفترة الماوية واستخدامها كنقطة انطلاق جوهرية لتشخيص التناقضات ما بين المثل والتطبيقات في العهد الراهن.

لكن استخدام المبادئ الاشتراكية منذ ما قبل الشيوعية الصينية لعام 1978 لتقييم الحاضر ليس سوى بُعد واحد للنقد الجوهري الشيوعي. أما البُعد الآخر فهو تبيان لماذا كانت المؤسسات الاشتراكية السابقة عاجزة عن تحقيق تلك المبادئ تحقيقاً كاملاً. إن المقارنة ما بين الحجج التي قدمت هنا ودفاع (زيزك) الراهن عن الشيوعية ذات نفع في هذا الصدد. (2002، 2008). إذ لاحظ (زيزك)، وهو يؤكد على الصلة الوثيقة الراهنة بلينين، إن اللينينية وان فشلت، "كانت هناك شرارة طوباوية تستحق المحافظة عليها". وشدد كذلك على أهمية تفحص الأحداث الثورية "الفاشلة" ومن بينها كومونة باريس، وثورة أكتوبر، والثورة الصينية. ولاحظ في كتابه الأخير "في الدفاع عن القضية الضائعة" أن "فحصاً للفشل أمر يواجهنا ارتباطاً بقضية الأمانة: كيف يمكن أن نعالج الأمانة الكامنة في هذه الأعمال الفاشلة من دون الوقوع في الفخ المزدوج: النوستالجيا التي ترتبط بالماضي، والبريق الساطع لكل ما يشبع الذات في "الظروف الراهنة" (زيزك، 2008). إن ملاحظة زيزك بشأن القيادة الواضحة للعجلة ذات الحصان الواحد ملاحظة سليمة، لكن يتعجل كثيراً في وسم هذه الأحداث الثورية بالفشل.

لا تزال هناك قضية أخرى. إن (زيزك) في محاولته معالجة الانعتاق المحتمل في "الفشل" الثوري، أظهر اتجاها نحو استبدال التحليل التاريخي والمؤسساتي بالتحليل النصي. إن فحصه الشيوعية الصينية والثورة الثقافية التي هي مناقشة مثيرة للجدل في مستويات عديدة، يركز في الدرجة الأولى، على كتابات ماو. مثل هذا الانشغال أمر مشروع طالما كان غرضه نقد فلسفة ماو. ولكن حين يشخص (زيزك) كنقطة سوداء في تفكير ماو النظري ـ رفضه القبول بـ "نفي النفي" الذي استخدم في توضيح استعادة الرأسمالية في الصين، فان منطقه التوضيحي مسدود بشكل خطير بالنسبة الى أولئك الذين يزعمون أن أعمال وتفكير الأفراد العظام هي التي ترسم التأريخ. فالمرء لا يستطيع أن يعالج احتمالات "الشيوعية القائمة عملياً" بمجرد الانشغال بكتابات القادة الثوريين العظام. إذ لا يمكن علاجها ما لم يتفهم المرء كيف أن الظروف التاريخية التي تحيط بكوامن المسألة تعيق تحقيقها. ولفعل ذلك من الضروري فحص ديناميات النقاش السياسي، وكذلك التركيبات الاجتماعية والاقتصادية الخاصة بتلك الظروف التاريخية.

إن الفشل الذي حاق بالمبادئ الاشتراكية التي سادت في الشيوعية الصينية، قبل 1978 كان يرتبط بالظرف التاريخي الذي صيغت فيه هذه المبادئ أولاً. ومن ملامح الوضع الذي عمل كمثبط كان ضرورة الحداثة في إطار عالمي، حيث تظل الرأسمالية هي المهيمنة. وحين كان يجري التخلي عن المبادئ الاشتراكية لمرحلة أقدم فان نموذجاً على الحداثة غير المقيدة ينال قوة كاملة، وهذا من شأنه أن ينعكس في تقديس أعمى لنمو الدخل القومي. وفي هذا الصدد يحسن تذكر وصف (والتر بنيامين أنجيلوس نونس)، احد الملائكة في لوحات بول كلي.

عيونه تحدق وفمه فاغر وأجنحته منبسطة. هكذا صُوِّر ملاك التأريخ. وجهه يستدير نحو الماضي حيث ندرك سلسلة من الأحداث، ويرى الى كارثة واحدة فقط يتكرس فيها حطام السفينة على بعضه ويقذفه به أمام الأقدام. والملاك يود أن يظل ليوقظ الموتى، ويعيد ما أصابه الدمار. إلا أن عاصفة تهب من الجنة، وتبسط جناحيه حتى لا يعود قادراً على ضمهما ثانية. هذه العاصفة تدفع به بقوة نحو المستقبل الذي كان قد أدار له ظهره، فيما كان حطام السفينة يتكدس أمامه الى عنان السماء. هذه العاصفة هي ما ندعوه بالتقدم.

أوليس هذا الخطاب المفتوح، ونداؤه للتمسك بالمبادئ الجوهرية الأربعة محاولة – بالتأكيد – لتوجيه الحركة نحو مستقبل كارثي؟

الهوامش

(1) مثقف بريطاني شهير، ولد في عام1921 وتوفي عام 1988. احد ابرز العناصر في وسط السياسي الجديد. وكان ذا تأثير في الوسط الثقافي البريطاني. المترجم

(2) ثيودور أدورنو(1903-1969) سوسيولوجي وفيلسوف الماني، كان احد أهم الفلاسفة والنقاد الاجتماعيين والموسيقيين في المانيا بعد الحرب العالمية الثانية. المترجم

(3) ماكس هوركهايمر (1895–1973) فيلسوف وعالم اجتماع ألماني. وكان الى جانب ماركوزه من مؤسسي مدرسة فرانكفورت في الفلسفة والنقد الاجتماعي. المترجم

(4) سلافوي زيزك، أستاذ فلسفة، وأستاذ في الإعلام واحد دعاة تسييس الاقتصاد البارزين (المترجم)

رأسمالية الدولة
عصر يتشكل
هل هو نهاية السوق الحرة؟ *

د. ايـــان بـــريمـــر
تـرجمـة: د. هـاشم نعمـة

أستاذ جامعي وباحث، حصل على البكالوريوس في علم الجغرافية من كلية الآداب جامعة البصرة عام 1974. نال شهادة الدكتوراه التخصص الدقيق الجغرافية السكانية والدراسات السكانية من أكاديمية العلوم الهنغارية عام 1989. عمل في التدريس والبحث العلمي في المدارس الثانوية ومعاهد المعلمين والجامعات ومراكز البحث العلمي في العراق والمغرب وليبيا وهولندا. شارك في عدد من المؤتمرات والندوات في العديد من الدول. نشر العديد من الكتب والدراسات والبحوث والمقالات ومراجعات الكتب وله ترجمات من اللغة الانكليزية إلى اللغة العربية. عضو الهيئة الاستشارية لمجلة مقاربات الأكاديمية التي تصدر في المغرب.

ايان بريمر دكتوراه في العلوم السياسية من جامعة ستانفور. حاليا، يُدرِّسُ في جامعة كولومبيا في الولايات المتحدة. درَّسَ في معهد الشرق والغرب ومعهد السياسة الدولية عام 2007. تركز بحوثه على اتجاهات السياسة الدولية والأسواق الناشئة. ألف عدة كتب منها كتابه الأخير بعنوان "نهاية السوق الحرة: من يربح الحرب بين الدول والشركات؟" الذي صدر عام 2010

في الولايات المتحدة، وأوروبا، والكثير من دول العالم المتقدم، تهدف الموجة الأخيرة من تدخل الدولة التخفيف من أضرار الركود الاقتصادي العالمي الحالي واستعادة الاقتصاديات المريضة لعافيتها. ولا تتجه أكثرية حكومات الدول المتقدمة لإدارة اقتصادياتها بشكل غير محدد. ويكمن وجود معارضة لهذا الاتجاه في طبيعة التدخلات المماثلة في العالم النامي: حيث تبسط الدولة يدها بقوة على الاقتصاد مما يشير إلى

رفض إستراتيجي لعقيدة السوق الحرة.

الحكومات، ليست طرفاً مساهماً خاصاً فقط، فهي قبل هذا الوقت، كانت تملك أكبر شركات النفط في العالم وتسيطر على ثلاثة أرباع احتياطيات الطاقة. وهناك شركات أخرى تابعة للدولة أو متحالفة معها تتمتع بقوة تسويقية متنامية في القطاعات الاقتصادية الرئيسة في الاقتصاديات الأسرع نموا في العالم. وتشكل "صناديق الثروة السيادية،" المصطلح الذي صيغ في الآونة الأخيرة عن المحافظ الاستثمارية المملوكة للدولة، نسبة الثمن من مجموع الاستثمارات العالمية، وهذه النسبة العائدة لها آخذة في الزيادة. هذه الاتجاهات تعيد تشكيل السياسة الدولية والاقتصاد العالمي بواسطة تحويل وبشكل متزايد مفاصل القوة الاقتصادية الكبيرة والتأثير أو النفوذ إلى السلطة المركزية للدولة. وبهذا فهي تغذي ظاهرة كبيرة ومعقدة لرأسمالية الدولة.

قبل أقل من 20 عاما، بدا الوضع مختلفاً كثيراً. حيث بعد انهيار الإتحاد السوفيتي تحت وطأة تناقضاته الداخلية العديدة، تحركت قيادة الكرملين الجديدة بسرعة لتبني النموذج الاقتصادي الغربي. ودافعت الحكومات الحديثة للجمهوريات السوفيتية السابقة والأقمار الصناعية عن القيم السياسية الغربية وبدأت بالانضمام إلى تحالفاتها.

لكن أنحسر الآن مد السوق الحرة. وحلت محلها رأسمالية الدولة، المتمثلة بالنظام الذي من خلاله تكون وظائف الدولة الفاعل الاقتصادي القائد وتستخدم الأسواق في المقام الأول لتحقيق مكاسب سياسية. وقد أشعل هذا الاتجاه منافسة عالمية جديدة، ليس بين الأيديولوجيات السياسية المتنافسة لكن بين النماذج الاقتصادية المتنافسة. ومع زج السياسة في صنع القرار الاقتصادي، تظهر مجموعات مختلفة تماماً من الفائزين والخاسرين.

خلال الحرب الباردة، كانت القرارات المتخذة من قبل مديري القطاعات الاقتصادية السوفيتية والصينية المتسمة بالأوامرية تمتلك تأثيراً قليلاً على الأسواق الغربية. لكن اليوم في الأسواق الناشئة التي لم تكن قد ظهرت بعد، يتخذ موظفو الدولة في أبو ظبي، أنقرة، بكين، برازيليا، مدينة مكسيكو، موسكو ونيودلهي القرارات الاقتصادية– الخاصة بالاستثمارات الإستراتيجية، وملكية الدولة، والتنظيم– التي يتردد صداها في الأسواق العالمية. إن التحدي الذي يشكله هذا التوجه التجاري القوي لرأسمالية الدولة قد شحذته الأزمة المالية العالمية والركود العالمي. والآن، أثبت أنصار التجارة الحرة والأسواق المفتوحة بأن قيمة هذه الأنظمة مشكوك فيها على نحو متزايد من قبل الجماهير على مستوى العالم.

لرأسمالية الدولة أربع جهات فاعلة رئيسية هي: شركات النفط الوطنية والشركات المملوكة للدولة، والشركات الوطنية التابعة للقطاع الخاص والنصيرة للدولة، وصناديق الثروة السيادية.

عند التفكير في شركات النفط الكبرى، يفكر معظم الأمريكيين أولاً بالشركات المتعددة الجنسية مثل (برتش بتروليوم)، (شيفرون)، (اكسون موبيل)، (شيل)، أو (توتال). لكن أكبر13 شركة نفط في العالم، تقاس باحتياطياتها مملوكة وتدار من قبل الشركات الحكومية مثل (ارامكو) السعودية؛

وشركة النفط الوطنية الإيرانية؛ وشركة بترول فنزويلا؛ و (غازبروم وروسنفت) الروسية؛ وشركة النفط الوطنية الصينية؛ و (بتروناس) الماليزية؛ و (بتروبراس) البرازيلية. مثل هذه الشركات التابعة للدولة تسيطر على أكثر من 75% من احتياطي وإنتاج النفط العالمي. بعض الحكومات، ومن خلال اكتشافها للنفوذ الذي يأتي من هيمنة الدولة على موارد الطاقة، وسّعت من سيطرتها على المصادر الإستراتيجية الأخرى. أما الشركات المتعددة الجنسية التابعة للقطاع الخاص فهي تنتج الآن فقط 10%من إنتاج النفط في العالم وتملك فقط 3% من احتياطياته. وفي الكثير من مناطق العالم، يتحتم عليها الآن إدارة علاقاتها مع الحكومات التي تملك وتدير أكبر وأفضل المنافسات التجارية العائدة لها من ناحية التمويل.

في قطاعات مختلفة مثل الصناعة البتروكيمياوية، توليد الطاقة، التعدين، إنتاج الحديد والصلب، إدارة الموانئ والنقل البحري، صناعة الأسلحة، السيارات، المكائن الثقيلة، الاتصالات السلكية واللاسلكية، والطيران، لم يعد عدد متنامي من الحكومات يكتفي بكل بساطة بتنظيم السوق. بدلاً من ذلك، فهي تريد استخدام السوق لدعم مواقفها السياسية المحلية. حيث تساعد الشركات العائدة للدولة في تحقيق ذلك، جزئياً، بواسطة دمج أو توحيد القطاعات الصناعية بأكملها. أن شركات مثل (إنديامًا) في أنغولا (الماس)، (ازرانيرجي) في أذربيجان (توليد الكهرباء)، (كازاتومبروم) في كازاخستان (اليورانيوم)، والمكتب الشريف للفوسفات في المغرب – العائدة للدولة هي الآن أكبر اللاعبين المحليين في القطاعات الخاصة بكل منها. وقد نمت بعض الشركات العائدة للدولة بشكل خاص نموا هائلا، وعلى الأخص شركة الهاتف الثابت واحتكارات تصدير الأسلحة في روسيا؛ واحتكار الألمنيوم، والاحتكار الثنائي لنقل الطاقة والشركات السلكية واللاسلكية الرئيسة وشركات الطيران في الصين؛ والسكك الحديدية في الهند، التي تعد من بين أكبر أرباب العمل في العالم في القطاع غير العسكري، حيث تشغل ما يزيد على 1.4 مليون مستخدم.

إن الاتجاه الأكثر حداثة قد عمل على تعقيد هذه الظاهرة. في بعض الدول النامية، الشركات الكبيرة التي بقيت في قبضة القطاع الخاص تعتمد على دعم الحكومة المتمثل بالقروض، والعقود، والإعانات. هذه الشركات الوطنية عائدة للقطاع الخاص ونصيرة للدولة لكن الحكومة تفضل أن تبقى منفصلة عنها، حيث ترى في ذلك وسيلة للمنافسة مع مثيلاتها من الشركات الأجنبية التجارية البحتة، وبالتالي فهي قادرة على اختيار دور مهيمن في الاقتصاد المحلي وفي أسواق التصدير. وفي المقابل، فإن هذه الشركات تستخدم نفوذها مع حكوماتها لتلتهم المنافسين الأصغر على المستوى المحلي، ومن ثم فإن هذا يعزز من قوتها باعتبارها أحد أعمدة رأسمالية الدولة.

في روسيا، يجب أن تكون للمشاريع التجارية الكبيرة علاقات مرضية أو ملائمة مع الدولة كي تنجح. ويتم التحكم بالشركات الوطنية النصيرة للدولة من قبل مجموعة صغيرة من الاولغارشية التي من الناحية الشخصية تعمل لصالح الكرملين. حيث

تندرج تحت هذه الفئة شركات (نوريلسك) للنيكيل (التعدين)؛ (نوفوليبتسك) للصلب و (هـــولـــدنـك) (المعـــادن)؛ و (افـــراز)، (سيفيرستال)، و (ميتالونفيست) (الصلب). في الصين، ينطبق الشيء نفسه، وأن كان على نطاق أوسع، حيث أصبحت إمبراطورية (افيك) (الطائرات)، (هواوي) (المواصلات السلكية واللاسلكية)، و (لينوفو) (للكمبيوتر) جميعها شركات عملاقة تحظى بدعم الدولة وتديرها دائرة صغيرة من رجال الأعمال ذوي الحظوة والنفوذ.

وقد نشأت في أماكن أخرى من العالم أشكال مختلفة من الشركات العائدة للقطاع الخاص لكن الحكومة تفضل متابعتها أو دعمها، بما في ذلك، في الدول التي ما تزال نسبيا تتبع اقتصاد السوق الحرة مثل شركات: (سيفيتال) (الصناعات الزراعية) في الجزائر، (فال) (التعدين) في البرازيل، (تاتا) (السيارات، الصلب والكيمياويات) في الهند، (تنوفا) (اللحوم والدواجن) في إسرائيل، (سوليدير) (الإنشاءات) في لبنان، وشركة (سان ميغيل) (الغذاء والمشروبات) في الفلبين.

يعود جزء من مهمة تمويل هذه الشركات إلى صناديق الثروة السيادية وهذه بدورها عملت بدرجة كبيرة على توسيع هذه الصناديق من ناحية الحجم والأهمية. وتعرف الحكومات بأنها لا تستطيع تمويل الشركات الوطنية النصيرة لها بسهولة بواسطة طبع المزيد من العملة؛ حيث سيؤدي التضخم في نهاية المطاف إلى تآكل أصولها. ويمكن أن يولد الإنفاق المباشر من ميزانية الدولة عجزاً في المستقبل إذا تدهورت الأوضاع الاقتصادية. لذلك، لعبت صناديق الثروة السيادية دوراً أكبر في هذا الجانب. وهي في الواقع تمثل مستودعات للعملة الأجنبية الفائضة المحصل عليها من تصدير السلع أو البضائع المصنعة.

لكن هذه الصناديق هي أكثر من كونها مجرد حسابات مصرفية. فهي صناديق استثمارات عائدة للدولة مع محافظ مختلطة من العملات الأجنبية، والسندات الحكومية، والعقارات، والمعادن الثمينة، وحصص مباشرة في- وأحيانا تملك غالبية – عدد كبير من الشركات المحلية والأجنبية. ومثل كل الصناديق الاستثمارية، فإنها تتطلع لتحقيق أقصى العائدات. لكن بالنسبة إلى رأسمالي الدولة، هذه العائدات، يمكن أن تتمتع بأهمية سياسية إضافة إلى أهميتها الاقتصادية.

ورغم اكتساب صناديق الثروة السيادية شهرة في السنوات الأخيرة، لكنها لم تكن جديدة أبداً.

حيث تأسست هيئة الاستثمار الكويتية، عام 1953 وهي الآن رابع أكبر صناديق الثروة السيادية في العالم. لكن مصطلح "صندوق الثروة السيادي" كان أول ما صيغ عام 2005، مما يعكس اعترافاً بالأهمية المتزايدة لهذه الصناديق. ومنذ ذلك الحين، انضم عدد آخر من البلدان لهذه الصناديق: دبي، وليبيا، وقطر، وكوريا الجنوبية، وفيتنام.

إن أضخم صناديق الثروة السيادية هي تلك الموجودة في إمارة أبو ظبي، والسعودية والصين،إضافة إلى روسيا التي تبحر للحاق بالركب. وتمثل النرويج البلد الديمقراطي الوحيد بين البلدان التي توجد بها أكبر عشرة صناديق للثروة السيادية في العالم.

علاقات وثيقة

إحدى الملامح الأساسية لرأسمالية الدولة هي وجود علاقات وثيقة تربط معاً بين الأشخاص الذين يحكمون البلد والذين يديرون شركاته. فرئيس وزراء روسيا السابق، ميخائيل فرادكوف، هو الآن رئيس شركة (غازبروم)، المحتكرة للغاز الطبيعي في روسيا. والرئيس السابق لغازبروم، (دميتري ميدفيديف)، هو الآن رئيس روسيا. ديناميكية الزبون- صاحب العمل هذه قد أدخلت السياسة، والسياسيين، والبيروقراطية في عملية صنع القرار الاقتصادي إلى حد لم يسبق له مثيل منذ الحرب الباردة. وتثير هذه الديناميكية العديد من المخاطر بالنسبة لأداء الأسواق العالمية.

أولاً: إن ترك أغلب القرارات التجارية، بيد البيروقراطية السياسية، التي تمتلك خبرة قليلة بإدارة العمليات التجارية بفعالية، غالباً، ما يجعل وضعية الأسواق أقل تنافسية ومن ثم، أقل إنتاجية. ولكن بسبب تمتع هذه الشركات بدعم الراعي السياسي القوي وبسبب أن مميزاتها التنافسية تأتي من إعانات الدولة، لذلك فهي تشكل تهديداً كبيراً ومتنامياً لمنافسيها من القطاع الخاص.

ثانياً، قد تكون الدوافع التي تقف وراء قرارات الاستثمار سياسية بدلاً من كونها اقتصادية. فمثلاً تعرف قيادة الحزب الشيوعي الصيني، أن إحداث الازدهار الاقتصادي ضروري للحفاظ على السلطة السياسية. لذلك فإنها ترسل شركات النفط الوطنية الصينية إلى الخارج لتأمين إمدادات النفط والغاز لفترة طويلة والتي تحتاجها الصين لتغذية توسعها الاقتصادي المستمر. وبفضل التمويل الحكومي، تمتلك شركات النفط الوطنية المزيد من الأموال للإنفاق مقارنة بمنافسيها في القطاع الخاص- وهي تدفع أثماناً أعلى من أسعار السوق للوصول إلى اتفاقيات ثابتة وطويلة الأجل. وإذا احتاجت هذه الشركات إلى المزيد من المساعدات، فإن القيادة الصينية تكون قادرة على اتخاذ خطوات تتمثل بالتعهد بمنح القروض الإنمائية للبلد المورد.

إذا ارتبطت المشاريع التجارية والصناعية ارتباطا وثيقا بالسياسة، آنذاك، فإن عدم الاستقرار المحلي الذي يهدد النخب الحاكمة- وبشكل أكثر تحديدا، تحديدها للمصالح الوطنية وأهدافها السياسية الخارجية – يبدأ يكتسب أهمية أكبر بالنسبة للأعمال التجارية. وبالنسبة للأجانب، أصبح الفهم الجيد للدوافع السياسية يشكل إستراتيجية المواجهة. وقد تعلم الكثير من شركات القطاع الخاص التي تمارس الأعمال التجارية في الأسواق الناشئة قيمة استثمار المزيد من الوقت في سبيل إقامة علاقات وثيقة مع القادة الحكوميين الذين يمنحون العقود الكبرى ومع البيروقراطيين الذين يشرفون على تنفيذ الأطر القانونية والتنظيمية. وبالنسبة للشركات المتعددة الجنسية، يمثل هذا الأمر هدراً للوقت والمال ويبدو وكأنه ترفاً في وقت الركود العالمي، لكن من أجل حماية استثماراتها في الخارج وأسهمها في الأسواق، فإنها لا تستطيع أن تفعل خلاف ذلك.

تدخل الدولة

بدأت رأسمالية الدولة بالتبلور خلال أزمة النفط عام 1973، وذلك عندما أتفق أعضاء

منظمة الدول المصدرة للنفط (أوبك) على وقف أو خفض إنتاج النفط رداً على دعم الولايات المتحدة لإسرائيل في حرب يوم الغفران. وتقريبا، بين عشية وضحاها، أصبحت السلعة الأكثر أهمية في العالم سلاحاً جيوبولتيكيا، وأعطت لحكومات البلدان المصدرة للنفط نفوذاً دوليا لم يسبق له مثيل. وكأداة سياسية، أستخدم وقف إنتاج (أوبك) للنفط باعتباره حظراً ضد بلدان معينة– خصوصاً الولايات المتحدة وهولندا. وكظاهرة اقتصادية، عكست أزمة النفط اتجاه التدفق السابق لرأس المال، والذي فيه تشتري الدول المستهلكة للنفط، دائماً، أكبر الكميات من النفط الرخيص وبدورها تبيع البضائع إلى البلدان المصدرة للنفط بأسعار تضخمية. ومن وجهة نظر أعضاء أوبك، فقد وضعت الأزمة نهاية لعقود من العجز السياسي والاقتصادي ولعهد الاستعمار نفسه.

لقد أظهرت أزمة النفط بأن منتجي النفط ومن خلال العمل الموحد، يمكنهم أن يسيطروا على مستويات الإنتاج ومن ثم الحصول على حصة أكبر من العائدات المتولدة من قبل شركات النفط الغربية الرئيسة. وثبت بأن هذه العملية أسهل في الحالات التي تتمكن فيها الحكومات الوطنية من استخدام الشركات المحلية لاستخراج وتصفية النفط. وفي الوقت المناسب، أصبحت شركات النفط الوطنية تحت سيطرة حكومية أكبر (ارامكو السعودية، مثلاً، لم تؤمم بشكل كامل حتى عام 1980) وفي النهاية ضاع مجد نظرائها من الشركات الغربية المملوكة للقطاع الخاص. وقد عنت أزمة النفط بالنسبة لشركات النفط الوطنية الحديثة، ولادة نموذج أصبح من ذلك الوقت واسع الانتشار وطبق على قطاع الغاز أيضاً.

وبدأت الموجة الثانية من رأسمالية الدولة خلال الثمانينات، مدفوعة بصعود البلدان النامية التي تسيطر فيها الحكومات التي تؤمن بقيم الدولة المركزية والتقاليد. في الوقت نفسه، سبب انهيار الحكومات المعتمدة على اقتصاديات التخطيط المركزي موجة من الطلب العالمي على فرص تنظيم المشاريع وتحرير التجارة. هذا الاتجاه، بدوره، أحدث أو نشّط النمو السريع والتصنيع في العديد من البلدان النامية خلال التسعينات. و تحركت بلدان مثل البرازيل، والصين، والهند، والمكسيك، وروسيا، وتركيا، جنبا إلى جنب مع بلدان في جنوب شرق آسيا والكثير من البلدان الأخرى، بسرعة مختلفة على طريق التحول من بلدان نامية إلى متقدمة.

رغم أن الكثير من هذه البلدان ذات الأسواق الناشئة لم تكن جزءاً من الكتلة الشيوعية، لكنها تملك تاريخاً من مشاركة الدولة الكثيفة في إدارة اقتصادياتها. في بعض هذه البلدان، من الناحية العملية، تمتعت مشاريع رئيسية قليلة، غالباً ما تكون ملكيتها ذات طابع عائلي، بالاحتكار في القطاعات الإستراتيجية. والملاحظ، بعد الحرب العالمية الثانية، إن دولاً مثل الهند زمن (نهرو)، وتركيا بعد (أتاتورك)، والمكسيك تحت حكم الحزب الثوري المؤسسي، والبرازيل تحت حكم تناوب الحكومات العسكرية والقومية لم تتقبل أبدا بشكل كامل وجهة النظر الرأسمالية القائلة بأن الأسواق الحرة فقط تستطيع أن تنتج

الازدهار الدائم. حيث تميل المعتقدات السياسية لهذه الأنظمة إلى الفكرة القائلة بأن قطاعات اقتصادية معينة يجب أن تبقى تحت الإدارة الحكومية، على الأقل لتجنب استغلال الرأسماليات الغربية.

عندما بدأت هذه البلدان ذات الأسواق الناشئة بتحرير اقتصادها، تبنت فقط جزئياً مبادئ السوق الحرة. بسبب أن المسؤولين الرسميين والمشرعين الذين أدخلوا الإصلاحات الجزئية أمضوا سنوات التكوين في مؤسسات التعليم الحكومية التي أنشئت لنشر القيم الوطنية كما هي محددة من قبل الدولة. في معظم هذه البلدان، ترافق التقدم الاقتصادي مع القليل من الشفافية وحكم أضعف للقانون مقارنة مما كان عليه الحال في الديمقراطيات المنشأة للسوق الحرة. النتيجة، ليس من المستغرب أن يكون إيمان الجيل الجديد في قيم السوق الحرة محدوداً. ونظراً لقلة خبرة المؤسسات الحكومية، نسبياً، تتمتع المسائل السياسية في دول الأسواق الناشئة، على الأقل، بنفس قدر أهمية الأمور الاقتصادية الأساسية المتعلقة بأداء الأسواق. من جانبها، لاحظت حكومات العالم الغني ذلك قليلاً، بسبب أن البلدان المذكورة تملك القليل من التأثير أو ليس لها تأثير في الأسواق الدولية.

تميزت الموجة الثالثة من رأسمالية الدولة بصعود أهمية صناديق الثروة السيادية، والتي بدأت عام 2005 بتحدي الهيمنة الغربية على تدفق الرأسمال العالمي. احتياطيات رأس المال هذه نتجت من الزيادة الضخمة في الصادرات من البلدان ذات الأسواق الناشئة. وقد استمرت إدارة معظم صناديق الثروة السيادية بيد المسؤولين الحكوميين، الذين يتعاملون مع تفاصيل مستويات الاحتياطي، والاستثمارات، وإدارة موجودات الدولة كشيء أقرب إلى أسرار الدولة. النتيجة، ليس من الواضح إلى أي مدى تُستثمر هذه الصناديق ثم أن اتخاذ القرارات يتأثر بالاعتبارات السياسية.

يقود صندوق النقد الدولي الآن جهوداً لتوفير أعلى مستويات الشفافية والاتساق في عمل صناديق الثروة السيادية، لكن مثل هذه المحاولات سوف لا تتكلل بالمزيد من النجاح أكثر مما يفعله معظم الترتيبات الطوعية. إن صناديق الثروة السيادية التي لا تتسم بالشفافية، خصوصا، ستبقى غامضة ومبهمة، وسيستمر القادة السياسيون بإدارتها من أجل ربح كل من المكاسب السياسية والمالية. وكتبرير أو تسويغ، يمكن أن يشير مدراء الصناديق بشكل معلن وعلى شكل دعوات سياسية إلى التجرد وبأن عملها يسير وفقا لصناديق الثروة السيادية الغربية المشابهة، مثل صندوق التقاعد الحكومي في النرويج أو نظام تقاعد المستخدمين العام في كاليفورنيا.

الموجة الرابعة من رأسمالية الدولة وصلت الآن، وتسارعت بسبب تباطؤ النمو الاقتصادي العالمي الأخير. لكن في هذا الوقت، تدخلت حكومات أغنى البلدان في العالم، في اقتصادياتها وليس فقط حكومات بلدان الأسواق الناشئة. ففي الولايات المتحدة، تدخل المشرعون في الاقتصاد على الرغم من عدم ثقة الجماهير، تاريخياً، بالحكومة وثقتها بالمؤسسات الخاصة. وقد حذت حذوها أستراليا، واليابان، وغيرها من الأسواق الحرة التي تتمتع بوزن كبير.

وأما البلدان الأوروبية، ذات التوجهات

الدولانية statism ** والديمقراطية الاجتماعية فجعلت من التأميم وعمليات الإنقاذ أو الضمان أكثر قبولاً من الناحية السياسية.

ومع ذلك، لم تتبنَ القوى الصناعية القائدة في العالم رأسمالية الدولة بدون تحفظات. ففي الولايات المتحدة وأوروبا، لا تزال قوة اليد الخفية تشكل مادة للإيمان. وتعرف الحكومات في جانبي المحيط الأطلسي أنه من أجل المحافظة على التأييد الشعبي، يجب عليها أن تحافظ على وعودها بإعادة القطاع المصرفي والشركات الكبيرة إلى أيدي القطاع الخاص بمجرد استعادة صحتها. ولكن ما دامت الحوافز الاقتصادية تأتي في طليعة الاعتبارات السياسية في واشنطن، وفي جميع أنحاء أوروبا، والصين، والهند، وروسيا، سيظل صانعو القرار السياسي في مركز النظام المالي العالمي. ومن أجل ضخ الأموال في الاقتصاد أولاً، سينقذ وزراء المالية والخزانة المصارف والشركات الخاصة، بضخ السيولة، وطباعة النقود، ببساطة لأنه لا يمكن لأي طرف آخر أن يعمل ذلك. في الواقع، القليل من المصارف المركزية، تتمتع بالاستقلالية، وهي لم تعد مقرض الملاذ الأخير، أو حتى إذا كانت مقرض الملاذ الأول ؛ فهي تكون مقرضة فقط. هذا التطور أنتج تحولاً مفاجئاً ومهماً في مركز ثقل القوة المالية العالمية.

حتى وقت قريب جداً، كانت (نيويورك) العاصمة المالية للعالم، لكنها لم تعد الآن حتى عاصمة مالية للولايات المتحدة. هذه الحقيقة، باتت معروفة الآن في (واشنطن)، حيث يتخذ أعضاء الكونغرس والسلطة التنفيذية القرارات ذات التأثير البعيد المدى في السوق على نطاق لم يسبق له مثيل منذ عقد الثلاثينات. وهناك تحول مماثل يأخذ طريقه في كل مكان من العالم فيما يتعلق بالمسؤولية الاقتصادية: من (شنغهاي) إلى (بكين)، ومن (دبي) إلى (أبو ظبي)، ومن (سدني) إلى (كانبيرا)، ومن (ساو باولو) إلى (برازيليا)، وحتى في الهند التي تتمتع نسبياً باللامركزية، من (مومباي) إلى (نيودلهي). وفي لندن، وموسكو، وباريس، حيث يتعايش المال والسياسية، يحدث نفس التحول نحو الحكومة.

من المرجح أن تنشأ اقتصاديات رأسمالية الدولة نتيجة تباطؤ النمو العالمي مع تحكم غير مسبوق في مستوى النشاط الاقتصادي. حيث نرى الصين وروسيا تدعما كلا من شركاتها العائدة للدولة والشركات الوطنية التابعة للقطاع الخاص والنصيرة للدولة للخروج من المأزق. وتعملا لصالح دمج الصناعات الرئيسة من أجل خفض التكاليف. وفي أعقاب هبوط أسعار النفط من147 دولار للبرميل في تموز 2008 إلى أقل من 40 دولاراً في شباط 2009، واجهت روسيا أول عجز في الميزانية منذ عقد من الزمن. بينما حصلت الصين، البلد المستورد والمستهلك الرئيس للنفط، على بعض الفوائد من هبوط أسعار النفط، لكن تباطؤ النمو العالمي ترك حكومتي البلدين عرضة لارتفاع البطالة مترافقاً مع اضطرابات اجتماعية. وقد استجابت الحكومتان على حد سواء، لمعالجة الجزء الأكبر من الأزمة، من خلال ممارسة سيطرة الدولة على الاقتصاد والتي لا تزال تتسم بالشدة.

رغم الركود العالمي، فإن صناديق الثروة

السيادية، اللاعبة الاقتصادية الرئيسة السابقة، وجدت لتبقى إلى المستقبل القريب. رغم انخفاض مجموع القيمة الصافية العائدة لها من تقدير عال حوالي 4 تريليون دولار عام 2007 إلى أقل من 3 تريليون دولار في نهاية عام 2008، هذا الرقم الأخير لا يزال يقترب من مجموع الممتلكات العالمية من النقد الأجنبي العائد للمصارف المركزية ويتجاوز الأصول المشتركة المشغلة أو المملوكة من قبل جميع صناديق الوقاية من الخسارة المالية في جميع أنحاء العالم. وتشكل حسابات صناديق الثروة السيادية حوالي 12%من مجموع الاستثمارات العالمية، وهي ضعف الرقم مقارنة بقبل خمس سنوات. ومن المقرر أن يستمر هذا المسار، ويقدر بعض التوقعات الموثوق بها قيمتها المرجحة عند 15 تريليون دولار عام 2015.

باختصار، رغم الأزمة المالية العالمية، لا تزال شركات النفط الوطنية تسيطر على ثلاثة أرباع الموارد الأولية الإستراتيجية في العالم، ولا تزال الشركات العائدة للدولة والشركات الوطنية المملوكة للقطاع الخاص والنصيرة للدولة تتمتع بميزات تنافسية أساسية على منافسيها من القطاع الخاص، ولا تزال صناديق الثروة السيادية تفيض بالسيولة النقدية. هذه الشركات والمؤسسات، حقاً، أكبر من أن تتعرض للفشل.

إن تدخلاً أعمق للدولة في الاقتصاد يعني بأن تبديد البيروقراطية، وعدم الكفاءة، والفساد من المرجح أن تكبح النمو.

وتكون هذه الأعباء أشد في الدولة الاستبدادية، حيث يتمتع المسؤولون السياسيون بالحرية في اتخاذ القرارات التجارية دون تدقيق أو مراقبة من قبل الصحافة الحرة أو الوكالات التنظيمية السياسية المستقلة، أو المحاكم، أو المشرعين. ومع ذلك، فإن الركود العالمي المستمر قد قوض الثقة العالمية في نموذج السوق الحرة. وأيا كان السبب الحقيقي للأزمة، فإن حكومات الصين، وروسيا، ودول أخرى لديها أسباب مقنعة لتوجيه اللوم للرأسمالية على النمط الأمريكي عن أسباب التباطؤ الاقتصادي. حيث أن هذا اللوم يسمح لها تجنب تحمل المسؤولية عن ارتفاع البطالة وانخفاض الإنتاجية في بلدانها والدفاع عن التزامها برأسمالية الدولة، التي بدأت كنظام قبل وقت طويل من بدء الأزمة الحالية.

ورداً على ذلك، يجب على صانعي القرار السياسي في الولايات المتحدة أن يحاولوا بيع قيمة الأسواق الحرة، على الرغم من أن تنفيذ هذه الخطوة يمثل لحظة صعبة. وفي حالة تحول (واشنطن) إلى نظام الحماية والاحتفاظ بقبضة شديدة على النشاط الاقتصادي لفترة طويلة جداً، فإن الحكومات والمواطنين في جميع أنحاء العالم سترد بالمثل، إن المخاطر كبيرة، بسبب إدخال السياسة الشعبوية على نطاق واسع في التجارة الدولية والاستثمار سيعرقل الجهود الرامية لتنشيط التجارة العالمية ويحد من النمو مستقبلاً. فسياسة الحماية تولد الحماية، وسياسة الإعانات تنجب الإعانات. فقد فشلت جزئياً محادثات (جولة الدوحة) للتجارة العالمية عام 2008 بسبب إصرار الولايات المتحدة والإتحاد الأوروبي على استمرار العمل بالرسوم الجمركية الزراعية العالية ورغبة الصين والهند بحماية كل من مزارعيها وبعض صناعاتها التي لا تزال

ناشئة، والتي لا يمكن أن تتنافس حتى الآن من تلقاء نفسها. إن جمود محادثات الدوحة كلفت بالفعل مئات المليارات من الدولارات التي يحتمل أن تنتج من زيادة التجارة العالمية.

بدأت نشاطات حمائية أخرى تؤثر في التجارة الدولية. فقد أعادت الصين العمل بنظام الإعفاءات الضريبية لمصدرين معينين. وحصرت روسيا الاستثمار الأجنبي في 42 "قطاعاً استراتيجياً" وفرضت رسوماً جديدة على السيارات المستوردة، وعلى لحوم الخنازير والدواجن. وفرضت اندونيسيا رسوماً جمركية على الواردات وقيوداً على منح التراخيص على أكثر من 500 نوع من المنتجات الأجنبية. وأضافت الهند فرض ضريبة 20 بالمائة على استيراد زيت فول الصويا. وتبحث الأرجنتين والبرازيل علناً فرض رسوم جمركية جديدة على استيراد النسيج والنبيذ. ورفضت كوريا الجنوبية إلغاء الحواجز التجارية أمام استيراد السيارات الأمريكية. وأعلنت فرنسا إنشاء صندوق حكومي لحماية شركاتها المحلية من السيطرة الأجنبية. هناك بالفعل مطالبات من جانب العديد من البلدان في مناطق مختلفة لرفع الرسوم الجمركية إلى أقصى المستويات المسموح بها في إطار جولة أورغواي بشأن الاتفاقية العامة للتجارة والتعريفة الجمركية. و يجري إحلال الاتفاقيات العالمية الشاملة وآليات حل النزاع من خلال التصحيح والعمل بحوالي 200 اتفاقية ثنائية أو إقليمية (200 اتفاقية أخرى أو نحو ذلك هي في العمل.) هذه التجزئة تمنع المنافسة العالمية، وتضر بالمستهلكين، وتضعف النظام الجماعي أو المتعدد الأطراف – كل ذلك في الوقت الذي يحتاج فيه الاقتصاد العالمي إلى تحفيز جديد.

الطريق إلى الأمام

خلقت الأزمة المالية العالمية وهم الوحدة الدولية القائم على خوف خاطئ متمثل بأن الجميع يغرق في نفس القارب. قبل عام، كان الحديث يدور في الدوائر السياسة حول عملية "فصل"، الأزمة الاقتصادية بواسطة قيام الاقتصاديات الناشئة بتطوير قاعدة محلية واسعة للنمو بما فيه الكفاية لتحريرها من الاعتماد على طلب الاستهلاك القادم من الولايات المتحدة وأوروبا. غير أن توقعات الفصل ثبت بأنها سابقة لأوانها. حيث إن المشاكل الاقتصادية التي نَشأت، بدرجة كبيرة، في الولايات المتحدة فرضت بقوة انخفاضاً حاداً في النمو الاقتصادي في العشرات من البلدان النامية من خلال تراجع الطلب على صادراتها.

كن تحت السطح، لا يزال الفصل واضحاً في الأسواق النامية المحلية في البرازيل، والصين، والهند، وروسيا؛ المتمثل في الاستثمارات الحكومية العائدة لهذه البلدان التي تتم في الخارج؛ والتي تعمل على إضفاء الطابع الإقليمي على تدفقات رأس المال؛ وعلى المدى البعيد ستتمكن دول مجلس التعاون الخليجي، وأعضاء رابطة دول جنوب شرق آسيا، وبعض حكومات أمريكا الجنوبية من إصدار العملات الإقليمية القادرة على الحياة ومن ثم تصبح هذه الدول أكثر اعتماداً على الذات.

لم يعد بإمكان الولايات المتحدة أن تعول على الشركاء الاستراتيجيين لشراء ديونها، كما فعلت مع اليابان وألمانيا الغربية في

الثمانينات. حيث يجب عليها الآن أن تعتمد على منافسيها الاستراتيجيين، خصوصاً، الصين التي لا تعتقد بأن الولايات المتحدة قادرة على الاحتفاظ بدورها كمركز اقتصادي عالمي لأجل غير مسمى. وقد ساعدت احتياطات الدولار المدخرة (بكين) على الحفاظ على قيمة العملة الصينية منخفضة، ومن ثم زيادة صادرات الصين وإنتاج فوائض تجارية قياسية. لكن الآن تتمثل أولوية الصين في بناء سوقها المحلي لخلق نموذج جديد من النمو الاقتصادي يعتمد أقل على الصادرات إلى الولايات المتحدة وأوروبا ويعتمد أكثر على طلب المستهلكين الصينيين. وإذا نجحت الصين، عندها سيصبح "الفصل" مصطلح ذو معنى أكثر، وسيكون للصين حافزاً أقل لشراء ديون الولايات المتحدة. وإذا أراد عدد أقل من الدول شراء سندات الخزانة الأمريكية، فإن معدل فائدتها يجب أن يُرفع لجعلها جذابة للمشترين، وهذا سيعني أن مديونية الولايات المتحدة ستستمر لفترة طويلة. وبمجرد أن يبدأ الانتعاش الاقتصادي في الولايات المتحدة، فإنه سيكون بوتيرة أبطأ، وستتسارع عملية تآكل مكانة الدولار باعتباره العملة الاحتياطية في العالم.

وقد تخلص الولايات المتحدة بأن قوتها في ضبط وتعزيز القواعد الاقتصادية في العالم في طريقها للانحسار.

أنها لا تستطيع، على أي حال، أن تتمتع بثقة كبيرة يؤهلها كي تلعب دوراً قيادياً في مجموعة العشرين (مجموعة الدول ذات الاقتصاديات الرئيسة).

هذا المنتدى يشمل الاقتصاديات الناشئة، مثل الصين والهند، التي استُبعدت من مجموعة السبعة (مجموعة الدول الصناعية الكبرى) بسبب الاختلاف الطبيعي بين المصالح الاقتصادية لهذه الدول ومصالح الدول المتقدمة سيكون من الصعب بناء أي توافق في الآراء بشأن أصعب التحديات الاقتصادية.

إن المشكلة تتضخم بسبب ميل السياسيين، في كل من العالم المتقدم والنامي، لتصميم خطط التحفيز لتكون متوافقة مع زبائنهم أو جمهورهم أو دوائرهم الانتخابية، وعدم أخذهم بعين الاعتبار تصحيح الاختلالات الاقتصادية الكبرى.

هل ستبقى رأسمالية السوق الحرة تشكل بديلا مجديا على المدى البعيد؟ سيعتمد هذا الأمر إلى حد كبير على ما يقوم به صانعو القرار السياسي الأمريكي بعد ذلك. ومع هذا فإن رأسمالية الدولة سوف لن تختفي في وقت قريب.

* المادة مترجمة عن مجلة: Foreign Affairs, Volume 88 No. 3, May/ June 2009

** تعني (الدولانية) تركيز السلطة الاقتصادية والتخطيط الاقتصادي في يد الدولة لكن في تقديرنا أن هذا المبدأ لا تطبقه البلدان الأوروبية الرأسمالية إلا بشكل محدود ويبدو أن الكاتب يشير إلى أن الدولانية أكثر استخداماً في أوروبا مقارنة بالولايات المتحدة. (المترجم)

أدب
و
فن

ثلاثي قامات ثقافية جديدة

تغادر منصة الإبداع !!

هيئة تحرير الثقافة الجديدة

خلال الأشهر الأخيرة كان المشهد الثقافي حزينا مجددا، فقد رحل عنا عدد آخر من رموز الثقافة ومبدعيها.

ففي الحادي والعشرين من آب الماضي ترجل عن صهوة حصان الإبداع صاحب (السر) و (الجراد) و(ئاسوس)، و(السؤال)، و (العلبة الحجرية)، و(الأشواك)، و (تكلم يا حجر)، و(زلزلة تسري في عروق الصحراء)، و (شعر بلون الفجر)، والعشرات من النصوص الإبداعية الكبيرة، الكاتب المسرحي الكبير والروائي الأستاذ محيي الدين زنكنة (المولود في كركوك عام 1940)، ملقيا على مدينته (السليمانية) تحيته الأخيرة، راحلا بصمت ومن دون ضجيج كما عودنا دوما متمسكا بالهدوء وبجمرة الإبداع معا.

لقد عرفنا في الأستاذ زنكنة قامة ثقافية كبيرة فهو احد كتاب المسرح العراقي البارزين، ومنجزه الإبداعي يشهد على ذلك حيث يتضمن سجلا باذخا من الانجازات والنصوص التي جعلت منه احد أكثر كتاب المسرح العراقيين ثراء (له أكثر من 22 عملا مسرحيا).

ومنذ عمله الأول (مسرحية السر) التي كتبها عام 1968 كشف محيي الدين زنكنة عن مشروعه الإبداعي وعن جوهر الفكرة التي كان يشتغل عليها، انه الإنسان في مواجهة مشاكل الحياة من اجل الدفاع عن مبادئه.

وفي مسرحيته (الجراد) قدم زنكنه قراءة استشرافية لمآل حركة الواقع السائد آنذاك حيث تنبأ بـ " غزو جراد السلطات". وتبعها بعمل آخر عندما كتب (في الخمس الخامس من القرن العشرين يحدث هذا) ملمحا، في هذا النص، إلى صعود قوى اجتماعية جديدة في مسيرة العراق الحديث.

ولم تظل نصوصه حبيسة الورق الذي كتبت عليه بل تعاملت العديد من الفرق المسرحية مع تلك النصوص ونقلتها الى خشبات المسارح وفضائها الفسيح، سواء داخل

العراق أو خارجه (مثلا في القاهرة ودمشق وبيروت وتونس والإمارات العربية المتحدة والكويت وفلسطين والأردن والمغرب والجزائر)، مانحة أبطاله وشخوص مسرحياته ورواياته روحها ودفأها وغضبها، آمالها وانكساراتها، وانتصاراتها وتقهقرها، تقدمها أو نكوصها ولكن من دون استسلام، مما جعل مسرحياته تحظى بالاهتمام من النقاد وبالتقدير الكبير من جمهور المسرح.

ويمكن القول أن الخيط المشترك الهادي لكل أعمال محيي الدين هو وقوفه الى جانب الناس البسطاء والكادحين والمضطهدين، لذا نجد أن الكلمات المفتاحية لنصوصه المسرحية ورواياته تتحدث عن الملاحقة والبحث عن الحرية والهجرة والوقوف بوجه الطغاة والدعوة الى مقاومة العسف ولهذا فإن أبطال مسرحياته ينتمون الى أولئك المناضلين الرافضين للواقع والداعين الى تغييره. فمثلا روايته (ئاسوس) تتحدث عن إنسان عراقي كردي هُجر عن أرضه ومسكنه ووطنه إلى بقعة لا يجيد فيها الحياة، ومن خلال رمزية اسم الطير ئاسوس الذي يموت عندما يفقد طبيعته نلمح الأثر الذي تركه فعل التهجير على فكر وحياة هذا الكاتب.

إن الملاحظات السابقة تقودنا الى أن محيي الدين زنگنة كان يوظف نصوصه الإبداعية للترويج لـ " ثقافة التنوير والديمقراطية، والقيم الأخلاقية والنضالية الرفيعة، ... ونتيجة لهذه المواقف المشرفة، عانى الفقيد، ضروب العذابات والحرمانات والملاحقات المستمرة، التي لم تثنه يوماً عن التصدي ببسالته المعهودة لكل ألوان العسف والاضطهاد والدكتاتورية". إنها لمعروفة مواقفه في مناهضة النظام الدكتاتوري المقبور، فقد ظل مأخوذاً بالحرية الى آخر المدى لذا لم يصافح الأيدي الخشب.

تحية للوطني العراقي الأصيل وللقومي الكردي الصادق والأممي الكبير محيي الدين زنگنة، المبدع الملتزم بقضايا الإنسان في كل مكان. لقد كتب عنه صديقه الدكتور زهدي الداودي " كان محيي الدين صديقا حميما يركض وراء الصديق الحقيقي ولا يعرف النفاق "... نعم لقد كان " أبو آزاد " هو كذلك دوما.

لقد فاجأنا غياب محيي الدين زنگنة..فقد كان سريعا ومفاجئا. لكن أصدقاءه ومحبيه ومتذوقي منجزه الإبداعي الثري، الذين لم يصدقوا بعد أن محيي الدين غادرهم بهذه السرعة، سيستمدون العزيمة من محبته وحكمته وقيمه النبيلة وثقته بالإنسان المقتحم للصعوبات والرافض للتدجين والاستلاب.

وداعا " أبا آزاد "... نودعك بلوعة.... يغسل دموع عيوننا قطرات مطر سافرت من غير موعدها، راحلة الى حيث تلتقي من تحب.

****

وفي آب أيضا، وفي الثالث عشر منه تحديدا غادرنا مبدع آخر هو الروائي الجزائري الطاهر وطّار (المولود عام 1936)، صاحب "اللاز" و "الحوات والقصر" و "الزلزال" و"عرس بغل" و "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" و "الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء " و " الشهداء يعودون هذا الأسبوع "وغيرها الكثير، انه "أب" الرواية الجزائرية الحديثة المكتوبة بالعربية، أو كما يطلق عليه الجزائريون تحببا " عمي الطاهر "، والذي توفي عن 74

عاما بعد صراع طويل مع مرض عضال.

ورغم أنّ أول نص روائي جزائري باللغة العربية كان " ريح الجنوب " للروائي المعروف عبد الحميد بن هدوقة (1971)، إلا أن الطاهر وطّار بغزارة إنتاجه وتنوّع مواضيعه أسّس الروايةَ الجزائرية المكتوبة بالعربية في منتصف السبعينيات من القرن العشرين، بعد بضعة عقود على ولادة نظيرتها المكتوبة بالفرنسية والتي أعطت أسماء لامعة مثل كاتب ياسين ومولود فرعون وفي ما بعد رشيد بوجدرة.

بدأت المسيرة الإبداعية للطاهر وطّار في تونس خلال حرب التحرير الجزائرية (1954 – 1962) بنشر بعض النصوص وكتابة مسرحيات، لكن أول مؤلفاته صدر عام 1961، على شكل مجموعة قصصيّة هي "دخان من قلبي "بينها قصة "نوة". هذه الأخيرة بوصفها البليغ لتحالف الإدارة الاستعمارية مع ملاك الأرض، كانت إيذاناً بما سيكون عليه كاتبُها من إيمان بصراع الطبقات وراء واجهة "الأمة الواحدة المتحدة".

في عام 1974 صدرت روايته الأولى "اللاز "حيث يقدم وطّار شخصية (اللاز اللقيط) في قراءة له يحاول فيها أن يعكس واقع مجتمع بدأ يتحول عن مبادئه سريعا.

ومن يومها، تخصّص في كتابة تاريخه الموازي الخاص، وغير الرسمي، لجزائر ما بعد الاستقلال. ففي هذه الرواية قام الطاهر وطّار برصدَ تناقضات الثورة الجزائرية وراقب التحولات الاجتماعية – الاقتصادية والسياسية التي شهدتها البلاد وخصوصا في القطاع الزراعي.

كما روى سيرورة انتقال الشعب الجزائري من مرحلة تلقي مواجهة الاستعمار إلى مرحلة الثورة. لكنّه روى أيضاً ما تخلل هذه المرحلة من مآس، منها تصفية (جبهة التحرير) للحزب الشيوعي الجزائري إثر رفض الحزب حلّ تنظيماته والالتحاق بجبهة التحرير. ولم يمنعه الانتماء إلى الحزب الواحد (حزب جبهة التحرير) من إدراج الشيوعيين الجزائريين في عداد محرري البلاد من الاستعمار الفرنسي الذي استمر طيلة 132 عاما، ما كان محرما في أوساط هذا التنظيم الأحادي (أي جبهة التحرير) رغم "يساريته" الرسمية آنذاك. كما روى في روايته الأخرى "الزلزال" كيف سعت البورجوازية الجزائرية إلى إفشال التأميم والإصلاح الزراعي.

وفي "الشهداء يعودون هذا الأسبوع" نجد نبرة قوية لنقد الواقع الجزائري الذي ساد بعد انتصار الثورة ورحيل المستعمر، فقد تساءل "عمي الطاهر" ذات يوم: ماذا لو عاد الشهداء اليوم؟ أجاب بنبرة ساخرة لاذعة: "سيتحسّرون قليلاً ثم يشرعون في البزنسة"!

فيما حاول الطاهر وطّار في "العشق والموت في الزمن الحراشي" الصادرة عام (1982) أن يؤرخ لمرحلة الثورة الزراعية و " التسيير الاشتراكي "للمؤسسات.

وعالج في " الحوات والقصر" (1974) و "تجربة في العشق" (1989) إيديولوجيا البورجوازية الصغيرة القائمة على الازدواجيّة وروح المهادنة وأنصاف الحلول.

وفي "الحوات والقصر" وصف وطّار وفي قالب أسطوري رمزي إحباط "الرعية" (الحوات) العميق وهي تكتشف "راعيها" (القصر) في أسوأ وجوه استبداده.

أما رواية "عرس بغل "فتحقق بناء جماليا

من نوعية خاصة يرتكز على "الذات والمجتمع والتاريخ". فالشخوص في هذه الرواية مستعبدة في الأرض، تبحث عن مبررات الاستمرار وتسميات مختلفة وزائفة لوجودها، والى آثار مأزق ووعي زائف وما ينتجه من ظواهر وقيم تهيمن سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، وتصبح موجهة ومرجعا.

لم يكن طريقه الإبداعي عبارة عن "سراط مستقيم". ففي بداياته تموضع الطاهر وطّار في خندق "الواقعية الاشتراكية"، لكنّه كان واقعيا اشتراكيا على طريقته الخاصة.

وظف البطل المُضاد بدل البطل الإيجابي، كذلك وظف التجريد والسريالية في "عرس بغل" و "الحوات والقصر" قبل أن يستلهم التراث الصوفي، ويلبس جُبّة الولاية في أعماله الأخيرة "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" (1999) و "الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء " (2005).

ورغم معاناته مع المرض العضال، إلا أنّ "أب" الرواية الجزائرية حرص على إبقاء إبداعه حيا إلى آخر لحظات حياته، حيث أنجز روايته الأخيرة الموسومة " قصيد في التذلل" التي عُدّت علامة فارقة في مسيرة الطاهر وطار الحافلة بالأعمال.

سيبقى الجميع يتذكر هذا الأديب/الرمز الذي تفنن من خلال ما كتبه طيلة أكثر من نصف قرن، في صورة أعماله التي ترجمت إلى عشر لغات أجنبية منها، الإنكليزية والفرنسية والألمانية والروسية والبرتغالية والفيتنامية واليونانية والأوزبيكستانية والأذرية. كما نال العديد من الجوائز آخرها جائزة الرواية لـ (مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية) عام 2009.

في إحدى مقابلاته، يشير الطاهر وطّار الى التطور الذي مرّ به حين قال: " أنا رجل بدوي أمازيغي، واللغة العربية دخيلة علي ولا تسكنني كما تسكنني لغة أمي وأبي ومحيطي، وأنا ابن عائلة متدينة وتقليدية وتعليم باديسي (نسبة إلى مدارس جمعية العلماء المسلمين التي كان يرأسها الشيخ الجزائري عبد الحميد بن باديس) وزيتوني (نسبة لجامع الزيتونة في تونس).

وفي الوقت الذي كان علي أن أكمل مشواري مع الفقه والنحو والصرف والفرائض، وجدتني أقرا "الأم" لغوركي و "العقب الحديدية" لجاك لندن وأعمالا روائية عظيمة أخرى لعمالقة آخرين، وبلغ تأثيرهم الحد الذي زعزع البدوي الأمازيغي والطالب الزيتوني التقليدي وزحزح الشخص الأصلي الذي سكنني لصالح شخص آخر.... أنا فهمت القيمة وفائض القيمة لكارل ماركس من خلال رواية " العقب الحديدية " لجاك لندن وفي الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية لم يكن الحياد الأيديولوجي أمرا ممكنا ووقتها تبنيتُ الطرح الماركسي لأنني لم أقتنع بمثيله القومي أو العبثي، وآمنت أن الطرح الأول ... أقرب إلى المنطق الإنساني بحكم دعوة أصحابه إلى وحدة الشعوب العمالية ".

في روايته "ضمير الغائب" كتب الروائي الجزائري المعروف واسيني الأعرج عن الطاهر وطار قائلا: "عمّي الطاهر أحد الأنبياء المنسيّين في هذه المدينة. عينه ترى كل التفاصيل التي تغيب عنّا؟.

ولا شك أن المنجز الإبداعي الثر للطاهر وطار يدلل على انه رأى "كل التفاصيل" وعرضها في أعمال روائية راقية تعبر عن

حرفية كبيرة لمبدع كبير ظل رغم كل شيء يحظى بتقدير الجميع...!

****

أما ثالث الراحلين هذه المرة فكان المفكر الكبير محمد أركون المولود عام 1928 في منطقة القبائل بالجزائر الذي توفيّ في العاصمة الفرنسية باريس ليل الثلاثاء – الأربعاء 15/14 أيلول/ سبتمبر2010 عن عمر يناهز82 عاماً بعد معاناة مع المرض.

بعد إنهائه المرحلتين الابتدائية والإعدادية ابتدأ محمد أركون دراسته الجامعية بكلية الفلسفة في الجزائر العاصمة ثم أتم دراسته في "السوربون" في باريس، وحصل على شهادة الدكتوراه في الآداب.

وعمل أركون أستاذا لتأريخ الفكر الإسلامي والفلسفة في السوربون منذ نهاية ستينيات القرن الماضي، كما عمل كباحث في عدة جامعات في ألمانيا وبريطانيا، ودرّس بجامعات عديدة في أوربا وأمريكا والمغرب.

اشتهر الباحث أركون باستخدام مناهج علمية عدة بينها الانثروبولوجيا التاريخية واللسانيات وأدوات قراءة التاريخ في دراسة الأديان والنصوص الدينية. ويعتبر أركون واحداً من أبرز الباحثين في الدراسات الإسلامية المعاصرة حيث يعتبر ناقداً للنظريات المتأصلة في هذا الميدان.

بدأ محمد أركون فيلولوجيا، في كتابه عن مسكويه " نزعة الأنسنة في الفكر العربي"، لكنه ما لبث في أواسط السبعينات من القرن الماضي أن نقد الاستشراق، وأطلق ما سماه "الإسلاميات التطبيقية ". وهي نظرية طبقها على نصوص في القرآن، ونصوص من القرن الرابع، وما شابه. أما في الثمانينات فنلحظ عنده – بحسب المفكر اللبناني رضوان السيد" – نضوج تحطيم الدوغمائيات ودخول في نقاش حاد مع العنصريين الغربيين ".

شغله موضوع كيف نخترق المفكر فيه، باللامفكر فيه؟ ويعتبر هو "مفكر اللامفكر فيه". حيث كان دائماً يشدد على دراسة الفلسفة لأنها هي الوحيدة التي تترك وتحافظ على الفكر في حيويته ونشاطه وحيرته وأسئلته.

كان أركون في كل حياته العلمية والفكرية فيلسوفاً ومفكراً وعالم اجتماع شجاعاً، فالشجاعة الفكرية والسجالية المؤسسة على القراءة والمراجعة هي التي طبعت فكره. لم يتردد أبداً أمام مشكلة معرفية إلا وطرحها من دون خوف ومن دون اعتبار للمؤسسات أو السلطة مدنية أو سياسية أو دينية، كان يعتقد بسلطة العلم والعالم. وانحاز أركون إلى الحرية وتصدى لكل أرثوذوكسية، أرثودوكسية المستشرقين وأرثودوكسية التراثيين، ورأى أن الفرق بين النص القرآني وفهم الفقهاء له واسع، فهؤلاء - حسب أركون – ابتعدوا عن التدبر والفهم وحبسوا الدين في أبنية جامدة. ولهذا فقد كان عمله الفكري التزاماً بإعادة النظر في منظومات الفكر المتمركزة على ذاتها.

ترك أركون مكتبة ثرية بالمؤلفات والكتب باللغتين الفرنسية و بالإنكَليزية وترجمت أعماله إلى العديد من اللغات من بينها العربية والهولندية والإنكَليزية والإندونيسية. ومن أهم أعماله: ملامح الفكر الإسلامي الكلاسيكي، دراسات الفكر الإسلامي، الإسلام أمس وغدا، من اجل نقد للعقل

الإسلامي، الإسلام أصالة وممارسة، الفكر الإسلامي: قراءة علمية – الإسلام: الأخلاق والسياسة – الفكر الإسلامي: نقد وإجتهاد– العلمنة والدين: الإسلام، المسيحية، الغرب – من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي– من فصل التفرقة إلى فصل المقال: أين هو الفكر– الإسلامي المعاصر؟– الإسلام أوروبا الغرب، رهانات المعنى وإرادات الهيمنة – نزعة الأنسنة في الفكر العربي– قضايا في نقد العقل الديني.

كيف نفهم الإسلام اليوم؟– الفكر الأصولي واستحالة التأصيل. نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي– معارك من أجل الأنسنة في السياقات الإسلامية، وغيرها.

كما حصل الراحل على العديد من الجوائز منها: جائزة بالمز الأكاديمية، جائزة ليفي ديلا فيدا لدراسات الشرق الأوسط في كاليفورنيا، دكتوراه شرف من جامعة إكسيتر عام 2002، جائزة ابن رشد للفكر الحر عام 2003.

بعد رحيل كوكبة من القامات الثقافية والمعرفية الكبيرة التي حصدها الموت في عام واحد: فؤاد زكريا، محمد عابد الجابري، نصر حامد أبو زيد، فان رحيل أركون هو خسارة كبيرة اخرى، في مرحلة تزداد فيها الحاجة للعقل واجتهاداته لمكافحة الوعي الزائف المنفلت من عقاله.

وبرحيل البروفسور محمد أركون يُسدل الستار، على الأقل مؤقتا، على مغامرة التطلع إلى الخروج من نفق تاريخ شعوبنا المتعثر أمام تحوُّلات العالم وصيرورات المعرفة.

وداعا محيي الدين زنكنةٌ! وداعا الطاهر وطار! وداعا محمد أركون !

الشيوعي العراقي:
مأثرة "كامل شياع" أسوة لكل المثقفين الحقيقيين

في الذكرى الثانية لاستشهاد المفكر والمثقف الكبير "كامل شياع"

قبل سنتين، وفي لحظة شديدة السواد من تاريخ العراق، أنهت رصاصات غادرة حياة "كامل شياع" احد ابرز المثقفين الشيوعيين والعراقيين قاطبة وأكثرهم موسوعية والتزاما وخلقا، ذلك المثقف الذي يحتاجه العراق بما يوازي حاجة الثكلى لإبنها الأثير. الرصاصات الحاقدة التي أطلقها أعداء الحياة، وكارهو الثقافة لم تستهدف "كامل شياع" كشخص، بل استهدفت الرهان الذي كان يمثله كامل.

كان مثقفا عضويا بامتياز حسب تعبير "غرامشي"، فلم يكتف بتفسير العالم، بل عمل بكل ما في وسعه من اجل تغييره، فهجر المنفى المريح، وعاد إلى الوطن الجريح، ليساعد في إحيائه، وفي إعادة بنائه ديمقراطيا، وكانت القضية بالنسبة له تعني الحياة وليس الموت، رغم انه كان يعي تماما، بأنه سيكون هدفا لقتله لا يعرفهم ولا يظنهم يبغون ثأرا شخصيا منه، كما عبر عن ذلك في إحدى كتاباته.

كان يعمل على إنجاح المشروع السياسي والمجتمعي الخاص بالكتلة التاريخية من العمال والفلاحين الفقراء، وسائر مسحوقي هذا الشعب، لأنه يعلم علم اليقين، أن الردة السياسية والاجتماعية في عراقنا والمنطقة، إنما تمتد جذورها الفكرية إلى تلك المحطات السالبة في تراثنا القديم، لاسيما الفترة التي أعقبت إزاحة ابن رشد، وابن خلدون والفارابي والكندي، والمعتزلة فرسان العقل في الإسلام، وهو ما سعت إلى تأبيده الطبقات والنخب الحاكمة في بلادنا، بمختلف أشكالها، وأنماطها التاريخية، والحديثة حتى يومنا هذا، فأراد استنهاض المثقف وإعلاء شأنه، وإعادة الحيوية إليه، ليكون قادرا على أن يلعب الدور الخطير والمأمول منه في استعادة العافية الثقافية وفي المجتمع بأكمله.

كان يؤسس لما هو استراتيجي وبعيد المدى، وليس لمكاسب اللحظة الآنية والعابرة، ولانجاز مشروعه النبيل هذا، عمل بدأب الفيلسوف، وبتواضع العالم، واستطاع خلال السنوات

الخمس، قبل استشهاده، أن ينسج علاقات وصداقات ثقافية واسعة جدا، كان شفيعه في نجاحها بالرغم من الخراب الذي يحيطه، خصاله وسجاياه الشخصية وثقافته الموسوعية، التي وفرت له مكانة رفيعة في الوسط الثقافي والإعلامي، خلال فترة زمنية قصيرة نسبيا، وهو ما يفسر إلى حد كبير، الضجة الواسعة وحجم ومستوى ردود الفعل على مصرعه.

كان يكتب وينشط ثقافيا بوحي من ضميره، ومن مشروعه الثقافي الإنساني، فتراه يتهلل فرحا، عندما يرى تلك البراعم الواعدة في الأدب والفن والإعلام من الفتيات والفتيان العراقيين وهم يسعون لإثبات وجودهم، ويعاملهم كما لو أنهم أبناؤه، واضعا ثقته فيهم، كما هو حاله مع المثقفين العراقيين الآخرين، مرددا لازمته التي لم يكن يكل منها (أن الثقافة العراقية بخير) ومؤكدا على فشل "صدام حسين" في إركاع الثقافة العراقية الديمقراطية، رغم ترهيبه وترغيبه.

لقد اثبت هؤلاء القتلة، من جديد انتمائهم إلى عالم الحيوان، وقطيعتهم الكاملة مع العقل العراقي والبشري عموما، القادر على إعادة إنتاج وتطوير ما فكر به كامل شياع وما أراد انجازه، هو وبقية الشهداء والرواد في ثقافتنا الوطنية الديمقراطية، التي هي بحق الرافعة الأساسية لاستعادة ذلك الألق الذي غمر المجتمع العراقي في فتراته الذهبية، وأضفى عليه سحرا ثوريا، وقيما نضالية وثقافية، كانت ومازالت موضع فخر واعتزاز العراقيين.

أن مأثرة "كامل شياع" ومشروعه التنويري، الديمقراطي والإنساني، الذي أضاء سماء الثقافة الديمقراطية في العراق، ونجح في إيقاد مصابيح ثقافية واعدة، ستظل أمثولة لكل المثقفين الحقيقيين، ولكل من جعل الوطن وثقافته الديمقراطية بمنزلة حدقات العيون.

التاريخ لن يكتبه الجلادون، بل سيكتبه الشهداء، لأنهم يمثلون الحلم والإيمان بالعدل، وبسعادة الإنسان، ولهذا فلن يخبو أبدا ما راهن عليه فقيدنا الكبير "كامل شياع" ، وسيواصل طريقه أولئك القابضون على جمر الحقيقة، والمدركون لدور ومكانة الثقافة في السمو بالإنسان إلى ذرى المجد والحياة.

كلمة الحزب الشيوعي العراقي التي ألقاها عضو مكتبه السياسي محمد جاسم اللبان في الحفل الاستذكاري لشهيد الوطن والثقافة كامل شياع الذي أقيم عصر الاثنين 23 آب 2010 على قاعة مقر الأندلس – بغداد.

مخاطبات كامل شياع قبل قتله
كالضوء في الظلمات طائرهم
يغيبْ x ..

ياسين طه حافظ

يمتدّ في غور الجحيم طريقُ محمدِ القاسم المفروشِ
بالجثث القديمةِ، والسيوفُ سفيهةٌ مرّتْ
تشقّ طريقها للقتلِ،
لكن الطريقَ الآن خالٍ، ليس غيرُ سقائفٍ
للجند قابعةٍ وراء مجارةٍ، أكياسِ رملٍ،
ليس غير الشاهناتِ تصيح من عبءٍ وحمّى، غير
أكداس العوائلِ مُملّتْ مكشوفةٌ للشمسِ
في أسمالها تحتضّ كي تصل الظلالَ.
وجهُ الطريقِ نحيف. تلك مراشف قفّتْ
وأحداقٌ وراء لثامها.
تتوعّد الآتين تستجلي حقائقهم لتسلخَها.
والشمس بعد الظهر تكشفُ، لا تريد الكشفَ،
تلك جريمةٌ تأتي. لماذا الخوفُ؟
هل وحدي أسيرُ؟ وإن أنّى ماذا سأفعلُ؟
لا سبيل سوى هذا الطريقْ
ولكي يُقصّرَ خوفَهُ، كي ينتشي من وحشةٍ،
يلهو بذكرى:
ذلك المقهى الظليل، هناك قهوتُهُ وعاملةٌ
مع الأكواب بسمتُها القصيرة، غادرت. تلك
الجليسةُ عنبةٌ... ورزاز بلجيكا تعانق بالزجاجْ..
يتذكّرُ الزمنَ الذي استرضاه يوماً:
تلك توقظه بنظرتها وترشف كأسَها لتعودَ
ترمقه بأخرى.. هل ترى لمحتْ ظلالَ كآبةٍ
في وجهه؟ ارتى استراحت فهي تمنحُهُ
ابتساماً ثم تتركه ليُكملَ قصةً في الرأسِ؟
بادلها ابتساماً ثم عاد لنفسهِ ولبيتهِ،
ولفكرةٍ ظلت تدور برأسهِ منذ الصباحْ.
لفّ الضبابُ طريقَهُ
هل صدفةً هذا الصباح حمامةٌ في الباب؟
حدّثها كما يأسى: يعزّ عليَّ أن أمضي..
كأنْ قالت له شكراً وطارتْ
وهو أكملَ دربَهُ..

هذا الطريقُ يخيفُهُ. والشاحناتُ تضجُّ راكضةً:
توقّفْ ايها الرجل المهذّبُ! ليست الأمواجَ
هذي، لا المطاراتِ الكبيرةَ.. زا طريقُ
محمدٍ / القاسم المزروع موتاً والشواظ يشبُّ
فوق الوجهِ...
ما عاد الحديثُ يسرُّ سامعَهُ.
تتصادم الكلماتُ فوق لهاتِهِ وحديثُهُ
قلقٌ كأنّ سينعطف انعطافتَهُ الأخيرة!
وكأنّ رأى من زلك المقهى الوجوهَ تغيبُ
والورقَ الخريفيَّ المذهّبَ
راح تكنسُهُ رياحُ الليلِ /
زاك الظلُّ يشبهُهُ، يحاول أن يفكَّ يديهِ،
أن ينسلَّ من شرك الرياحْ...
لو كان يهدأ ساعةً، يتأمل الغصنَ الذي
استرخى وينجو من طريق محمدٍ / القاسمِ المكتظِّ
نيراناً وخوفاً،
يلمع الإسفلتُ مغسولاً بنار الشمس تركض فوقه
العجلاتُ
سوراً تستفيقُ على سوارْ.
الخوفُ والبنزين يشتعلان فيها. ليت هذا
الشارعَ المسكونَ تحسمُهُ نهايتُهُ، فيمضي
ناعماً يرتاحُ...
هل عَوْدٌ لغرفتِهِ
ونافذةٍ تحاذرُ أن تُطِلَّ، حياؤها حلوٌ
وشارعُها صديقٌ وارعٌ يهديكَ بعض شذاهُ،
أو، إن شاء، ننّ عليكَ.. زلك عالمٌ..!
كان النهارُ هناك غضّاً ناعماً، كلُّ النهارِ
هناكَ يصلح للّقاءِ (كما النهارُ هنا..)
ويضحك شبهَ منكسرِ..
كم تبعد الأضواءُ عن بيتي؟ تركتُ سلامتي
وكتابتي وتركتُ بعض الروحِ، ماذا تنفعِ
الأفكارُ حين أموتُ سوف تموتُ.. هل هي هكذا؟
وغدا، الحقيقةُ مرةٌ...
قد كان يسأل ثم يختار الإجابةَ غيرَ ما ترضاه روحُهُ،
ثم يُكمِلُ:
في العراق هناكَ كانت أولُ اللّعبِ البريئةِ..،
في العراق هناك أولعَ راجفاً أولى سجائرِهِ
ليهجرَها إلى أبدِ..
تذكّرَ أول الأوراقِ يأخذها ليقرأ زلك الممنوعَ سرّاً،
وحدَه في الليل يقرؤها.. تذكّرَ زاكَ
وانسابتْ على الأيام بسمتُهُ..
قد تستطيع، وبعد هذا العمرِ والوجهِ المغطّى
في ظلالٍ مرةٍ،
أن تلتقي أيامَكَ الاولى وأن ترقى تلالاً من
ترابٍ،
تستطيع ترى النخيلَ اليابساتِ كما ترى تلكَ
العواصمَ
وهي لامعةٌ ملوّنةٌ، تراها الناصريةَ مثل
روما، كنتَ تحلم، والفواتنَ في المخازنِ
والمطاعم، كنتَ تحلمُ.. هل أقول حقيقةً؟
هَبْ انني أبدلتُ أفكاري، فماذا؟
في المحطةِ ضجّةٌ وحقيبةٌ أخرى بديلَ حقيبتي..
يا أيها الرجل استعد افكارَك الاولى، ستبقى
هذه الاحزان تأتينا وتذهبُ. انما هذا الكتاب

يظل رهناً في يديك كما الجريمة رهن ايديهم،
وتبقى كلما اشجان كسرٌ، قلتَ للدنيا
السلام، عزيزةٌ تبقى الحياةُ نباتُها والناسُ..
كنتَ تقول كلُّ سقيفةٍ صنوٌ لناطحة السحاب،
لهذه ولتلك هذي الوردة الحمراءُ، للدنيا
النظيفة هذه الأرواحُ ليس لهم:
غيرُ النشيدِ مقدساً في الليلِ،
غير هديرة الدم في النهارْ.
فإذا مضوا، عفوَ الحياة إذا انتهى فيها وعانقها الحبيبُ
يهوون مثل ملائكٍ لصيدهم
كالضوء في الظلمات طائرهم يغيبُ...
أصغي إليه مودِّعاً أو هائماً يأسى على الدنيا
ويلتقط الإشارة مثل منتظرٍ، يحدّثني كعاشقها:
القصيدة حلوةٌ في ملحق الأسبوع.. قالَ
محاولاً كشفَ المُغَبَّأ، قال لي:
هذا النهار محيرٌ أخشى هوامشَهُ،
كأنّ سحابةً تأتي،
كأن بروكسلَ المحلولةَ الأغصان تغرق في الظهيرة..
قالَ والسيارة البيضاء تركض في طريق
الموت كي تصل الحياة.
قلْ للحياة محبّةَ السير البطيء، فتلكمُ
السيارة البيضاء واقفةٌ
وهناك كامل رأسُهُ اتكأتْ على يُمناهُ.
هل ما زال يحزن للحياة وما يزال مفكراً؟
لمٌ طريٌّ مالَ منسكباً، نبات الظلّ،
في كفين ناعمتين حاولَ أن يصدّ رصاصَهم،
كفين ناعمتين للورد الندي وللكتابة!
هذي النهايةُ.
صامتاً وحدي أُقلبُ سيرةً مسروقةَ الأوراقِ، أذكر
قولَهُ:
لو عدتُ، ربّما سألقاها، فقد تأتي
مبكرةً الى المقهى (وقد يأتي الرصاصُ مبكّراً..)
لكن قصتَها الغريبةَ مثلُ قصتنا تُضلّلُ،
علّها شاءتْ تقولُ ولم تقلْ
ولعلها سمعتْ بأني سوف أرحلُ للعراق، لقلها.
هل كان يوحي الوجهُ في شيءٍ؟ كأني خائفٌ:
اني رأيتُ على الطريق كتابةً
لم تتضحْ
لكنها، وكما فهمتُ، تقولُ:
تتبعني!
يا أيها الرجلُ ابتأسْنا هدَّ أن نبكي،
فذاك المنجل المرفوعُ يحصد من رقاب زوير
يُطعِمُ غولةَ التاريخ علّ الشمس تأتي وهي
تهربُ.. علّهم يَصِلونَ، حتى جاءهم خبرُ
ليوقف دورةً للأرض: ان قلاع مأربَ
كلّها سقطتْ وان الفأر ملتذٌّ برأس المالِ..،
لا أحدٌ
افتى برأيٍ. كل شيءٍ كان يمشي دون ساقين،
الحقائقُ ليس ما ندري.. وكاملُ لاذَ
بالكأس الأخيرة. قام دون عبارة التوديعِ
ظلتْ بسمةٌ مكسورةٌ للنصفِ،
ظل الكوب فوق الشرشف المطويّ،
ظلت في الفراغ قصيدةُ الموتى... رجعتُ كنازحٍ
لا بيتَ يؤويه الهزّ بخلة ماتتْ

وتسقط فوقي الأسماءُ، هل أحدٌ
يتذكر الموتى؟ أيسمعُ انهم ماتوا على أملٍ
أيبكي انهم خسروا؟
الآن قصةُ كاملٍ اكتملتْ:
سيارة بيضاءُ واقفةٌ
وكاملٌ ميتٌ فيها—
الحياةُ، جمالُها، الأفكار والشجنُ النبيلُ وزلك
الفجرُ الحريريُّ، الشوارعُ،
أولُ العربات،
آخرُها، المخازن، زحمةُ الأسواق،
أولادُ المدارس في الصباح ونفحةُ الشاي
المبكرِ، لفحةُ الأفران والعمالُ
نحو الباصِ، مبنى الحزب والصحفُ التي تأتي
صباحاً
كي يقلبها... الحياة جميلةٌ
ظلت ليشهدها سواهُ ثم يغيب، يتركُها
ليشهدها سواه ثم يغيب، يتركها
الحياة جميلة وعظيمة تجري الى أملٍ
وهناك في وسط الطريق
سيارة بيضاء واقفةٌ!

❖ القصيدة التي قرأها الشاعر ياسين طه حافظ في استذكارية الحزب الشيوعي العراقي للشهيد كامل شياع في بغداد يوم الاثنين 23 آب 2010

شراع.. !

لا تُحْجَبُ الشمسُ إلا مِنْ محيّاها

باقر الفضلي

لا تُحْجَبُ الشَمسُ إلا مِنْ مُحيّاها
ولا يَخيبُ المُنى شَوقاً للقياها

فضائُها الرَحبُ، ما رَدَّتْ لسائلِها ~
أمراً، ولا ضاقَ بالوجدانِ مُعْطاها

تَفيضُ مِنْ نَبعاتِ الحُبِ، زاخرةً
رِحابُها، مِنْ شَغافِ القَلبِ مَسقاها

كأنها نَسَماتُ الصُبحِ إنْ خَطَرَتْ
تَروي النفوسَ نَدىً، مِنْ فَيضِ نَجواها

مَبسوطةَ الحُلمِ يَزهو في شَمائِلِها
وشَادَ فيها سمواً حُسنُ مَبناها

سارتْ مُعطرةُ الأنفاسِ زاهيةً
لو مَرَّ فيها الهَوى يوماً لحاكاها

بقاؤُها، الموتُ ما أخفى مَعالِمَ
طَمساً، ولا غابَ في الأحداثِ ذِكراها

يا ساحرَ الصَمتِ ما أدراكَ ما نَسَجَتْ
مَحافلُ العُمرِ في صَمتٍ بملهاها

أسلَمتَ أمْرَكَ للحُسْنى على أَملٍ
أنْ يَرعوي القومُ للحُسْنى ومُثلاها

ما كُنتَ تَبغي مِنَ العلياءِ مَغنَمَةً
ولا نَشِدتَ مِنَ الأسماءِ فُضلاها

فعاجَلتكَ، على غَدرٍ كواتِمُها
وأرخَصَتْكَ رَماً مِنْ كَيدِ مَرماها

شاءتْ بُجَاجِلُها خِزيٌ وما رَبِحَتْ
إلا صدى العارِ ما تُخفي ثَناياها

***

يا ساحرَ الصَمتِ إذ وَدَّعتَ ملتَبِساً
ما تُعلِنُ النَفسُ، ما تُخفي نَواياها

رَسَمتَ دَربكَ لَمْ يُثنِكَ ذُو حَسَدٍ
يَوماً، ولَنْ يُرهِبكَ بالإذعانِ أشقاها

حرٌ وفيكَ بياضُ الكفِ زو سَجَرٍ(1) عانَيتَ منهُ وإنْ كان المُنى أملاً
أطعمتَ مِنْ جرحٍ فيناً لتقواها تحدو بهِ النفسَ في شوقٍ لمسراها

سلامةُ الظنِ ما أردىكَ ما نصبتْ ألهمتَ عزمكَ ما تُدمى القلوبُ بهِ
مِنَ الفخاخِ وما حاكَتْ خفاياها كَتْمُ الجراحِ، وكانَ الصمتُ مغزاها

ترنو اليكَ بعينِ الوردِ مُشرقةً إنْ كان فيها من الأقدار ما رسمتْ
كالذئبِ يسرحُ بالأغنامِ يرعاها عدلاً تراهُ، فأنتَ العدلُ صنواها

***

شياعُ كُنتَ وريتَ الحلمِ في زمنٍ حياكَ حياكَ ما أخفى الثرى جبلاً
ضاقتْ نفوسٌ بهِ مِنْ جورِ بلواها حياً أراكَ.. وحياً حينَ ألقاها

(*) عامان على إغتيال الشهيد كامل شياع
(1) سجر: بمعنى الإمتلاء، ولها معان أخر، مثل سجر التنور، إحماءه

هذا هو الدربُ

عبد الستار نورعلي

عبد الستار نور علي، من مواليد بغداد / باب الشيخ، خريج كلية الآداب ـ جامعة بغداد ـ قسم اللغة العربية، عمل في سلك التدريس لمدة خمسة وعشرين عاماً. يكتب الشعر والمقالة النقدية والسياسية والترجمة في الصحف والمجلات العراقية والعربية منذ عام1965، وعلى مواقع الانترنيت المختلفة حالياً. وهو مقيم في السويد منذ عام 1992 حيث اصدر: على أثير الجليد (مجموعة شعرية بالعربية والسويدية)، في جوف الليل (شعر)، باب الشيخ (مقالات)، شعراء سويديون (دراسات ونصوص)، جلجامش (ترجمة لمسرحية شعرية للشاعر السويدي أبه لينده).

وحمامةٌ.....
تجتازُ وادي النخلِ
صوبَ مدينةٍ أخرى، نراها
في الخرائطِ تلبسُ القفازَ من غيرِ الأصابعِ،
تلمسُ التاريخَ في جيبِ البيروستويكا،
فقد نُقلتْ وجوهُ القومِ خلفَ ستارهم،
راحتْ
تداومُ أحرفاً رقصتْ على نبضِ السرابِ
فغابَ في آثارها حلمي، استفقتُ
إذا الحقيقةُ مرّةٌ،
مرّتْ بنافذةِ النيامِ على السرائرِ،
حصتي كانتْ فيمتنا،
حصةَ العصفورِ كانَ الصمتُ،
حصةَ الزمنِ العتيقِ هجومُ آلافِ الجرارِ،
تقاسموا حقلَ الغنيمةِ،
أمغفلاً كانَ الحمامُ
أم استعارَ جناحَ شوكٍ لسانهم؟
أمغفلاً كانَ الصبيُّ ابنُ الأزقةِ والفقيرُ
يستعيرُ كتابَ أيامٍ مضتْ في سالفِ التاريخِ
مشرقةَ شروقَ الأبجديةِ؟

هذا هو الدربُ:
سباقُ الخيلِ يعبرُ هذه القاراتِ
بعد قطار زاك الشرق...
هذا هو الشرقُ
يطوفُ على قصائدَ لم تلدْ غيرَ الفجيعةِ
غيرَ عشاقِ الكلامْ،
سقطَ الكلامُ مسربلاً بدمِ الكلامْ،
ها إنّ سكيناً تسوقُ هوى الحمامْ،
وأنا أصلّي كي أرقّ قلوبَ المكدودَ،
ضُمّ جناحَكَ المكسورَ في نزقِ الهيامْ!
لولا الهيامُ لكانَ قلبُكَ فارغاً
ظمآنَ من جدبِ النجومْ
في الكوكبِ اللاعبِ سطرنجَ رفاقي، رفقتي
أيامَ كنّا في الغناءِ السربَ
لا ينظرُ في شيءٍ سوى خفقِ السرابْ،
أهو السرابُ اجتاحنا
أم إنه نقدٌ مُزوّرُ
عند صرافٍ حديثِ العهدِ في بنكِ الكلامْ؟
قالَ الرفاقُ على فراشِ السجنِ:
ها نحن نصبُّ الزيتَ في نارِ الحقيقةِ،
والحقيقةُ في سجونِ القومِ تغرقُ في الظلامْ،
فهل الحقيقةُ لعبةُ الأممِ
بأيدي صاغةِ الاتقانِ في حرقِ المراحلِ،
ثم حرقِ القافلةْ؟

كلُّ الحقيقةِ راحلةْ
يومَ اجتياحِ الصنمِ الأكبرِ
وريانَ الحشودِ الغافلةْ،
هذي فجيعتنا،
ثيابُ الغيرِ نلبسها، وننزعُ
عن حرارةِ هذه الاجسادِ ثوبَ مياهنا
فنعيدُ مكياجَ الوجوهِ الناحلةْ،
هذي فجيعتنا،
الصوتُ غيرُ الصوتِ
نحن صدىً لأصواتٍ ترنُّ من البعيدِ،
نقولُ ها نحنُ الحداءُ
ونحنُ رأسُ القافلةْ،
هذي فجيعتنا، اقتسمنا المائدةْ،
لم نعرفِ التاريخُ لا يرحمُ أبناءَ الخيولِ النائمةْ،
هذي فجيعتنا،
فقبلتنا استحالتْ حجرَ التاريخِ
أصواتَ الكهوفِ القاحلةْ،
هذي فجيعتنا،
فهل يستيقظُ العصفورُ
تحتَ شجيرةِ الرازنجِ
في البيتِ العتيقِ
فقد تسمّرتِ الشفاهُ
وعاثَ في الأرضِ الجرادُ.....؟

الجمعة 16 تموز 2010

سلالم.... ربما توصلني الى السياب

مقـــداد مـــسعـــود

مقداد مسعود، تولد 1954، شاعر، ناقد، صحفي ومسؤول اللجنة الثقافية في اتحاد أدباء البصرة. بدأ النشر في اواسط السبعينات من القرن الماضي. صدر له الدواوين الشعرية التالية: المغيب المضيء (2008)، زهرة الرمان (2009)، الزجاج وما يدور في فلكه (2009). وفي النقد صدر له عملان: ألأذن العصية واللسان المقطوع/ مقالة عن ألف ليلة وليلة (2008)، ألأذن العصية واللسان المقطوع- الكتاب ألأول/ قراءة اتصالية في السرد والشعر. كما له عدة مخطوطات شعرية، وكتب نقدية وروايات وغيرها قيد النشر.

المبحث ألأول/ ألأذن حين ترى

(ان اسهام بدر السياب في هذه النهضة اللغوية الجديدة، لا يكمن في الأبيات المفردة، كما كان الشعر في الماضي، وأنما في الجو العام الذي تصوغه لنا قصائده الجيدة.. نستطيع ان نلحظ هذا الأدراك في التعبير الحي على شكل إيماءات)

نجيب المانع

-1-

يقف الشاعر بدر شاكر السياب هنا، ليرى بأذنيه، ما يحدث هناك، ومن خلال هذه ألأذن الشعرية الرائية، نحصل نحن القراء، على شاشة تعرض لنا، ما لم يحن وقته بعد.

فالأذن البصرية – نسبة الى البصرة – حين تستبق مع العين،: تنال من الجميل، أجمله (الأذن تعشق قبل العين أحيانا)، بحسب ما جاء في قصيدة لشاعرنا المبصر بشار بن برد، نحاول في قراءتنا هذه ان نلتقط عينات من شعر السياب، وتحديدا من العينات التي تعتمد على الرؤية بالأذن اذا جاز القول، ومن خلال هذه العينات، كقارئ أنجر سلالم، أحاول من خلالها لا الصعود بل ان تكون استجابتي قاب قوسين أو أدنى

من هذه النصوص السيابية الباسقة.. ها هو بدرنا السياب، يعلن لنا رؤية الأذن:

بويب أجراس برج ضاع في قرارة النهر
أجراس موتى في عروقي
أكاد أسمع السحاب يشرب المطر
صليل آلاف العصافير على الشجر

في هذا المجتزأ الشعري، نلاحظ ان المهيمنة هنا حاسة السمع، حين أقول شمعة، فأن القول بها: يشعلها، وتلك هي وظيفة الشمعة، وما أن ألفظ، مفردة جرس: فأنت لا تسيطر على إيقاف صوته، وفي قصيدة السياب هذه، نحن نسمع كثرة عالية الصوت، وتلك هي وظيفة الجرس، فهو يعلن أمرا ويوصل إعلانه الى مديات واسعة، فرسائله لابلاغ النائي، وليس القريب، والواحد هنا (الجرس) بصيغة الجميع (أجراس)، وموضع بث رسائل الصوت لا تنطلق من مكان خفيض، بل من مكان عال (برج)، وعلو المكان، يشحن صوت ألأجراس بقوة مضاعفة، فتصل الى فضاءات أبعد. وفي النسق الثاني (أجراس موتى في عروقي)، نلمس وظيفة ثانية للصوت، أعني ألوظيفة الجوانية اللامرئية من قبل الآخرين، والمحسوسة من قبل المتكلم: (أجراس في عروقي)، ولهذه ألأجراس وظيفة ذات متغير مسموع: (أجراس :ترعش الرنين) ويكون هذا المتغير سببا الى نتيجة مرئية مضافة (فيدلهم في دمي حنين)، نلاحظ هنا ان بدرنا السياب، أشتغل مع الكلمة الأولى على المرئي، حاضنة المتحرك المسموع/ النهر، والمعرف هنا بأجراسه (بويب: أجراس برج ضاع في قرارة النهر)، وقرع ألأجراس، يزيد المرهف الشاعر، رهافة في الحس (أحس بالدماء والدموع).... وفي نسق شعري آخر نلاحظ كيف يوظف حاسة السمع، مرتكزا على رهافة اللامرئي فيه، المحسوس شعريا: (أكاد أسمع السحاب يشرب المطر)، أن هذه الصورة السمعية، مكثت وتمكث في أفق استجابتي طويلا، كلما قرأتها، وحتى لا افسد ذائقة القراءة لدى سواي، فأنني أتعفف عن فض بكارة هذه الصورة السمعية، وأتمنى ان نطيل التأمل فيها، يلي هذا السطر الشعري، سطر أخف حمولة شعرية، لكنه ينضح بماء البهجة:

(أكاد أسمع الحصى يصل منك في القرار)

(صليل آلاف العصافير على الشجر)، ان السياب هنا، يفعل أتصالية بين المسموع والمرئي، موظفا المرئي في صالح المسموع بشعرية لذيذة آسرة.فالشاعر يسمع: السحاب،/ الحصى/ العصافير/ ومن خلال هذه الأندراج الثلاثي، يبشرنا الشاعر بصوت المطر، ويكرر المفردة عموديا:

مطر
مطر
مطر.
بويب....
أجراس برج ضاع في قرارة النهر
...أحس بالدماء والدموع
أجراس موتى في عروقي
ترعش الرنين،
فيدلهم في دمي حنين
أكاد أسمع السحاب يشرب المطر
أكاد أسمع الحصى يصل منك في القرار

صليل آلاف العصافير على الشجر
مطر
مطر
مطر.

من قصيدة:النهر والموت
-2-

في قصيدة (المسيح بعد الصلب)، تستوقفني المفردات السمعية التالية: (سمعت/ نواح/ تسف/ أنصت/ العويل)، نلاحظ أن هذه المفردات، رؤيتها بألأذن أشد وقعا وأقوى بلاغة، ومن خلال (المشهد المسموع)، يفعل المشهد المرئي عبر العين،

بعد ما أنزلوني، سمعت الرياح
في نواح طويل تسف النخيل
والخطى وهي تنأى، أذن فالجراح
والصليب الذي سمروني عليه طوال
الأصيل
لم تمتني، وأنصت كان العويل
يعبر السهل بيني وبين المدينة
مثل حبل يشد السفينة
وهي تهوى الى القاع، كان العويل
مثل الخيط من النور بين الدجى والصباح

الآن في قراءتي الجديدة لهذه القصيدة، فأني أتقمص شخصية ذلك الطفل، يقعي خلف تلة وينظر المصلوبين، الشخص الذي أبدعه الروائي (أوبير برولونجو) في روايته (قبلة يهوذا)، أنا الان هو.... وبعد أن افلت من هيمنة النص الروائي، أتوغل في الكائن الشعري الذي أبدع في إنتاجه السياب، أقصد قصيدته (المسيح بعد الصلب)نلاحظ حضوره حكاية مختزلة، يحكيها لنا بطلها ذاته، ويبدأ الحكي من نقطة بالغة ألأهمية، تضيء أهميتها ثريا القصيدة (المسيح بعد الصلب)، وسارد الحكاية بطلها، الذي لم يعد في أعداد ألأحياء، لكنه لم يفقد حاسة السمع، ونلاحظ كيف يتداخل المحسوس مع المسموع:
محسوس مسموع

بعد ما أنزلوني سمعت الرياح في نواح طويل
تسف النخيل
والخطى وهي تنأى.

ويتضمن المسموع: فاعلية نواح الرياح، في الثابت والمتحرك، فمن جراء طول النواح، فأن الرياح: تسف النخيل والخطى.، وهنا تكون حاسة السمع، لها، الدليل المادي على نفي موت المصلوب، تشفعها القصيدة، بتوظيف (اذن) الي تجيب على سؤال الموت بدليل الحياة، * ومن (اذن)، يتم نفي علامتي الموت في القصيدة:
1- الجراح . 2 -الصليب.
(فالجراح والصليب الذي سمروني عليه
طوال الأصيل لم تمتني.)

وبعد الدليل السمعي ألأول، مفتتح القصيدة، نصل الى الدليل السمعي الثاني:

وأنصت كان العويل
يعبر السهل بيني وبين المدينة
مثل حبل يشد السفينة
وهي تهوي الى القاع

المصلوب، هنا يطل على الحياة من نافذة الأنصات، لا من نافذة الرؤية، المصلوب هنا، عيناه لا تريان، لكن أذنيه تجيدان الأنصات. (انصت كان العويل)، ومن خلال الأنصات، سيكون للعويل عبر مخيلة المصلوب أكثر من دلالة، وستعمد قراءتنا الى تجزئة المشهد الذي تأثل، على المسمع: حيث تغزل المخيلة، العويل:حبلا... يمتد بين مكان (الجلجلة)، مكان الصلب، وبين المدينة/ الغرقى كالسفينة في بحر الاستبداد.(العويل (السهل) (المدينة/ السفينة). للعويل هنا وظيفة بوق ألأيقاظ، انه النذير من الغرق النهائي، يتضح ذلك في:

(**حبل يشد السفينة، وهي تهوي الى القاع**).

يلي ذلك يتخلص الحبل من غلاظته، ويتحول خيطا نورانيا، مبشرا بفجر انساني جديد: (**كان العويل مثل خيط من النور بين الدجى والصباح**)،

ان حاسة السمع لها ألأولوية، ومن الرؤية با لأذن يؤثل السياب، الرؤية عبر المخيلة، هل نحن هنا مع طراز خاص من (سرد الأعمى)؟

ضمن مفهوم مخططات الصورة، الحركة ألأولى في القصيدة، تبدأ من ألأعلى الى ألأسفل، يجسد ها فعل (أنزلوني)، والموضع، الذي أنزل منه المتكلم محذوف من السياق، ومعلق في ثريا القصيدة، أعني (الصليب)، واذا كان هذا الأنزال بفعل بشري، فأن الفاعل، محذوف أيضا، لكنه معلوم، من خلال مدونات ومرويات شفاهية، ويزامن هذا الأنزال، غضب طبيعي، وينتقي السياب، فعلا، يشحنه السياق بطاقة دلالية عالية،: (تسف) في قوله:

(**سمعت الرياح في نواح طويل تسف النخيل**)

جاء في المعجم الوسيط:(سف الطائر سفيفا: مر على وجه ألأرض/ص436)، ولنتأمل الصورة المرعبة: حيث النخيل بفعل قوة الرياح، تنحني كل هذا الأنحناء وتلامس وجه ألأرض.ترى قراءتنا، في نواح الرياح وسف النخيل،:دلالتين بليغتين.على القيمة العليا للمصلوب.وهكذا ضمن مخططات الصورة، تكون لدينا حركتان: من ألأعلى الى ألأسفل ألأولى بشرية والثانية:طبيعية، تلي ذلك، حركة أفقية مزدوجة الدلالة، يبثها العويل، تبدأ من السهل وتنتهي بالمدينة (**كان العويل يعبر السهل بيني وبين المدينة**)، ويمكن توضيحها كالتالي:

السهل:---ع---و---ي---ل: * المدينة: العويل: حبل يشد المدينة خيط من النور.

-3-

تستوقفني (غريب على الخليج) طويلا، كلما تصفحت ديوان السياب، وشخصيا أرى ان السياب، من خلال هذه القصيدة هو بكل جدارة شعرية، مؤسس قصيدة المنفى، وليس شاعرنا الكبير سعدي يوسف، كما ذهبت الناقدة فاطمة المحسن* لقد غادر سعدي يوسف العراق، بطريقة رسمية، وليعمل مدرسا في الجزائر بعد ان ذاق مرارة الاعتقال، ثم عاد معززا، في فترة ما يسمى بالجبهة الوطنية في أوائل السبعينيات، ليغادر العراق بجواز رسمي في أواخر السبعينيات، وتحديدا، مع بداية حملة النظام الصدامي، ضد قوى الخير في العراق، في حين تسلل السياب الى الكويت في الخمسينات، وهو المطارد من النظام

الملكي في العراق وعانى الأمرين في الكويت، لذا لا يقاس المنفي بمقياس الزمن التقليدي، بل بوضعية المنفي اقتصاديا واجتماعيا، وهنا ترجح كفة السياب وحده.وبعد قصيدة (غريب على الخليج) سيكتب شعراؤنا الكبار قصائدهم في هذا المجال: سعدي يوسف، عبد الوهاب البياتي، والجواهري، كتبوا قصائدهم بعيدا عن العوز والحرمان، وفي هذا الصدد، أحيل القارئ الكريم، الى مرجعيات ثقافية.

-4-

أعلى من العباب يهدر رغوه ومن الضجيج
صوت تفجر في قرارة نفسي الثكلى عراق
كالمد يصعد كالسحابة كالدموع الى العيون
الريح تصرخ بي عراق
والموج يعول بي عراق عراق ليس سوى عراق
البحر أوسع مايكون وأنت أبعد ما تكون
والبحر رونك ياعراق.

من قصيدة (غريب على الخليج)

في هذا المفصل الشعري، نلاحظ كيف تتجاور الصورتان، المرئية والصوتية، .وتعمق المرئية، في دلالة الصورة المسموعة، يتوسط الفعل (يهدر) الجملة ألأولى، ليضع (العباب) في كفة، و (الضجيج) في الكفة ألثانية، ويمكن توضيح ذلك كالتالي:

يهدر
العباب الضجيج

وبعد أن وظف الشاعر فعلا صاخبا، بصيغة مضارع، للدلالة على أستمرارية الحركة، يوظف فعلا مضارعاً آخر لنقل الحركة ذاتها الى راتوب أعلى:

(يصعد)، وبالطريقة هذه يتحول الهدير، من حركته ألأفقية، الى حركة عمودية مشحونة بأندراج ثلاثي:

كالمد.....
كالسحابة....
كالدموع....

ومن خلال فعل (يصعد)، يتحول وجع النفي من مكابداته الجوانية (صوت تتفجر في قرارة نفسي الثكلى عراق)، الى فعل براني صاخب، بثلاثة أنساق تسخن الدلالة لدى المتلقي:

* الريح تصرخ بي عراق.
* الموج يعول بي عراق
* البحر أوسع مايكون، وأنت أبعد مايكون

ان للريح هنا نفس دلالة الرياح في قصيدة (المسيح بعد الصلب)، والتي تناولناها في قراءتنا هذه، وكأن الصريخ لايفي بالغرض الدلالي، فيوظف الشاعر (يعول) الذي يشتق منه (العويل)، ثم ينتقل الشاعر من الصورتين الصوتيتين، الى الصورة المرئية، التي تعلل المصد/الحائل بين وصول الصوت الى الوطن، .. في هذه الصورة المرئية، ثمة معادلة متساوية في المسافة، تخبرنا القصيدة به وهي توصّفه بوزن (أفعل)،

* أوسع ------* أبعد

السعة، لاالطول للبحر، والسعة هنا توحي ان المكان المعني يتموضع بموازاة المكان الأوسع/البحر، والضميرالمنفصل للمخاطب (أنت)، يعود على العراق، ثم يجيء السطر ألأخير في هذا المفصل، ليختزل المفصل كله، في الصورة المرئية التالية:

(البحر رونك ياعراق).

وهكذا يكون البحر مصدا مائيا ينفي الشاعر عن الوطن: وحين نغوص في مسيرة آلآم بدرنا السياب، ستستوقفنا الكثير الكثير من المصدات، التي سعت بكل صلافتها لتضيق مديات رؤى السياب، لكنها، فشلت، لأن السياب طراز بصري عراقي من هاملت، الذي قد يكون في قعر جوزة لكنه ملك الرحاب.

-٥-

(أصيح بالخليج
ياخليج
ياواهب اللؤلؤ والمحار والردى
فيرجع الصدى
كأنه النشيج
ياخليج
ياواهب المحار والردى)
(غريب على الخليج)

في هذه الصورة السمعية، يتفعل التضاد، ليعمق دلالة ألأفق المغلق، الذي لا ضوء في نهايته، ، فالصدى لا يكرر حمولة الصوت، بل يحذف منه القيمة العليا، المشخصنة بـ(اللؤلؤ).والسبب، أن الصدى فقد فاعليته، وتحول الى محض نشيج. لا يهب سوى المحار والردى...نلاحظ هنا كيف يوظف السياب، التناغم الصوتي بين مفردتي: خليج/ نشيج . ثم يفارق بينهما في المحمول الصوتي:

الصوت الصدى

* أصيح بالخليج ياخليج
ياواهب المحار اللؤلؤ فيرجع الصدى
كأنه النشيج ياخليج
والمحار والردى. ياواهب المحار والردى

ومن منظور آخر، يمكن أعتبار النشيج بمثابة نتيجة لسبب هو الصياح، شحنة حمولة نداء غريب على الخليج.

نحاول الان نفترض فهرسا شعريا، لتنويعات الصوت في قراءتنا السمعية لهذه المجتزءات من قصائد بدرنا السياب.

الصوت السطر الشعري القصيدة

نواح سمعت الرياح في نواح طويل. المسيح بعد الصلب

العويل العويل.. مثل حبل بيني وبين المدينة القصيدة نفسها

العويل العويل خيط من النور القصيدة نفسها

العباب أعلى من العباب غريب على الخليج

الضجيج يهدر ومن الضجيج القصيدة نفسها

الريح الريح تصرخ ...نفسها

الموج الموج يعول .... نفسها

الصدى فيرجع الصدى نفسها

النشيج كأنه النشيج نفسها

ألأفعال الدال على الصوت.

* سمعت
* أنصت
* يهدر
* تفجر
* تصرخ
* يعول
* أصيح

حتى السمع وألأنصات، لم تكن لهما السيادة في (المسيح بعد الصلب) بل هما بمثابة جناحي طائر الرعد، حيث يتحولان الى عويل مزدوج القيمة، هو حبل ألأنقاذ وخيط النور

(كان العويل يعبر السهل
بيني وبين المدينة
مثل حبل يشد السفينة
وهي تهوي الى القاع)
(كان العويل

مثل خيط من النور بين
الدجى والصباح)

في غـريب علـى الخليـج، تجيء ألأفعال مثقلة بشحنات الغضب العادل، في ذات مـرهفـة، مضـطهـدة مطـاردة سيـاسيـا واجتمـاعيـا واقتصـاديـا، هي ذات المثقف العـراقي الذي تتماهى ذاته الخلاقة المبدعة، في ذات حلم ثـوري، يقبل قـسمـة الخبـز والمعرفة والعلم والرفـاهية، على كافة الجديرين به والجديرات. فالشاعر في غريب علـى الخليج يهدر كـالعباب والضـجيج، والعـراق يتفجـر صـوتـا في آتـون نفسه، ويصـرخ كـالـريح وكـالمـوج يعـول، ويـصيح بخـليج الـرفـاهيـة، خليج اللـؤلـؤ، فـيجيء الصدى بقشور اللؤلؤ وبرودة الموت...

ربما كـان السياب، المثقل بفواجع اللحظة العراقية، الصاخبة يحمل روحـا أستثنائية تـدفعه لأختـراق كل المصـدات بتنـويعـاتهـا القاحلة.

*** مرجعيات**

* نجيب المانع/الشعر العربي الحديث، يتحرر من ألأكذوبة/مجلة المثقف العربي/ع2/آذار1969.

* فاطمة المحسن/ سعدي يوسف، النبرة الخافتة في الشعر العربي الحديث/جاء في ص85(فسعدي يوسف يكاد يكون الشاعر العراقي ألأطول تجربة في العيش مرغما خارج بلده، ويمكننا ان نعده مؤسس قصيدة لمنفى التي تأثر الكثير من الشعراء بمفرداتها ومناخاتها، عد بدر شاكر السياب، نفسه منفيا في مجموعة من القصائد، لعل أشهرها(غريب على الخليج) ثم تذكر الناقدة تجربة البياتي والجواهري في هذا المجال، ...وهنا أتساءل هل تقاس التجربة طوليا فقط؟ أي عبر الزمن التقليدي؟ ام من خلال المعاناة الصحية والنفسية والعوز المادي هل هناك تجربة أشد قساوة من تجربة السياب، المخذول من قبل الكل؟ وبخصوص منافي البياتي، أكتفي بالإحالة الى ص25 من كتاب الروائي الكبير حنا مينا والمعنون (ناظم حكمت.السجن.المرأة.الحياة)ط أولى/دار ألآداب/1978. وكذلك الى ص21 من كتاب الناقد الراحل مدني صالح/هذا هو البياتي/ط.وزارة الثقافة والأعلام/بغداد/1986. وبخصوص (منفى براغ) فأحيل الى ما كتبه الناقد الراحل غالي شكري، بكل الحب عن شاعرنا ألأكبر الجواهري، حين كان في براغ، وانا سوف أعتمد على الذاكرة لأعيد القارئ الى كتابين للناقد غالي شكري، (مذكرات ثقافة تحتضر) (ذكريات الجيل الضائع) والثاني مطبوع في بغداد، منتصف السبعينات، وبخصوص شاعرنا الكبير سعدي يوسف، فقد سرد أوجاع منافيه في كتابه الرائع (خطوات الكنغر)، ولكن تبقى تجربة السياب، في غربته عن المكان ألأم، وفي تمزقاته الفكرية والصحية والاجتماعية هي التجربة الأشد وجعا، لذا هو بحق صاحب الريادتين: ريادته في الشعر العربي الحديث، الذي انبثق في أربعينات القرن الماضي، وريادته، في الكتابة الشعرية الحديثة عن مكابدات الشاعر العراقي في المنفى.

آلية تشغيل ذاكرة الشخصيات في سرد قاصّات النجف

مؤيد عليوي

تناولت في هذا الموضوع أكثر أسماء كاتبات القصص في مدينة النجف الاشرف، حضورا في المشهد الثقافي العراقي: (فليحة حسن، بتول فاروق، إيمان السلطاني، رؤى زهير شكر)، والأكثر في استثمارهن الذاكرة لتشكيل ألوانهن القصصية.

أولا: القاصة فليحة حسن: (حزينيا أو نقص في كريات الفرح) (1)

تقف متقدمةً على زميلاتها في تشغيل ذاكرة الشخصية الرئيسة (الزوجة) في نصها، دون الاعتماد الكلي عليها، بل أجادت القاصة لتشغيلها الذاكرة غير لافتة المتلقي الآخر الى ذلك، لحسن تخلصها في السياق المتواشج بعناصر القص و المُتذكر السردي منه، أما آلية تشغيل الذاكرة في قصة (حزينيا أو نقص في كريات الفرح) فتعتمد على تنوع أساليب فن كتابة السرد فيها، أولها الأسلوب الرمزي لحرية الزوجة كتمهيد للقصة:(عم تتحدثون؟/ كنتُ أود لو سألت العصافير..)، حيث تؤدي العصافير دلالة الحرية المرموز لها عند الزوجة الرافضة لمعاشرة الزوج كما تشي نهاية القصة بذلك، فينتقل السرد الى الأسلوب الواقعي:(وصار أن تبادلنا الأدوار– قسرا – هو ينام الى ما تيسر له من وقت. وانأ اركض لاقمة ذيل ثوبي فمي)والمقصود بـ(هو):الزوج، وليكوّن هذا الأسلوب الواقعي واقعا سرديا سرعان ما ينزاح بالنص الى اشتغال ذاكرة الزوجة بسلاسة وخفة تخلص في: (هو الآن ينام مستلقيا على جانبه فيحتلني، إيه من هذه اللحظة، إذ لا درع يقيني سيل ذاكرتي وكيف كنت انتشي بحضور طيفه و..) وتنتقل الزوجة في ذكرياتها الى حواراتها مع زوجها، التي كانت تشبه حوارات الفنانة هديل كامل في المسلسل العراقي – السوري (الحب والسلام)على شاشة رمضان السومرية (2)، عن دور الزوجة التي تعاني ويلات الحروب في العراق، هذا الحوار في

المُتذكر من اشتغال ذاكرة الزوجة يشبه الى حدٍ ما حواراتها معه في الواقع القصصي بعد سقوط نظام الحروب – قبل نهاية القصة –، ليؤشر النص بسيمائية غير مرئية لتلك الحوارات المتوائمة، أن مأساة المرأة العراقية لم تنتهِ بنهاية نظام الحروب مع دول، بل استمرت علنا على يد التكفيريين والإرهابيين أعداء السلام، لان الزوج كان عاطلا عن العمل ونائم أغلب وقته.. في المُتذكر عند زوجته وكذلك في الواقع السردي الذي تجاوز زمان الحروب الماضية الى الواقع الحاضر في العراق الدامي، الذي تكثر فيه البطالة، ونهب ثرواته على أيدي الفساد الإداري، وهنا يتم تشغيل الذاكرة في وجهة ثانية: إشعار المتلقي بآلام المرأة العراقية في زمانين مختلفين، هذه الوجهة هي الرسالة أو الشفرة اللغوية المراد للنص إيصالها للمتلقي.

ثم يرجع القص الى الأسلوب ألواقعي بشيء من الواقع السردي:(ها قد أتعبه النوم على جهة واحدة، هو ينقلب.....) لينتهي بـ (وتضحك مني ذاكرتي لتقول انه هو)، ولابد من وضع السبابة هنا للإشارة لأثر التطور ألمعلوماتي (شاشات القنوات الفضائية) ليومنا المعاصر في النص المكتوب، إذ يمثل الرجع الى الواقع السردي بدلالته البسيطة غير المعقدة، بما يشبه الفاصل الإعلاني الذي يظهر بين فينة وأخرى على الشاشة الفضية، بل حتى في القنوات المسموعة، و هذا الاستعمال يمثل تطورا في فن الكتابة القصصية في العراق إذ يختلف تماما عن أسلوب سرد التداعي المتواصل دفعة واحدة من ذاكرة الشخصية القصصية، حيث ينتهي الواقع السردي (الفاصل)، بالتواصل مع ذاكرة الزوجة ضاحكةً بازدراء منها، ضمن شفافية العبارة الدالة عليها:(وتضحك مني ذاكرتي لتقول انه هو) فتكون باب الولوج الى تشغيل الذاكرة مرة أخرى بتواصل ذات العبارة الأخيرة من الواقع القصصي: (وتضحك مني ذاكرتي لتقول انه هو؟/ (هو) لم تتغير، فقط لا يطابق.....) ويستمر الى عبارة (... العاشرة والنصف صباحا)التي تشير الى استيقاظ الزوج في الواقع السردي الذي يتواصل حتى تقول الزوجة للزوج في حوارها:(الآن تذكرتْ بأنني عاطلة عن الأمل بدونك؟ أنتَ الذي عقدتَ قراني على الحزن بيديك، .)هنا أوقفت القاصة(فليحة حسن) ذاكرة الزوج على لسان الزوجة، كاشفة سبب إحجام الزوجة عنه في فراش الزوجية:(سمرت جسدي على التي أزعجها تقلبي ليلا بحثا عن جانب دفء)في بداية القصة، لأنه عاطل عن العمل.... لا يتحمل عنها مسؤولية شيء، دائما حزين هائم في ملكوت اللّه، غير واقعي متشائم حتى من الصباح، بل صار مراوغا مع زوجته التي تشتغل ذاكرتها بحيوية، لكن على الرغم من ذلك لم تعد تتذكر لحظات السعادة معه:

(إذا كان الرجل هو مَن أحببت فلمَ لمْ أحتفظ بمكان واحد يشي بقشعريرة لمساته...؟؛؛) بسبب استمراره على وضعه، ثم تسقط طفلها في نهاية القصة، نتيجة نومها معه لليلة واحدة:(أذن أنتِ لن ترجعي عن قرارك ،/ ــ كيف لي أن أرجع عنه وأنت تريدني أن أصنع لك طفلا بمجرد حادثة ليل وأن سُجلت بأوراق شرعية؛آسفة لن أجسد بقايا حبّ على شكل إنسان ولو جاء ببراءة طفل).

ثانيا: القاصة بتول فاروق

أسلوبها يأخذ مجرى مختلفاً عما سبق، حيث نقرأ في مجموعتها(3) فن الأقصوصة أو القصة القصيرة جدا أو الشرارات أو...، – ومضة الجملة القصيرة جدا – وهي تعبر في كتاباتها عما يدور في خِلدها كما تشي هي عن ذلك في مقدمة المجموعة: (حين كتبت جملي القصيرة هذه لاأدري إن كنتُ قد أعطيت معنى ما يفيد القارئ أم لا؟ وأن كنت أتمنى أن أكون قد أعطيت معنى ولو كان صغيرا)، وبهذه الوشاية المتواضعة يكون تشغيل الذاكرة في النص مرتكن على اللاوعي المعرفي لـ(بتول فاروق)، بمعنى أن دراسة آلية تشغيل الذاكرة ستكون على البنية البرانية لذاكرة القص التي أوجدت المجموعة، مثال هذا نص:(حكايات رأس)(4) ففي المقطع الثاني منه: (راسي كرة جليد/ يكبر/ حين يتدحرج) هنا تشتغل القاصة على مفهوم التضحية والشجاعة في التضحية التي تجعل اسم الإنسان يظل مدى الأيام مستعملة استعارة احد مظاهر الطبيعة لتعبر بحركيتها عن حركة الأيام، ومثله تأثرها بالموروث العراقي الإنساني: شجاعة الإمام الحسين–ع– في معركة ألطف، فتأخذ منها حادثة رفع رأس الحسين –ع –على الرمح لتكوّن المقطع الثالث: (عمود.../ معلق عليه الرأس/ لا يشبه أي عمود/ أنه متوج بالتاج الملكي!) أن ذاكرة (بتول فاروق) تنشط في هذه المنطقة لتمنح النص مساحات دلالية واسعة ذات بعد أنساني نبيل لاسيما أن الرأس فوق عمود يشبه عمود الكهرباء الذي يضيء الطريق للمارة، فيكون الرأس بمثابة المصباح – النور الثوري– الذي تدركه العقلية المبدئية التي تناضل ضد الطغاة والدكتاتوريات في العالم من اجل إسعاد الفقراء والمهمشين...، متماهيا جدا من قصيدة النثر في تكثيف المعاني المتخيلة من الذاكرة الجمعية للشعب العراقي، في جنس أدبي = القصة القصيرة جدا، الذي (يمتاز بقصر الحجم والإيحاء المكثف والنزعة السردية الموجزة والمقصدية الرمزية والتلميح والاقتضاب والتجريب والجملة القصيرة الموسومة بالحركية والتوتر وتأزم الموقف والأحداث) (5)، لكن أقصوصتها هذه، لا تملك مقومات قصيدة النثر وان امتلكت بعض الشاعرية المكثفة للمعنى، فلقصيدة النثر: الخيال الجامح الخصب والإيحاء الداخلي، وخلق صورة فنية أكثر غرائبية، و.....، ويكون هذا جوابي على سؤال (بتول فاروق) في ماهية كتابتها هذه، التي أتمنى أن تتجه لقصيدة النثر وتستثمر موهبتها في الشعر، أما اشتغال اللاوعي المعرفي في ذاكرتها، على الموروث العراقي الإنساني انف الذكر فان مثله تماما نجده عند شاعر قصيدة النثر العراقي (مقداد مسعود) في مجموعته الشعرية من نص (لسعة):

(الرمل يقظ مثل أفعى
أفعى خطرٌ
على
الرمل
أربع طوبات
يطوي الصحراء
(هل الصحراء منديل؟)
فلا

يتساقط

رمل

على

رأس رمح)(6)

أراد الشاعر بـ(رأس/ رمح) ارتفاع هامة أخيه الذي غيبته قوى الظلام (7)

.

ثالثا: القاصة أيمان السلطاني

تكشف القاصة عن اعتمادها الكلي على تشغيل ذاكرة المرأة، الشخصية الوحيدة في سرد (المظلم والمضيء)(8)، حيث في بدايته: (كانت الصور تتلاحق في مخيلتها، .... كما تتلاحق صور الغيوم عند من يحدق فيها) إذ تمثل القصة مجموعة انثيالات زوجة، تحركها صورة وهمية تراءت لها على جدار غرفة الزوجية المهجورة من الزوج، أي أن الزوجة تعيش الوحدة مع ذكرياتها الشخصية – ذاكرة فردية – ثم أن إيمان السلطاني تناولت السرد بأسلوب الراوي العليم الذي يروي كل شيء عن شخصيات سرده دون إظهار ملامح الشخصيات في حوارٍ –على سبيل المثال –، ودون أن يكون لهم دور في الحدث باستعمال الضمير المناسب للشخصية، وهنا تسرد القاصة بأسلوبها انف الذكر، مستعملة الضمير المنفصل (هي) للتعبير عن الزوجة إذ نلحظ من الاقتباس المأخوذ من وسط القصة تنبيه القاصة الى كشفها عن اثر تشغيل ذاكرة الزوجة:(أما هي فتسمع ولا تجيب، فرس جامح يصول في ساحة الذكريات، ....) فالمُفترض أن يكون ما في العقل الباطن، يظهر على لسان الشخصية القصصية ذاتها بشكل من الإشكال دون وصاية المؤلف، بمعنى أن الواقع السردي هو من يرسم ملامح شخصيته بريشة وحذاقة المؤلف؛ وهكذا في جميع زوايا السرد الذي اعتمدته القاصة، حتى نراه بوصفها لحركة الزوجة داخل البيت قبل نهاية القصة: (... قادتها خطا ميتة المشاعر وارتقت بها السلم...عقلها الباطن كان يبرمج لها خطى....)، ثم يستمر القص الى نهايته وصفيا لآلام المرأة التي عانت ومازالت ترزح تحت وطأة حياة قاسية التعامل على وفق قيم متصلبة وجامدة وهذا ما يحسب للقص.

رابعا: القاصة رؤى زهير شكر

في قصتها (لحظات من الوجد)(9) التي تبدأ بتمهيد مفعم بالمشاعر الإنسانية الرومانسية، وتسوق هذه الرومانسية حتى نهاية القصة بعفوية قلمها الذي استطيع أن أكتب عنه: لرؤى زهير شكر مستقبل وضّاء في كتابة القصة القصيرة بل وفي الرواية كذلك، لو أدركت بقايا فنية هذه الكتابة – باعتمادها القراءة النقدية لما تقرأه من سرد – إذ حدثتها عن هذا الرأي في أحد الأيام على حديقة اتحاد الأدباء في النجف.

ففي التمهيد الذي يبدأ:بـ (بقي ممسكا بيديها...) وينتهي بـ(فقد وجد نفسه أسيرا لليوم والأمس والذكرى)، الذي حدد توزيع حركة (فارس) ومشاعره بين أمسه: ذكرياته مع الحبيبة (أسرار) وحاضره معها مريضة جدا بمستشفى، ينتظر أجراء عملية لحبيبته (أسرار)، القاصة هنا لم تفسد لعبة السرد الحديث بالكشف عن المستشفى –مكان تفاعل مشاعر فارس– لكنها احترمت ذكاء المتلقي ولمحت له تلميحاً في التمهيد ووسط السرد وآخره، وقد اشتغلت رؤى زهير على

تشغيل ذاكرة (فارس) بعد التمهيد، على وفق آلية مقاربة ولو بشيء، من آلية تشغيل ذاكرة الشخصية، عند زميلتها (فليحة حسن).

أما في الأشياء الأخرى فقد أضاعت الإمساك بخيوط سرد التداعي لـ(ذاكرة فارس) حيث أعادت القاصة الشابة كلمة (يتذكر) 9 مرات متتالية، وما يتعلق بها من مشتقات صرفية أو ما يشير الى حالة اشتغال الذاكرة مثل (استرجع)، وأحيانا مرتين متتاليتين في جملة واحدة، فلو استعملت ضمير المتكلم ليعبر عن شخصية (فارس) والاستغناء عن التكرار الذي يشي بتدخل المؤلفة ويفضح حالة تشغيل ذاكرة الشخصية، لكان للقصة شأن آخر.

ونلحظ تركيز السرد على مشاعر(فارس) دون (أسرار)، وإدخاله في حوار قصير أُستلَ من ذاكرته بسلاسة وخفة قلم جميلةٍ، وذا ما يحسب للقصة مقارنة بتجربة القاصة الكتابية.

الهامش:

1- **ينظر: فليحة حسن، (حزينيا أو نقص في كريات الفرح)، جريدة طريق الشعب (بغداد)، العدد: 33 لسنة75، الخميس 17 أيلول 2009، ص 6.**

2- **قناة السومرية الفضائية، مسلسل (الحب والسلام).**

3- **ينظر: بتول فاروق، المقصلة الوردية، مطبعة الكوثر، دون مكان الطبع، 2002.**

4- **ينظر: م، ن: ص .17 – 18**

5- **زمن عبد زيد الكرعاوي، مدخل الى القصة القصيرة جدا وتأريخ نشأتها وتطورها، مجلة الموقف التربوي، (النجف)، تصدر عن تربية النجف الاشرف، العدد22 السنة 7، 2009، ص 46.**

6- **مقداد مسعود، قصائد المغيب والمضيء، شركة دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر، بغداد، 2008: ص 9.**

7- **ينظر: م، ن: ص3.**

8- **ينظر: أيمان السلطاني، مجموعة قصص المظلم والمضيء، منشورات إبداع النجف الاشرف، النجف، 2008، قصة المظلم والمضيء: ص4 -8.**

9- **ينظر: رؤى شكر، (لحظات من الوجد)، جريدة طريق الشعب (بغداد)، العدد: 192 لسنة74، الثلاثاء 26 أيار2009، ص 7.**

قصة قصيرة

سقوطاً إلى الهاوية

أحمد محمد الموسوي

كان يخشى أن ينتصب على قدميه كلما تحسس الأرض الرخوة من تحته وهو يقف بكرسيه المتحرك على حافة الهاوية..

كان يحس بالرعب وكأنه سرب نمل أبيض يتسلل عبر مسامات جسده النحيل لينهش مخ عظامه..

هذا الحلم الكابوس كان يأتيه في كل ليلة منذ أن فقد ساقيه في انفجار مجنون طال إحدى ساحات العمل ببغداد.. كان لحظتها جالساً على الرصيف بانتظار الفرج.. كان يفكر في أجر جيد يمكنه من شراء صدرية المدرسة لابنته وحذاء جديد لولده الأصغر ذي السنتين.. فها هو قد بلغ من العمر ما جعله يطأ الأرض بقدميه كثيراً هذه الأيام..

– أصبح يستهلك الأحذية ابن الـ.....!!

وقبل أن يدوي الانفجار بنصف لحظة خطرت في خياله طريقة مشية ولده اللذيذة.. مرت مثل أشباح أهداب تتساقط في الهواء أمام عينيه.. تذكر كيف كان يضرب بقدميه الصغيرتين العاريتين أرض الغرفة وسط هرج وصخب وتهليل من في البيت.. كان يصرخ في سره وهو ينظر إلى حركة العمال والسيارات والباعة في الساحة كمن لا يرى شيئاً:

–تاته.. تاته.. يلله.. يلله.. تاته.....!!

لا.. لا.. لا لا لا اااااااااااااااه.....!!!

بدأ يصرخ ويصرخ منفجراً مثل بركان لا يهدأ..

– لماذا تسقط يا ولدي كلما أردتُ أن ألتقطك إلى أحضاني؟!.. لماذا؟!!..

أفاق في المستشفى بعد الحادث بأيام وهو جذع ممدد على السرير.. وبدونهما.. بدون ساقيه!!

تلك اللحظات لم تفارق مخيلته وتفكيره أبداً.. لقد كانت تلازمه طيلة امتداد نهاراته الموجعة لتسلمه بالتالي إلى كابوس لياليه الرهيب..

في ليلته تلك كان عنكبوت اليأس قد تمكن من نسج كامل خيوطه في زوايا تفكيره..

– لقد أصبحت الحياة وكأنها خزان

قذارة!!!.. الآخرون بدت تتضح على وجوههم خطوط الملل.. حتى الذي كان يقدم المساعدة بالكلام فقط أصبح لا يأتي!!... الحياة أصعب من أن يتحملها عنك الآخرون!!...

لقد حمل كل هذه الأفكار والهواجس والهموم معه في تلك الليلة إلى الفراش..

الفراش؟؟!!!...

هو ليس كذلك.. إنه عش الدبابيس مثلما كان يحلو له أن يسميه عادة.. وكما صرح بذلك على سبيل الدعابة لزوجته وأصدقائه أكثر من مرة.. هكذا كان يشعر به.. فهو عادة لا ينام أو أنه لا يستطيع أن يمارس فعل النوم المعتاد بقدر ما كان يمارس لعبة الهروب إلى الداخل.. الهروب من سطوة اختلاء المكان وعدم قدرته على مغادرته على قدمين صحيحتين إلى مكان آخر..

ها هو ينام.. أو ها هو يهرب.. أو....

لا فرق.. المهم أنه كان ملقى على فراشه الذي كان يحتفظ لحد تلك اللحظة بآثار تضميد فخذيه الموتورين..

الحياة أصبحت لا تطاق.. بل هي لا شيء سوى هذا الألم السحيق وهذه الحرقة التي كثيراً ما يحس بها مثل صمغ (سيكوتين) يلتصق بأعلى حلقه وصولاً إلى حنجرته.. كان يشعر بأيامه وكأنها تعصر معدته بكفٍ من جليد..

في تلك الليلة أخبرته زوجته أنها قد حصلت بعد لأي وأيام من البحث على عمل بأجرٍ وصفته هي بـ(أحسن من لا شيء).. كان من المفترض أن يفرح أو أن يطرح بعضاً من همومه ومخاوفه.. فحالتهم المادية بدأت تتدهور منذ زمن، والمعيشة أصبحت بثقل الجبال.. ولكنه أحس بهول الكارثة مثل سقف من الكونكريت يهوي على أم رأسه وهي تذكر له اسم صاحب العمل.. إنه يعرفه.. إنه.....!!

أطرق برأسه إلى الأرض.. ولم ينبس ببنت شفة...

دار بخلده: أن الليل على الأبواب.. وهو على يقين من أنه سيمارس كابوسه المجنون بأعلى ما يستطيع..

مد جذعه وما تبقى من فخذيه على الفراش الأسفنجي الرطب.. وضع رأسه بتؤدة على مخدته التي بدا واضحاً عليها أثر الأشهر الأربعة عشر...

في البداية حاول أن يذهب إلى كابوسه مباشرة.. جرّب أن يستعجله.. لكنه أيقن بعدم جدوى ذلك كله...

– الكوابيس تأتي متى ما تشاء هي.. لا كما ما نشاء!!..

استسلم للنوم بعد أن أرهقته الأفكار.. قاد كرسيه المتحرك ذي العجلتين المتهرئتين.. دفع بهما بقوة إلى ذلك المكان القصي.. إلى قمة تلك الهاوية.. ها هو يرى بعينيه بُعد قرارها السحيق.. حاول أن يتحسس صلابة حافتها بأطراف أصابع قدميه!!..

ولكنه ليس لديه أصابع!!.. بل ليس لديه قدمان أو ساقان!!.. نظر إليهما من أمام الكرسي المتحرك..وفجأة...!!

لقد كان شيئاً مثل صاعقة تنزل على رأس شجرة!!..

عجيب!!.. إنهما هنا أمام عينيه.. قريبتان من الأرض.. نعم.. إنه يكاد أن يشعر بهما.. نعم.. فهذه قدمه اليمنى.. وتلك هي اليسرى.. إنهما سالمتان..

– ولكن، لحظة، فربما تكون بعض أصابعهما قد فقدتا.. نعم.. نعم.. لا شك.. ربما.. يجب أن أتأكد.. لأعد الأصابع..

هكذا حدَّث نفسه في لحظة كان الفرح يتسلل إلى داخله مثل طفل يعدو في العيد بكامل حلته...

– نعم.. نعم.. لأعد الأصابع.. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة.. ها.. ها إنها كاملة نعم إنها كاملة.. لقد كنت واثقاً من ذلك.. إنها كاملة ولم ينقص منها إصبع واحد.. آ آ آ ه ه ه ه.. تباً لتلك الأفكار الرهيبة.. فلم تكن سوى كوابيس لعينة.. الأفكار السخيفة.. يا سلام.. يا سلام.. نعم.. الآن.. الآن سأقف على قدميَّ بعشرة أصابع وساقين كاملتين.. دونما حاجة إلى يدٍ تمتد بشفقة وامتنان.. نعم.. هكذا.. هكذا.. ضع قدميك هنا قرب هذا الكرسي البالي الأخرق.. نعم.. واقذف به إلى بعيد.. حطم هذه العجلات العرجاء ذات الإطار الصدئ.. فهي لا شيء.. لا شيء سوى محض هراء.. محض غباء.. نعم.. نعم.. قف ها هنا بثبات ولا تخشى شيئاً.. حتى هذه الهاوية.. لا تخشاها.. لا تخشاها فما هي إلا أرض أخرى ستطؤها قدماك الجميلتان بأصابعهما العشرة الكاملة.. نعم.. فها أنت تركض من جديد.. يا سلام.. اللّه.. اللّه..

ما أجمل أن تضرب برجليك الأرض.. ما أروع أن تجري، وتجري، وتجري بكامل قوتك، حتى وإن كان ذلك سقوطاً إلى الهاوية!!!.....

قصة قصيرة

كلاب سائبة

سلام حربه

ما ان ضج بيت شيخ صيهود بصراخ وعويل الخادمات ومُر بكائهن حتى شرّعت ابواب البيوت في المدينة وخرج الرجال والنساء والاطفال وهم يحملون العصي والهراوات والسكاكين والغدارات يتطاير الشرر من عيونهم والكلام البذيء يقطر مع زبد اشداقهم.. كانوا مندفعين كموجة يأس هادرة وقد ضرب قيعان قلوبهم زلزال مدمر اطاح بخوفهم فتعالى صياحهم واحمرت عيونهم وصرت الاسنان بالحنق وتشخطت الحناجر بالسباب والوعيد وهم يقتربون من قصر الشيخ صيهود المنيف، بموقعه المميز في بطين قلب المدينة، بشرفاته العالية وقبته الوسطية الدائرية واعمدته المرمرية وغرفه التي لا تعد ولا تحصى بشبابيكها المحكمة المزدانة بالزجاج الملون وابوابها المشرعة على الدوام والتي لم تستطع ان تأوي ذكريات تشرد الشيخ في طفولته والتي كانت تلاحقه وتنخر في راحته كالأرضة المدمرة، البيت موحش بالسكون توقظه بين الحين والاخر اصوات ضعيفة بُحت من فرط الهوان فقد فر رجاله وافراد عائلته وهو يعبُ بصعوبة شهقات موته ولم يمكثن واقفات عند فراش مرضه وروحه عند ابواب جسده الا خادماته بسحنهن الكسيفة ونظراتهن الكسيرة فاكثرهن من محظياته وقصص استدراجهن الى القصر تتناقلها الاحاديث المكتومة والهمس الاخرس على اسرّة النوم وتشع، لسحرها، عيون النساء في الظلمة بالحسد والغيرة وتُشعِلُ صدور الرجال بالغيظ لمحنَه الخادمات وهن ينظرن من وراء الشبابيك المسدلة الستائر، تواريين هلعات مذعورات وعيونهن لا تستقر نظراتها على شيء كقطيع حمام انقض عليه نسر كاسر حتما سيصيبهن بعض من شظايا غضب المدينة فما كان مكتوما في الصدور يتساقط الان حجرا يبقر اذان السامعين.. تطاير خشب ابواب البيت وتهشم زجاج النوافذ واندفعت الجموع وهي تبحث عن جثة الشيخ والذي كان مسجى على فراشه في غرفة نومه..

انسلت الخادمات الرشيقات، بلمح البصر، الى غرفهن السرية وامتدت الايادي الغليظة وهي تسحل الجثة خارج الغرفة وقد تناوشتها العصي والسكاكين والاقدام الثقيلة والاحذية العتيقة والنعل المقطّعة وسط وحل الهتافات المدوية وثرثرة الاطلاقات النارية التي احتقنت بهما سماء المدينة من باحة القصر وحتى خارج الاسوار فامطرت رعودا وزعيقا وفوضى اجبرت حميد ان يفتح باب داره المغلق منذ عشرات السنين، تقدم في الزقاق باحتراس مذهولا مما يراه باقدام واهنة خدرها الانتظار ليذوب بعد حفنة خطوات في السيل الجارف والذي تتقلب جثة الشيخ في امواج جنونه فتوزع لحمه البارد وعظامه الهشة وقسوته السوداء، التي تملأ راسه وتطرد الشيب من شعره حتى وهو في ارذل العمر، بطون الكلاب السائبة والتي كانت تلاحق الحشد الهائج وتُبقّع قطع منه وجه الطريق الموصل الى ساحة المدينة الدائرية الكبيرة بدمامل مهروسة داستها اقدام المتزاحمين وتعفن لها التراب على جانبي الطريق، وعند اقتراب الجمع الهائج من القبرين المزارين الكبيرين المطلين على الساحة لم تمسك القبضات المتصلبة من بقايا الشيخ الا ما تلتم عليه اصابع الايدي حتى ان مجموعها من قطع لحم وسلاميات اصابع وخرق ملابس وما تقيأته معد الكلاب من عصب وغضاريف الشيخ العصية على الهضم لم تملأ حفرة كلب سائب يستجير بها من حر الصيف اللاهب، جوار القبرين الرمزيين، في محيط الساحة ما اضطر بعض المسنين العقلاء الى ردمها واهالة التراب على ما فيها صونا لحرمة الميت اذ لا يجوز العبث واهانة ما يذكّر به حتى وان كان عاصيا وظالما تجاه ابناء مدينته واسامهم العذاب والحرمان طيلة عقود من تنصيبه شيخا عليهم بعد اطاحته بسرب النجوم من على اكتاف العسكري المغامر، ثاني سلالة الشيوخ المهووسين بالمدينة والذي منحها اسما ووضعا جديدين لم تألفهما من قبل، وحتى اخر ايام حياته وهو يكنس بصلف اثار من سبقوه ويمحو من كتب التاريخ اسماءهم وقد بلغ به الخرق حدا ان وضع له مئة اسم حَسِن تحيط بصورته القبيحة واطفأ جمرَ عقده بحرق اجساد اهل مدينته ليمسح خطايا امه وليخرس كل الاصوات الاصوته وليسخر حتى من الهواء ان لم يكن هو من يتنفسه.. كل هذا كان يجول بخاطر حميد ولسانه مشلول من نوبة الهياج التي تفتك بالجميع وهو يقف على قبر الشيخ صيهود الجديد الذي لم يكن يرضيه العيش في قصوره المصممة بدقة كالخواتم وروحه، كما كان يقول في خطبه الرنانة في مضايفه، هائمة كالاولياء الصالحين لم تجد مستقرا لها ليختمها منافسا لكلب سائب في حفرته لتضم ما تيسّر منه بعد ان وضع اكبر المسنين غصنا يابسا على التراب الندي من بصق الافواه كشاهدة لقبره.. ساحة المدينة الكبيرة غصت بالاجساد والاعلام والاصوات المتقاطعة ولعلعة الرصاص تجيب عن اي سؤال حائر اخرس وتقاطر القوم على زيارة قبري الحبيبين تدخل افواج تبدو كالمخدرة الى المزار الاول المزينة قبته بتاج ملكي فيما تتراص اكتاف افواج اخرى مبتهلة كي تلج المزار الثاني وترتمي على قبره الشبيه بدورة القمر الذي رأوه فيه وهي تلهج بمآثر صاحبه المرصعة قبته بالنجوم، يمسح

الزائرون في القبرين وجوههم المتعبة الكالحة بتراب جدرانيهما وبلاطهما المرمري ويرددون، بعيون مغمضة وهم سابحون في غيبوبة هانئة، خُطب صاحبي القبرين المحفورة في ارواحهم.. في منتصف الساحة توقف رتل من السيارات الحديثة المضللة المتشابهة.. انفتح البابان الخلفيان لسيارة سوداء عالية بدون ارقام، من اليمين نزل اصيل كالطاووس بهندامه الانيق وملامحه الناضحة بالعافية حتى ان خديه الاحمرين اللامعين لاكتفائه الجنسي يزدادان اشتعالا اذ يحيطهما سواد لحيته الخفيفة المشذبة، اغلقت عليه برمشة عين دائرة من رجال متشابهين ببدلات سود ورؤوس محلوقة وتقطيبات مفتعلة.. من الباب اليسار انسل حليم نازلا بحياء وبمظهر براق مصطنع، خداه شاحبان تكدنهما لحيته الكثة وتفضح قلقه اصابع يديه المرتعشة، كان اقل اثارة للانتباه وعيناه اللائبتان تلاحقان اصيل وتحذران ان تحطا على اي من الوجوه في الساحة.. تبادل اصيل وحليم الكلام الهامس، تحرك اصيل لوحده تحرسه انفاس مرافقيه وظلالهم، كانت عيناه تعكسان فرحا داخليا وهو يرقب الهرج والمرج وزعيق الاطفال وزغاريد النسوة ورفرفة الاعلام والهتافات الغريبة والابتسامات البريئة المكدسة على الوجوه.. لم يحتج حميد زمنا طويلا كي يتعرف على اصيل من بعيد.. فها هو اصيل يخز ذاكرته قبل سفره الى الخارج منذ خمسة وعشرين عاما فقد ارسله ابوه التاجر ليكمل دراسته هناك ولكن نتف الاخبار التي دقت مسامعهم اخبرتهم بانه لم يحصل على اية شهادة فقد غرق حتى اذنية بالمتع والضياع والملذات.. شق حميد امواج البشر المتدفقة مجدفا عكس التيار ليقف على مبعدة مترين من اصيل.. نظرا الى بعض.. نبشا في سجلات ايامهما.. لم يتغير من اصيل شيء سوى خصل شيب نبتت في مفرقه رغم ان عمره الان قد تجاوز الخمسة والخمسين عاما هذا ما نطقت به مفكرة حميد.. لقد تغير كل شيء في حميد واقترب من الكهولة رغم انهما من عمر واحد.. شعر ابيض ووجه مغضن يابس وعينان باردتان غائرتان انطفأ البريق فيهما وقامة قوّسها التعب والهم.. هذا ما افصحت عنه ذاكرة اصيل..

– حميد

– اصيل

تعانقا بشدة.. رجال اصيل امتدت ايديهم الى مخابئ مسدساتهم.. القبل الحارة على الخدود ارخت قبضات الرجال واندلقت لها الالسن من الافواه اذ لم يألفوا اصيلا يوما ذائبا في عناق احد.. ابحر اصيل في عيني حميد قال بحسرة..

– من الذي عمل بك هكذا.. ؟

اجاب حميد وابتسامة ساخرة لملمت شظايا وجهه..

– ومن غيره شيخ صيهود.. انا اخر الناجين من سطوته.. كان يذيقني الموت كل يوم.. حتى انه سجنني في بيتي خمسة وعشرين عاما..

زفر حميد بحرقه.. نظر الى اصيل بحزن لكن بصره زاغ، دون ارادة منه، ليحط بعيدا على كتفي حليم الذي يعطيهما ظهره.. التفت اصيل اجاب دون انتظار سؤال حميد..

– الم تعرفه.. ؟ انه حليم صديقنا..

هز حميد رأسه باسف.. رد بالم..

– حليم.. ! تبا له من عميل.. لقد غدر

باهل مدينته في ازمنة المحن..

صفق حميد يدا بيد.. طُعنت سحنة اصيل بعدم الارتياح..

تشابكت يداهما مخترقين الصفوف ليقفا عند القبرين الشاخصين.. تأملهما اصيل ونظر الى حفرة قبر صيهود وغصنها اليابس.. باغته حميد بالكلام وهو يشير الى قبر العسكري المزدان بالنجوم..

– حين ثار هذا المغامر على امير المدينة وقتله شر قتلة ونصّب نفسه شيخا عليها خرج ابناء المدينة كما يخرجون اليوم وعمت الاحتفالات والفرح لكن ما ان ازداد طيش العسكري وتمرغ بجهله وغبائه المفرطين حتى بنى ابناء المدينة قبر الامير الذي نعرف من اي بيت شريف ينحدر وهو وعائلته من اسس مدينتنا.

نزق العسكري جعل الناس تتحسر على ايام الامير رغم كل الشبهات عن علاقة الامير بالغرباء وخضوعه لهم ورغم البؤس والحرمان واراقة ماء الوجه الذي عاشته المدينة..

اخرج حميد سيكارة من جيبه.. اشعلها.. سحب نفسا عميقا.. اضاف..

– وما ان ثار الشيخ صيهود على العسكري حتى سحق نجومه وقتله شر قتلة ونصّب نفسه شيخا على المدينة حيث عمت الاحتفالات والفرح بيوت المدينة لكن ما ان كشر الشيخ صيهود عن انياب قسوته وتمرغ بجنونه وطغيانه الاسودين حتى بنى ابناء المدينة قبر العسكري مزارا يتبركون به رغم تهديدات الشيخ صيهود وملاحقته لهم..

تنهد حميد بحسرة وهو يهز راسه بالم..

– لقد كان صيهود رمزا للسطوة والموت والناس تمنوا لو تُعاد ايام العسكري قاطعه اصيل بعصبية والشحوب اعتصر خديه..

– لن اسمح يوما ما ان يكون قبر الشيخ صيهود مزارا..

التفت اليه حميد غير مصدق..

– انت.. وما دخلك انت ان يكون قبر الشيخ صيهود مزارا او لا يكون.. ؟

انتبه اصيل، مسح بنظرة خاطفة الرجال العابسين المحيطين به، وبابتسامة واثقة على محياه.. قال بكبرياء..

– انا شيخ المدينة الجديد..

– انت.. ؟

رد اصيل بعصبية.. عيون رجاله بدأت تحمر وهي تنغرز في جرأة حميد..

– نعم، فانا اكثر المتضررين من شيخ صيهود، كان يلاحقني ولولا هروبي الى الخارج لكنت من ضحاياه، لقد عملت طيلة هذه السنين مع اخواني في الداخل على التخلص من شيخ صيهود، لقد قتل ابي وصادر ثروته..

اجاب حميد بانفعال منكسا راسه.. طحنت اسنانه عقب سيكارته..

– لقد مات ابوك بين يدي.. لقد قتله السرطان.. ولا تنسى ما فعله الشيخ صيهود لك ولابيك.. ابناء المدينة يعرفون مساعدته لك وانت في الخارج..

زعق بوجه حميد وهو يمسح بنظرات قلقة الدهشة في وجوه رجاله المحدقين به..

– انا اعرفك سابقا.. انت تكرهني وتغار مني وتريد ان تلوث تاريخي.. من يومك وانت لا تملك الا الثرثرة والركض وراء سراب الاحلام.. لن اسمح في المدينة بمثل هذا الكلام ثانية.. لن اسمح..

استدار اصيل وهو يغلي من الغضب،

انطلق كالسهم الى موكب سياراته يحف به رجاله وقد سمروا حميدً في مكانه بنظراتهم الثاقبة ورؤوسهم التي تتأرجح بالوعيد.. وفى اصيل بوعده وكنس، بمعونة حليم، من طريق المشيخة كل منافسيه بدهاء ديمقراطي لم يسبقه اليه احد ورقطت جثث اعدائه المغدورين الطرقات واكوام المزابل ولم تمض سوى حفنة سنين حتى دجّن ابناء المدينة كقطيع مروض يرفل بالاوهام والخرافات ويحرق اوقاته في العادات والطقوس الغريبة، أُجدبتْ الارض وصدأت المعامل وانتفضت الطبيعة على دورتها الابدية.

أفْرغَ اصيل خزائن المدينة وتمتع بالنساء بزواج صوري باطل وتعالى الانين والظلام في البيوت وبيّضت جرائم اصيل وجه صيهود المصخّم بالعار واجترّ الناس الحسرة على ايامه وحُكِمَ على حميد ان لا يغادر بيته مدى الحياة..

في كل صباح جديد كانت المدينة تصحو وقبر صيهود يشهق معافى فتعمل معاول رجال الشيخ اصيل على تسويته بالارض، وبعد كرّ في الليل وفرّ في النهار اورق الغصن اليابس وانتصب القبر مزارا جديدا، مرصعا بنياشين بطولاته الوهمية، قرب القبرين القديمين ينسل اليه خفية في الليالي الدامسة اليائسون وكل الفارين الذين اغلقت بوجوههم الحياة وتترصدهم عيون الشيخ اصيل..

تدهورت صحة حميد وسمع الموت ينقر باب داره..

كان يلهج بالدعاء ليل نهار ان يطيل اللّه في عمره كي يبصر نهاية الشيخ اصيل ومن سيخلفه في المشيخة وهل يرتضي كلب سائب ان يمنحه حفرته ليطمر نتن سيرته، وهل ما زال هناك في الارض من هو اسوأ منه.. ؟

حميد لم يغمض له جفن تقض الاسئلة وحدته وهو بانتظار الجواب الموعود..

في عددنا القادم:

ريادة الواسطي في مدرسة بغداد للتصوير — **قاسم العزاوي**

البكاء في الزمن الضائع قصة قصيرة — **سلام ألقريني**

عشر قصائد للشاعرة الأمريكية ليزا زاران / ترجمة وتقديم : معين جعفر محمد

تصورات العراقيين القدماء عن متاهات العالم — **د. فاضل السوداني**